امرأة فى الثلاثين

تأليف أونوريه دى بلزاك

ترجمة عبد الفتاح الديدى

دار المعارف بمصر

امرأة فى الثلاثين

تأليف

أونوريه دى بلزاك

ترجمة

عبد الفتاح الديدى



دار المعارف بمصر

BALZAC

LA FEMME DE TRENTE ANS

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م

المقدمة

الروائى العظيم

يعد أنوريه دى بلزاك بين أشهر كتاب الرواية قاطبة ، فعلى يديه اكتمل تحول الرواية من مجرد « حكاية » أو سرد لأحداث حقيقية أوخيالية إلى بناء فنى متكامل يزخر بالحياة والأحداث . ويخضع لمعايير فنية واضحة . وهو لم يفعل ذلك كما يفعل النقاد عن طريق صياغة النظريات ، وإنما صنعه عملا عن طريق عشرات الروايات التى كتبها خلال حياته التى لم تزد على واحد وخمسين عاماً . وليس أدل على منزلته الأدبية من أن أعماله قد تخطت منذ أمد بعيد إطار الأدب الفرنسى ، ونقلت إلى الكثير من لغات البشر . فهو إلى جوار شكسبير وديكنز أكثر الأدباء نشراً فى مختلف اللغات . ومن الغريب أن تفتقر المكتبة العربية إلى معظم مؤلفاته .

وقد ولد الكاتب الفرنسى الكبير فى العشرين من مايو ١٧٩٩ ، نفس السنة التى عاد فيها نابليون من حملته على مصر ، أى أنه ولد عشية إعلان نابليون نفسه إمبراطوراً على الفرنسيين ، وقد مات فى الثامن عشر من شهر أغسطس ١٨٥١ عشية إعلان

لويس نابليون ، ابن أخي بونابرت نفسه ، إمبراطوراً من جديد . وخلال تلك الخمسين عاماً شهدت فرنسا انهيار الإمبراطورية الأولى ، وإعادة الملكية في ١٨١٥ ، ثم ثورة ١٨٣٠ التي أطاحت بفرع من الأسرة المالكة، لتأتي بفرع آخر ، ثم ثورة ١٨٤٨ التي أعلنت الجمهورية الثالثة ، وأخيراً انقلاب لويس نابليون المذكور . وهكذا عاش بلزاك فترة من أغنى فترات تاريخ بلاده من حيث التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ما كانت لتفلت من نظره الثاقب .

وهو ينتمي اجتماعياً إلى الطبقات الوسطى ، فأبوه موظف من أصل ريفي أمضى حياته في خدمة الدولة عبر تغير أشكالها السياسية ؛ وأمه ابنة أحد التجار من باريس . وكانت تلك الطبقات في قلب الأحداث التاريخية ؛ فهي تزعمت الثورة الفرنسية الكبرى ضد النبلاء الإقطاعيين ؛ وهي التي استفادت من إمبراطورية نابليون ، ثم انقلبت عليه حين رأت مطامعه الشخصية تضر بمصالحها . وقد حاولت أجزاء منها أن تتعايش مع الملكية حين عودتها إلى السلطة ، وهي الطبقات التي كان ينتمي إليها غالبية المثقفين ، وقد حاول أهل بلزاك أن يدفعوا به إلى إحدى المهن القانونية ، فقطع المرحلة الأولى من دراسة القانون ، ثم عمل في مكتب محام ، وبمكتب موثق عقود ؛ ولكن هذا العمل الرتيب ما كان ليرضي الفتى الطموح الذي كان يرقب من حوله مجتمعاً يمكن أن يرتقي فيه ضابط صغير من كورسيكا إلى عرش الإمبراطورية ، ويصبح

فيه تاجر صغير — بفضل المضاربة أو توريد المؤن للجيوش — من أصحاب الملايين ، وترفع المغامرات السياسية بعض أصحاب القلم إلى مراكز الصدارة . ومن ثمّ هجر بلزاك مهمة القانون محاولا تحقيق « المجد » عن سبل أخرى ، فجرّب الصحافة والنشر والطباعة والعمليات المالية ، ولكن كل محاولاته لم تورثه إلا الإخفاق والديون التي تراكمت عليه حتى وفاته . وكانت أعماله الأدبية الأولى أبعد ما تكون عن النجاح . ولكنه عاد إلى الكتابة تحت إلحاح مزدوج من موهبته الطبيعية ، ومن حاجته إلى المال . فقد كان ينشر معظم أعماله في الصحف في شكل « مسلسلات » يقبض ثمنها مقدماً .

وأول ما يلفت النظر في أدب بلزاك هو غزارة الإنتاج بشكل منقطع النظير . فقد كتب في حوالي ربع قرن ما يزيد على تسعين رواية وقصة قصيرة ومسرحية . وفي السنوات الثلاث ما بين ١٨٣٢ و ١٨٣٥ وحدها كتب عشرين مؤلفاً ..! وقد أحصى بعض المتخصصين في الدراسات البلزاكية الشخصيات المذكورة في رواياته ، فوجد أن تلك الروايات تضم ٢٤٧٢ شخصية خيالية محددة بالاسم والمعالم ، و ٥٦٦ شخصية مذكورة بالوظيفة فقط ، فضلا عن شخصيات تاريخية حقيقية عديدة . ولكن ثمة ما يذهل أكثر من الأرقام : لقد تمكن بلزاك من أن يجمع الجزء الأهم من رواياته بعد الطبعة الأولى في أكثر من عشرين مجلداً تحت اسم « الكوميديا الإنسانية » . وفي تلك الروايات جميعاً تصادف حشداً

من الشخصيات تلعب من رواية إلى أخرى الدور الذى رسمه لها بلزاك. ويخرج القارئ بإحساس عميق بأنه أمام عالم متكامل متشابك المصالح متواتر الأحداث ، تمثل كل رواية جانباً من حياته . أو طرفاً من أحداثه ، أو لحظة من تاريخه . وبرغم أن المؤلف لم يرسم خطة « للكوميديا الإنسانية » مقدماً ، بل كتب رواياتها عبر الخاطر ، ولم يقم بجمعها إلا فيما بعد ، فإن الشخصيات التى تعاود الظهور من رواية إلى أخرى تحافظ على مميزاتها وتتسق تصرفاتها كما لو كانت تحيا دائماً فى وجدان بلزاك .

وكانت تلك الشخصيات الكثيرة تغطى تقريباً كل النماذج البشرية التى تميز بها المجتمع الفرنسى ، فى النصف الأول من القرن الماضى : فن النبيل المغامر الذى يحاول تنظيم مقاومة مسلحة لصالح الملكية ضد الثورة ، إلى السيدة « الأرستقراطية » المرفهة ، إلى قاطع الطريق الهارب من « الليمان » . والواقع أن بلزاك كان من خلال عمله الروائى الضخم مؤرخاً للمجتمع الذى عاش فيه كأدق ما يكون المؤرخ . وتعد رواياته مرجعاً أساسياً لكل من يدرس الحياة اليومية لفرنسا فى تلك الفترة . وقد ساعده على ذلك عدة أمور : فهو كان يقصد قصداً أن يؤرخ لعصره بعد أن حاول فى البداية كتابة روايات تاريخية عن نشأة فرنسا ، وهو من ناحية أخرى كان على معرفة وثيقة بالمجتمع الذى عاش فيه . فكان أجداده لوالده يربطون أصوله بالفلاحين وبمعيشة القرية وأحلام شباب مدن

الأقاليم الطامحين للمجد فى العاصمة ؛ كما عرف من أسرة والدته حياة تجار باريس ومشاغلهم ؛ ومن فترة عمله القصيرة فى الشئون القانونية لمس عن كثب أنواع العلاقات القانونية الجديدة التى بدأت تستقر فى البلاد على ضوء قوانين نابليون الشهيرة ؛ وخلال مغامراته المالية المخفقة خالط أوساط « البورصة » وتعلم الكثير عن المضاربين وأصحاب البنوك ؛ وهو كصحفى ، ثم كأديب ، عاش عن كثب حياة الصحافة ، وهى بعد فى مرحلة الطفولة تخلط الإعلام بالرأى ، والمعارضة بالتشهير والابتزاز ؛ وهو كفنان نجح فى أن يشق لنفسه طريقاً — بفضل ما حبته به بعض سيدات المجتمع « الأرستقراطى » من حماية — إلى « صالونات » باريس ، وعرف طرفاً مما يدور فيها وفيما وراءها . وهو أخيراً كان حريصاً جد الحرص على استمرار المراسلة بينه وبين قرائه ، وبصفة خاصة قارئاته اللاتى كن يقطن خارج باريس ؛ ويجدن فى رسائلهن إليه وسيلة لبث أشجانهن ، والتنفيس عما يحسسن به من ضيق . ومن خلال بعض هذه المراسلات تعرف إلى السيدة التى أصبحت « حبه الكبير » ومن ناحية ثالثة كان بلزاك يجيد الوصف ويولع به ، فهو حين يشير إلى مرض سيدة واعتكافها فى حجرة نومها لا يملك أن يمنع نفسه عن أن يتناول أثاث الحجرة قطعة قطعة بالوصف الدقيق . وربما كان ولعه هذا بالتصوير هو الذى دفعه إلى حد صياغة الحوار فى رواياته بالعامية عند اللزوم ، أو بمحاكاته اللكنة الأجنبية إذا لم يكن المتحدث فرنسياً أصيلا .

وأبرز ما أرخ له بلزاك عبر رواياته هو مظاهر صعود الطبقة الرأسمالية الجديدة وأساليب تكوينها ؛ فهذا الأب « جوريو » يقتر على نفسه كل التقتير ليوفر « الدوطة » لبنتيه الحسناوين ليتزوجا بعض النبلاء أو الأثرياء ؛ وهذا « جرانديه » يدخر محاولا تحويل مطبعته الصغيرة إلى مؤسسة تجارية كبيرة ؛ وذلك « البارون نوسينجن » يضارب فى البورصة ويسحق منافسيه فى غير رحمة بعد دعم مركزه كأحد ملوك المال ؛ وهناك « لوسيان شاردان » يحاول استغلال وسامته وأدبه ليكسب قلب بعض سيدات الأرستقراطية ويصعد بفضل نفوذهن . وثمة المضارب على أسعار القمح الذى جمع ثروة ضخمة أثناء حروب نابليون ؛ وهناك « سيزار بيروتو » الذى حاول أن ينشئ صناعة حديثة لمستحضرات التجميل مستخدماً « فن الإعلان » على نطاق واسع ، فنجح أول الأمر ، ولكن أطاحت به المضاربة . وفى خلفية الصورة نجد رجل « البوليس السياسى » الذى خدم جميع نظم الحكم المتعاقبة ، والذى يستخدم ما جمع من المعلومات فى الضغط على الكتاب والساسة ..

ولم تكن الوفرة فى إنتاج بلزاك على حساب المستوى الفنى . وإذا كان أسلوبه أحياناً يقل عن المستوى المنتظر من كاتب مثله ، فإن عدداً كبيراً من رواياته قد احتل محلا ممتازاً بين أروع القصص العالمى فى كل العصور . وقد اخترنا من بينها « امرأة فى الثلاثين » لما تمتاز به من تحليل عميق وجمال عرض . ويبدو أن الكاتب قد اختار البطلة

من خلال الرسائل الكثيرة التى كان يتلقاها من نساء فى سن الثلاثين ، لأنها برزت أمامه لقوة شخصيتها . وأغلب الظن أنها كانت شديدة الحظوة لدى الناس . وقد استطاعت تجربة حكيمة أن تقنع بلزاك — عندما قابلها — بثبات مبادئها ، وكانت مصدر إيحاء بالنسبة لأغلب مواقف الصرامة التى تخللت حياة السيدة ديجليمون داخل هذه الرواية .

لقد كان بلزاك يعتز بأن يكون روائياً قادراً على تصوير المجتمع على حقيقته دون تجميل لما يسوده من عادات أو أوضاع أو سلوك أو أخلاق ؛ برغم غضب الجمهور الذى يرعبه أحياناً أن يتعرف على الصور الطبيعية . وقد اعترفت الإنسانية بإنتاج بلزاك الذى تجاوز التاريخ لعصره ، وقدم شخصيات أقرب إلى جوهر الإنسان فى شتى أوضاعه وظروفه . ولعل هذا سر قول الفيلسوف الفرنسى المعروف « ألان » : « لقد تعلمت من مؤلفات بلزاك أكثر مما تعلمت لدى الفلاسفة والسياسيين » .

الإهـداء

مهداة إلى المصوّر

« لوى بولانجيه »

١

الأخطاء الأولى

فى صباح يوم من أيام الأحد ، فى أوائل شهر أبريل سنة ١٨١٣ ، وكان الجو يبشر بيوم جميل من الأيام التى يرى الباريسيون فيها أرض شوارعهم خالية من الطين ، وسماءهم خالية من السحب لأول مرة فى السنة . . . اخترقت عربة ركوب بادية الفخامة ، يجرها جوادان نشيطان شارع « ريفولى » من ناحية شارع « كاستيليون » قرب الظهيرة . وتوقفت العربة وراء خيول عربات عديدة مرابطة أمام الأسوار المقامة حديثاً وسط فناء ديره « فييان » . وكان يقود هذه العربة السريعة رجل يدل مظهره على المرض والقلق ، ويغطى شعره الأبيض جمجمته المصفرة ، مما كان يضفى عليه مظهر الشيخوخة قبل الأوان . وقذف الرجل بالعنان إلى التابع الذى كان يقود حصانه مقتفياً أثر العربة ، ثم نزل من العربة ليتلقى بين ذراعيه فتاة شابة استرعى حسنها اللطيف انتباه المتسكعين من المتنزهين فى الفناء .

وتركت الفتاة الصغيرة نفسها لرفيقها عن طيب خاطر ليحملها من خصرها عندما أشرفت على حافة العربة ، ووضعت ذراعيها حول عنقه ،

حتى أنزلها على أرض الطوار ، دون أن يؤثر فى نضارة الزينة التى غطت فستانها المصنوع من القماش « التافتاه » الصقيل الأخضر ؛ ولو كان محبباً لما بلغ به الاهتمام ذلك المبلغ . ولابد أن يكون ذلك الرفيق المجهول والد هذه الابنة التى أمسكت بذراعه دون أن تشكره ، وبغير كلفة ، ثم سحبته فجأة إلى داخل الحديقة .

ولاحظ الأب المسن نظرات بعض الشباب المأخوذة ، فزال من وجهه طابع الشقاء برهة محدودة . وعلى الرغم من أنه كان منذ وقت طويل قد بلغ السن التى يرضى فيها الرجال بالمتع الخادعة من جراء الغرور ، أخذ يبتسم . وقال : « لقد اعتقدوا أنك زوجتى » . قال هذا فى أذن الشابة وهو يقوّم مظهره ويمضى فى بطء يبعثها على اليأس .

وكان الرجل يبدو مدلاً بابنته ، وأكثر استمتاعاً منها ، بالنظرات التى كان الفضوليون يصوبونها نحو قدميها الصغيرتين المتعلتين حذاء ذا أربطة وذا فص كالبرغوث ؛ ونحو قامة ممتعة مرسومة داخل ثوب بوشاح صدرى ، ونحو الرقبة الناضرة التى لا تخفيها « الياقة » المطرزة إخفاء كاملا .

وكانت حركات المشى ترفع ثوب الفتاة لحظات خاطفة ؛ فتسمح برؤية استدارة ساق مصبوبة صباً دقيقاً فى جورب من الحرير المطرز بالثقوب فيما فوق الخف . كذلك تعمّد أكثر من مارّ سبقهما كيما يبدى إعجابه ، أو لكى يرى وجهها الشاب الذى كانت تتأرجح

عليه بعض حلقات شعرها الغامق اللون الذى كان بياضه وحمرته الوردية على درجة قوية ؛ سواء بسبب انعكاسات قماش الأطلس الوردى الذى صنعت منه بطانة معطفها الأنيق أو بسبب الرغبة وعدم الصبر اللذين كانا يكسوان كل ملامح تلك الإنسانة الجميلة . أما عيناها السوداوان الجميلتان فكان المكر الرقيق يبعث الحياة فيهما . وكانتا مشقوقتين كاللوزة ، ورموشهما مقوسة تقويساً حسناً ، ويعلوهما حاجبان طويلان ، وكأنهما كانتا تسبحان فى سائل نقى خالص .

وسخت الحياة والشباب فيما منحت هذا الوجه المتمرد ، وفيما أفاضت به على نصف الفتاة الأعلى الذى ظل رشيقاً لطيفاً برغم الحزام المعقود تحت صدرها حينذاك .

ألقت الفتاة نظرة محملة بنوع من القلق نحو قصر « التويلرى » الذى كان هدف نزهتها الطائشة بلا شك ؛ غير عابئة بكل تحايا الاحترامات التى تعرضت لها . وكانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة . وبرغم أن الوقت كان مبكراً ، كانت بعض السيدات عائدات من القصر . وكن جميعاً فى كامل زينتهن . ولم تكف واحدة منهن عن الالتفات نحو الفتاة بوجهها العابس ؛ كأنهن نادمات على الحضور متأخرات ، وعلى فوات فرصة الاستمتاع برؤية مشهد محبب . وأفلتت من شفاه أولئك العابرات اللائى خاب ظنهن بعد أن أخذن بجمال الفتاة الجميلة المجهولة بضعة ألفاظ دلت على تبرمهن ، فأدت هذه الألفاظ

إلى إثارة قلقها بوجه خاص . وراقب الكهل بعين الفضول علامات عدم الصبر والإشفاق التى كانت تتلاعب فوق وجه رفيقته الجذاب ، أكثر مما راقبها بعين السخرية . وكان يلاحظها بكثير من العناية حتى لا يكون حكمه عليها متأثراً بفكرة أبوية سابقة .

كان ذلك اليوم هو الأحد الثالث عشر فى سنة ١٨١٣ . وبعد يومين من ذلك التاريخ كان « نابليون» فى طريقه إلى حملته التى كان مقدراً له فيها أن يفقد « بيسيير » و « ديروك » على التوالى، وأن يكسب المعارك التاريخية فى « لوتسين » و « باوتسين » ، ثم تخونه « النمسا » و « الساكس » و « بافاريا » وتخونه المارشال « برنادوت » وينازع على كسب المعركة المخيفة فى « ليبزج » . وكان الموكب الرائع الذى سار بناء على أمر الإمبراطور آخر المواكب التى اعتادت أن تثير إعجاب الباريسيين والأجانب مدة طويلة جداً .

وأوشك الحرس القديم أن يقوم بتنفيذ أخير للمناورات البارعة التى كانت ذات « ضبط وربط » وفخفخة تبعث على الدهشة أحياناً بما فى ذلك الرجل العملاق الذى كان يستعد حينذاك لمبارزة أوربا بأسرها .

وأدت عاطفة حزينة بجمهور متألق فضولى، إلى الاتجاه نحو حدائق « التويلرى » . وكان الجميع يبدون وكأنهم يعرفون المستقبل ، وكادوا يحسون بأن الخيال يمكنه أكثر من مرة أن يتتبع لوحة ذلك المنظر ، عندما كان من واجب تلك الأزمنة البطولية فى فرنسا – كما هو الحال الآن –

أن تتعهد بالأصباغ البالغة حد الأسطورة تقريباً .

قالت الفتاة فى مداعبة ماكرة وهى تسحب الرجل العجوز : لنسرع أكثر من هذا يا أبى ، إننى أسمع دق الطبول .

قال الوالد : إنها الفرق التى تدخل حدائق « التويلرى » .

أجابت الفتاة بمرارة طفولية بعثت الرجل العجوز على الابتسام : أو التى تتابع فى العرض العسكرى . إذ يعود الناس كلهم من جديد .

قال الأب وهو يمشى فى أثر ابنته المندفعة : لا يبدأ العرض إلا فى الساعة الثانية عشرة والنصف .

ولو أنك شهدت الحركة التى كانت تضغط بها على ذراعه اليمنى لقلت إنها كانت تستعين به على الركض . وكانت يدها الصغيرة داخل القفاز تدعك منديلا بفروغ الصبر ، وتشبه فى ذلك مجذاف قارب يشق الأمواج . وكان العجوز يبتسم بين وقت وآخر ، وكانت تعلو وجهه الجامد من وقت إلى آخر أيضاً تعبيرات قلقة تجعله يبدو حزيناً حزناً عابراً ؛ ذلك لأن حبه هذه المخلوقة الجميلة كان يدفعه إلى الإعجاب بالحاضر بقدر ما كان يدفعه إلى الخوف من المستقبل . وكان يبدو كما لو كان يقول لنفسه : « إنها اليوم سعيدة ، فهل تكون كذلك دوماً ؟ » ذلك أن الشيوخ المسنين يميلون إلى أن يسبغوا أحزانهم على مستقبل الشباب .

وعندما بلغ الأب وابنته الممشى الداخلى تحت أعلى صوان ، حيث

كانت الراية الثلاثية الألوان ترفرف ، وحيث كان المتنزهون يروحون ويغدون من « التويليرى » إلى ميدان قوس نصر « الكاروسيل » نادى الملاحظون بصوت أجش : « لم يعد مسموحاً بالمرور ! »

ووقفت الفتاة على أطراف أصابع قدميها ، فاستطاعت أن ترى جمعاً من النساء الآخذات بأطراف الزينة ، وهن يشغلن جانبى « البواكى » الرخامية العتيقة التى كان مقدراً أن يخرج منها الإمبراطور وقالت :

— ها أنت ذا ترى يا أبى أننا خرجنا من البيت متأخرين .

وكشفت تقطيبة وجهها الحزينة عن الأهمية التى علقتها على حضورها إلى هذا العرض .

— على أى حال هيا بنا ننصرف يا « جولى » أنت لا تحبين أن يزاحمك أحد .

— بل فلنبق يا أبى . لعلى أستطيع من هنا أن ألمح الإمبراطور . فلو مات أثناء الحملة لما رأيته على الإطلاق .

وارتعد الأب عند سماعه هذه الأقوال الأنانية . وخنقت العبرات صوت ابنته . ونظر إليها فاعتقد أنه لاحظ تحت أجفانها المسبلة بعض الدموع التى لم تنجم عن الغيظ ، ولكن عن أحد هذه الأحزان الأولى التى يسهل على أب عجوز أن يخمن سرها . . . وفجأة احمر وجه « جولى » وبدر منها هتاف دالٌ على التعجب لم يفهم معناه الحراس

أو الرجل العجوز . وعندما بدر منها الهتاف كان أحد الضباط يثب من ناحية الفناء نحو السلم ، فالتفت بقوة ، وتقدم إلى أن بلغ « بواكى » الحديقة ، وتعرف على الفتاة الشابة فى لمحة وراء قلانس جنود المقذوفات ذات الزغب . وكسر من أجلها ، ومن أجل والدها ، التعليمات التى كان هو نفسه قد أعطاها من قبل . ثم جذب نحوه برقة تلك الابنة المبتهجة دون أن يعبأ بهمسات الحشد المتأنق الذى كان مرابطاً تحت « البواكى » .

قال الوالد العجوز للضابط بلهجة جادة وساخرة معاً : لم يعد يدهشنى غضبها أو استعجالها طالما كنت أنت فى الخدمة .

— إذا شئت يا سيدى أن تقف فى المكان الأفضل فلا تجعل تسليتنا الكلام . إذ لا يحب الإمبراطور الانتظار ، وقد كلفنى الماريشال بأن أذهب إليه لإخطاره .

وكان يتكلم وهو يأخذ بذراع « جولى » فى نوع من الألفة المعتادة ، وسحبها بسرعة نحو قوس نصر « الكاروسيل » ، وعندئذ لمحت « جولى » فى دهشة حشداً هائلا يسرع الخطو فى المساحة الضيقة القائمة بين جدران القصر الرمادية والعلامات المترابطة فيما بينها بالسلاسل التى تحدد معالم المربعات الشاسعة المغطاة بالرمل وسط فناء « التويليرى » ووجد الحراس — المتشابكون فى صورة جدائل لتحفظ طريق عبور الإمبراطور وأركان حربه — صعوبة كبيرة فى الاحتفاظ بمواقعها برغم الجموع المزدحمة المتسرعة

التى تطن كخلية النحل .

سألت « جولى » وهى تبتسم : سيكون المشهد رائعاً بالطبع ؟

— انتبهى إذن . قال الضابط هذا وهو يمسك « جولى » من وسطها ليرفعها بغير قليل من القوة والسرعة معاً كى يحملها إلى أقرب الأعمدة .

ولو لم يحملها بسرعة خاطفة لكانت قرينته الفضولية قد رضرضها مؤخر الفرس الأبيض المطهم بسرج من القطيفة الخضراء المذهبة الذى كان يقوده من لجامه مملوك « نابليون » تحت « البواكى » تقريباً ، على بعد عشر خطوات خلف كل الخيول التى كانت تنتظر الضباط العظام من رفقاء الإمبراطور .

وجعل الشاب مكان الأب والابنة قرب أول علامة إلى اليمين أمام الحشود ، وأوصى بهما بإشارة من رأسه جنديين عجوزين من جنود القذائف جاء مكانهما بينهما .

وعندما عاد الشاب إلى القصر كانت السعادة والفرح قد حلتا فى تعبير وجهه محل الوجل المفاجئ ، الذى كان تراجع الفرس قد طبعه عليه . كانت « جولى » قد ضغطت على يده خفية وهى تصافحه ، سواء لكى تشكره على خدمته الصغيرة التى قدمها لها أم لتقول له : « سوف أراك إذن ؟ » وحنت رأسها برفق رداً على تحية الاحترام التى أداها الضابط لها ولوالدها قبل أن يختفى فى حركة بارعة . وبقى العجوز فى موقف رزين خلف ابنته بقليل محاولا إظهار أنه قد تعمد ترك الفتاة والفتى معاً .

غير أنه راقبها من طرف خفى ، وحاول أن يوحى إليها بأمان كاذب حين بدا فى شغل شاغل عنها بتأمل المشهد الرائع المتمثل فى قوس نصر « الكاروسيل » . وعندما أعادت « جولى » نحو أبيها نظرة التلميذ المتخوّف من معلمه ، أجابها العجوز بابتسامة الفرح العطوف ؛ غير أن عينه النفاذة تابعت الضابط حتى بلغ « البواكى » دون أن يفوته أى حدث فى ذلك المنظر السريع .

قالت « جولى » بصوت منخفض وهى تضغط يد والدها : أى مشهد رائع !

وكان هذا الهتاف الدال على الانفعال قد صدر عن آلاف المشاهدين الذين ظهرت وجوههم جميعاً فاغرة الأفواه من التعجب أمام المرأى الفتان العظيم الذى كان يمثله فى تلك اللحظة قوس نصر « الكاروسيل » ، وكان صف آخر من الزحام المتعجل ، مثل الصف الذى كان العجوز وابنته ممسكين به يشغل المكان الضيق المرصوف على طول حاجز قوس نصر « الكاروسيل » فى خط مواز للقصر . وأتم ذلك الجمع المزدحم إعداد رسم تلك الحديقة الطويلة التى هيأت شكلها أبنية « التويلرى » وذلك الحاجز المقام حديثاً رسما قوياً بواسطة الزينة المنوعة التى اتخذتها النساء . وملأت سرايا الحرس القديم التى كانت مستعدة للمرور فى العرض تلك الأرض الواسعة ، حيث ظهرت قبالة القصر فى خطوط زرقاء حاشدة ذات عشرة صفوف طويلة . وخارج هذه الدائرة ، وفى فناء « الكاروسيل »

كانت صفوف أخرى متوازية وعديدة من سرايا المشاة والفرسان المستعدة للقيام بالعرض تحت قوس النصر الذى يزين وسط الحاجز ، والذى كانت ترى فى أعلى قمته فى تلك الفترة خيول « فينيسيا » الرائعة . واحتلت فرقة موسيقى السرايا مكانها أسفل أروقة « اللوفر » وكانت متنكرة فى صورة فرسان خيالة بولنديين فى أثناء الخدمة . وبقى جزء كبير من الحديقة المغطى بالرمال فارغاً كأرض الملاعب المعدة لحركات هذه الفيالق الصامتة ، التى كانت مجموعاتها المرتبة فى تناسب فنى حربى . تعكس أشعة الشمس فى لهب مثلث الشكل فوق عشرة آلاف من الحراب . وكان الهواء يحرك ريش القلانس فوق رؤوس الجنود فيدفعها إلى الحركة كالأمواج ، على نحو ما تنحنى الأشجار فى الغابة أمام الرياح العاصفة . وكانت هذه الأسراب العتيقة الخرساء اللامعة ، تعرض ألف اختلاف لونى نتيجة للتنوع فى الزى وحواشى أكمام الملابس والأسلحة وجدائل الحبال فوق الأكتاف والصدور .

كانت هذه اللوحة الضخمة أشبه ما تكون بصورة حفرية لميدان قتال قبل المعركة بكل توابعه وأحداثه الغريبة وكأنما أحيطت شعرياً بإطار من الأبنية الفخمة العالية التى كان الجنود والرؤساء يحاكون جمودها حينذاك . فقد كان المشاهد يوازن لا إرادياً بين هذه الجدران البشرية وتلك الجدران الحجرية . وألقت شمس الربيع ضوءها بسخاء فوق

الحوائط البيضاء التى أقيمت فى اليوم الأسبق . وفوق الجدران القديمة العهد ، فأنارت ـ بشكل تام ـ تلك الوجوه العديدة المسمرة التى كانت تبوح بأخطارها السابقة ، وتتوقع فى تجهم أخطاراً مستقبلة . وكان مقدمو كل سرية يروحون ويغدون منفردين أمام الجبهات التى أنشأها أولئك الأبطال . واستطاع المتطلعون أن يلمحوا وراء أسلحة هذه المجموعات القديمة المنقوشة بالألوان الفضية الزرقاء والأرجوانية والذهبية الرايات الطويلة الثلاثية الألوان المربوطة فى أعلى حراب ستة من الفرسان « البولونيين » الذين لا يكلون ، والذين يشبهون الكلاب التى تسوق القطيع على طول الحقل ، وهم يجولون بلا توقف بين الفرق والمتطلعين ، كى يحولوا دون أن يتخطى هؤلاء المتطلعون المكان الصغير من الأرض المسموح لهم به داخل الحاجز الإمبراطورى . وكانت رؤية هذه الحركات المتكررة فى غير تباعد توحى بأننا فى قصر « الجميلة بالغابة الراكدة » كما صورته حكاية « بيروه » الخرافية . وأكد نسيم الربيع العابر فوق قلنسوات رجال المدفعية ذات الزغب سكون الجنود ، ولكنه كشف ضجيج الزحام الأصم عن صمتهم . وكان يكفى رنين قبعة صينية فقط ، أو ضربة خفيفة على صندوق كبير سهواً ، كى يتردد صداهما فى جوانب القصر الإمبراطورى فيما يشبه قصف الرعد البعيد الذى يبشر بالعاصفة . وسطع حماس لا يوصف فى انتظار الجموع الغفيرة ، إذ خرجت قرنسا لتودع « نابليون » عشية حملته التى

كانت أخطارها متوقعة لدى أبسط المواطنين . كانت المسألة فى هذه المرة مسألة « وجود أو لا وجود » بالنسبة إلى الإمبراطورية الفرنسية . وكأنما شجعت هذه الفكرة أهل البلد من المدنيين والعسكريين الذين لزموا الصمت ، وهم يتزاحمون فى الفناء الذى حام فيه نسر « نابليون » وعبقريته .

وكان هؤلاء الجنود أمل فرنسا ، وآخر نقاط دمائها . كما كانوا يشغلون جزءاً غير قليل أيضاً من فضول المشاهدين المليء بالقلق فى اعتبار الكثيرين . وكان أغلب المعاونين والعسكريين يودع بعضهم بعضاً وداعاً يكاد يكون إلى الأبد . ولكن توجهت القلوب جميعاً ، حتى أشدها عداوة للإمبراطور إلى الله ، بدعائها الحار من أجل مجد الوطن . بل لقد تخلى الرجال المتعبون من الصراع بين أوربا وفرنسا كلهم عن أحقادهم ، عند عبورهم تحت قوس النصر ، مدركين أن « نابليون » فى يوم الخطر هو فرنسا بأكملها . ودقت ساعة القصر دالة على النصف بعد الثانية عشرة . وفى تلك اللحظة توقف طنين الزحام وصار الصمت عميقاً بحيث كان يمكن سماع كلمات طفل صغير . واستطاع العجوز وابنته ، اللذان كانا يعيشان بعيونهما فقط ، أن يتبينا صوت المهاميز وقعقعة السيوف التى دوت تحت دهاليز القصر ذات الرنين .

وظهر فجأة رجل قصير ، متوسط السمنة ، يلبس زياً أخضر اللون وسروالا أبيض ، وينتعل أحذية الفرسان ، واضعاً فوق رأسه قبعة ذات

ثلاثة أبواق ضخمة ، تبلغ حجم الرجل نفسه . وكان الشريط العريض الأحمر الخاص بنوط الشرف يتدلى على صدره ، كما كان يتدلى إلى جانبه سيف صغير . وكانت جميع العيون ترى الرجل فى وقت واحد من كل جوانب المكان . وفى التو قرعت الطبول فى الساحة ، وشرعت الفرقتان الموسيقيتان تعزفان صيغة موسيقية تكرر تعبيرها الحربى على كل الآلات ابتداء من أرق زمارة إلى أكبر الطبول . وارتعدت الأرواح أمام هذه الدعوة إلى القتال ، كما أدت الأعلام التحية ، ودفع الجنود الأسلحة فى حركة موحدة ومنظمة أثارت حركة البنادق لدى أصغر الرتب وأكبرها على أرض « الكاروسيل » .

وتنقلت صيغ الأوامر من رتبة إلى رتبة على نحو ما تتناقل الأصداء ثم تدافعت صيحات : « عاش الإمبراطور » على لسان الجمهور المتحمس . ثم أصابت الرعدة الجميع ، فصاروا يموجون ويتحركون .. وظهر « نابليون » راكباً الفرس . وكأنما طبعت هذه الحركة الحياة على هذه الجموع الصامتة ، وهبت الأدوات الموسيقية الصوت ، وبعثت الدفع فى النسور والرايات والانفعال فى كل الوجوه . وبدت جدران الدهاليز المرتفعة فى هذا القصر العتيق كما لو كانت تصرخ هى الأخرى : « عاش الإمبراطور » . ولم يكن ذلك كله يشبه شيئاً إنسانياً ، وإنما كان يشبه سحراً أو طيفاً من القدرة القدسية ، أو أكثر من هذا بصورة ذهنية شاردة لهذه المملكة المؤقتة .

ظل الرجل على فرسه محاطاً بكل هذا القدر من الحب والحماس والإخلاص والدعاء ، بعد أن قشعت الشمس سحب السماء من أجله، وبقى على بعد ثلاث خطوات إلى الأمام من الكتيبة الذهبية التى كانت تمشى فى أثره ؛ فإلى شماله المشير الأول ، وإلى يمينه مشير الخدمات . ووسط كل مظاهر الانفعال التى أثارتها رؤيته لم يبد على ملامح وجهه أى انفعال .

— آوه ... يا إلهى ... نعم ... من «واجرام» وسط النيران ، إلى «موسكو» بين الأموات ، وهو دائماً هادئ كالمعمدان .. هو .

كانت تلك إجابة أحد رجال المدفعية على الأسئلة العديدة التى وجهت إليه فى أثناء وجوده قريباً من الفتاة الشابة . وظلت «جولى» مأخوذة مدة معينة بتأمل ذلك الوجه الذى كان هدوؤه ينم عن ثقة كبيرة بقوته . ولمح الإمبراطور الآنسة «دى شاتيوتيست» ومال نحو «ديروك» ليقول له عبارة أضحكت المشير الأول . ثم بدأت المناورات .

ومع أن الشابة كانت قسمت انتباهها حتى ذلك الحين بين وجه «نابليون» الخالى من أى تأثر ، وبين صفوف الفرق الزرقاء والخضراء والحمراء ، خصصت فى تلك اللحظة اهتمامها تقريباً وسط الحركات السريعة المنتظمة التى قام بها الجنود الأقدمون — بضابط شاب كان يعدو فوق فرسه بين الصفوف المتحركة ، ثم يرجع فى نشاط لا يكل نحو المجموعة التى كان يتلألأ على رأسها فرد بسيط هو «نابليون» .

وكان فرس ذلك الضابط فاخراً أسود اللون ، كما كان هو نفسه يتميز وسط هذه الجموع ، المزينة بشتى الأوسمة ، بهذا الزى الجميل الأزرق السماوى الخاص بضباط ياوران الإمبراطور . ولمعت تلك التطاريز على نحو براق فى شعاع الشمس ، فاستمدت منه عفرة قلنسوته الضيقة العالية وهجاً قوياً دفع المشاهدين إلى مقارنته بأحد الشهب ، وبالروح الخفية الموكلة من قبل الإمبراطور بابتعاث وبقيادة مدفعية المشاة ، التى كانت أسلحتها المائجة تلتقى بالحمم عندما تنفجر وتسكن ، وتجول بإشارة من عينيه فى موجات كموجات درجات الجحيم ، أو تمضى أمامه كالأنصال الطويلة المستقيمة المرتفعة التى يصوبها المحيط الهائج نحو شواطئه .

وعندما انتهت المناورات ركض الضابط الياور بغاية السرعة ، ثم توقف أمام الإمبراطور ينتظر الأوامر . وفى تلك اللحظة كان على بعد عشرين خطوة من «جولى» وجهاً لوجه ، أمام المجموعة الإمبراطورية ، مشابهاً فى ذلك الموقف موقف «جيرار» أمام الجنرال «راب» فى لوحة معركة (أوسترليتز) . وعندئذ أتيحت الفرصة للفتاة الشابة كى تتملى بإعجاب حبيبها فى أوج جلاله العسكرى .

لقد كان المقدم «فيكتور ديجليمون» فى حوالى الثلاثين من عمره ، فارع الطول ، ممشوق القوام ، حسن التكوين ، ولم تكن مقاييس بدنه المتوافقة تتبين أكثر مما كانت تتبين عندما يستخدم قوته فى التحكم

فى فرسه الذى بدا ظهره الأنيق اللين كما لو كان قد انثنى تحته . وكان وجهه حازماً أسمر اللون ، ذا جاذبية غامضة يسبغها التساوق الكامل فى الملامح عادة على وجوه الشباب ، كما كانت جبهته عريضة مرتفعة ، وارتسمت عيناه الحادتان المظللتان بحواجب كثيفة ، والمحفوفتان برموش طويلة كأنهما إهليلجان أبيضان بين خطين أسودين ، وكان أنفه ذا استدارة رقيقة كمنقار النسر ، وكانت أرجوانية شفتيه قوية بتأثير تعرجات الشارب الأسود التى كانت مفروضة فرضاً ؛ وكان خداه العريضان بلونهما الظاهر يمثلان درجات من السمرة والصفرة تنم عن صرامة غير عادية ؛ وعلا وجهه دافع الشجاعة بحيث صار يمثل النموذج الذى يبحث عنه الفنان فى أيامنا هذه لكى يجد فيه نمط أبطال فرنسا فى عهدها الإمبراطورى أما فرسه فكان مبللا بالعرق ، وكان رأسه دائم الحركة تعبيراً عن تعجله البالغ ، كما كانت قدماه الأماميتان متباعدتين ثابتتين على خط واحد ، فلا تتقدم إحداهما على الأخرى . وكان الفرس يهز خصلات ذيله الكثيف الطويلة ، وكشف استسلامه فى صورة محسوسة عما كان سيده يكنه للإمبراطور .

رأت « جولى » حبيبها مشغولا بالاستئثار بنظرات « نابليون » فأحست بلحظة من لحظات الغيرة عندما قدرت أنه لم يلحظها بعد . وفجأة نطق الإمبراطور بكلمة ، فإذا « فيكتور » يضغط ضلوع فرسه ويسرع فى العدو . غير أن ظل أحد الأنصاب الجانبية الساقط على الرمل أفزع

الفرس ، فجعله ينفر ويتراجع ، ثم يعتدل ، وتم ذلك كله فجأة بحيث بدا الفارس ، فى خطر ؛ وبدرت صرخة من فم « جولى » وامتقع لونها ، ونظر إليها الكل فى استغراب ، ولكنها لم تعد ترى أحداً ، وبقيت عيناها معلقتين بهذا الفرس الوثاب الذى عمد الضابط إلى عقابه وهو يقوم بالعدو ، لإملاء أوامر « نابليون » . وتملكت كل هذه اللوحات المذهلة « جولى » تملكاً كاملا حتى إنها تشبثت دون وعى منها بذراع أبيها الذى كشفت له عن أفكارها بغير قصد منها بواسطة ضغط أصابعها القوى إلى حد ما . وعندما أوشك فيكتور أن ينقلب من فوق الحصان التصقت بأبيها فى عنف أشد ، كما لو كانت هى نفسها تخشى السقوط .

وتأمل العجوز وجه ابنته المتهلل بقلق مظلم متألم ، بل تسربت إلى كل تجعيداته المقطبة مشاعر شفقة وغيرة وأسف . ولكن بمجرد انتباه بريق عينى « جولى » غير المألوف ، وصيحتها التى صدرت عنها ، وحركة أصابعها المصحوبة بالتشنج من الإفصاح عن حبها الخفى ، أحس بلا شك بإيحاءات حزينة عن المستقبل ظهرت دلائلها على تعبير وجهه المنكوب .

فى تلك اللحظة عينها بدت روح « جولى » كأنها قد انتقلت إلى روح الضابط نفسه ، فسببت فكرة أشد قسوة من تلك التى أفزعت العجوز من قبل فى انقباض ملامح وجهه المتألم عندما لمح « ديجليمون » يتبادل نظرة تفاهم مع « جولى » التى بللت عينيها الدموع . وأصيب لونها بحيوية خارقة عندما عبر أمامهما . وفجأة صحب ابنته إلى

حدائق « التويليرى » .

قالت : « لا .. لا يا أبى ... لايزال فى ساحة " الكاروسيل " من السرايا ما يقوم بالمناورات » .

— لا يا ابنتى ... كل الفرق تشترك فى العرض .

— أعتقد أنك مخطئ يا أبى ، إذ لابد أن يكون السيد « ديجليمون » قد أمرها بالتقدم .

— ولكننى أشعر بوعكة يا بنتى ، ولا أحب البقاء .

ولم يكن يصعب على « جولى » أن تصدق أباها عندما ألقت نظراتها على وجهه الذى زودته المخاوف الأبوية بطابع الرجل الخائر المنهوك .

سألته بغير مبالاة كما لو كانت مشغولة : « هل تتعذب كثيراً ؟ »

— أليس كل يوم من أيام حياتى يوم نعمة بالنسبة إلى أو يوم هبة ؟

— لسوف تزيد من حزنى إذا تكلمت عن موتك . لقد كنت شديدة المرح . هل لك فى أن تطرد أفكارك السوداء الخبيثة ؟

صاح الأب وهو يتنهد : آه ! .. يا لك من طفلة مدللة ! إن القلوب الطيبة تكون مؤكدة القسوة فى بعض الأحيان . فإذا خصصناك بحياتنا ، وإذا لم نفكر إلا فيك ، وأعددنا لك رفاهيتك ، وضحينا بأذواقنا من أجل أوهامك ، ومن أجل تقديرك وإعطائك دمنا ... أفليس لذلك كله معنى إذن ؟ وا أسفاه ! لا شك أنك تتقبلين ذلك كله

بلا أدنى مبالاة . وكان ينبغى أن تكون لنا قدرات الآلهة ، كى نحصل منك على ابتساماتك ، وعلى حبك المعبر عن الازدراء . ثم فى النهاية يأتى آخر .. عاشق .. زوج يسحر قلوبنا .

نظرت « جولى » إلى والدها مندهشة ، وهو يخطو ببطء ، ويلقى إليها بنظراته القاتمة ، فعاد يقول :

— إنك تتخفين علينا ولعلك تتخفين أيضاً على نفسك !

— ماذا تقول يا أبى ؟

— أعتقد أنك تخفين عنى أسراراً يا « جولى » . إنك تحبين ..

وقال العجوز مرة أخرى عندما لاحظ أن ابنته قد احمر وجهها :

آه .. لقد كنت أتعشم أن تظلى مخلصة لأبيك العجوز حتى وفاته . كنت آمل الاحتفاظ بك قريبة منى ، وسعيدة متألقة ، فأعجب بك كما كنت منذ قليل . ولما كنت أجهل مصيرك فقد حسبت أن سيكون لك مستقبل هادئ . غير أنه من المستحيل الآن أن أحتفظ بأمل فى سعادة حياتك ، لأنك تحبين المقدم أكثر مما تحبين من هو (قريبك) . لا أشك فى ذلك .

صاحت الفتاة فى تعبير قوى ينم عن الاستغراب : « ولماذا يكون حبه محرماً على ؟ »

أجاب الأب متنهداً : آه ... يا « جولى » لن تستطيعى أن تفهمى ما أعنيه .

قالت مفصحة عن حركة عصيان : قل إذن ..

— اسمعى إذن يا بنتى جيداً . تقوم الفتيات بإبداع صور باهرة نبيلة، ونماذج مثالية، وباختلاق أفكار وهمية عن الرجال، وعن العواطف، وعن العالم ، ثم يقمن فى براعة برد الكمالات التى حلمن بها إلى طبيعة ما من الطبائع ثم يشرعن بعد ذلك فى الاطمئنان إليها . وهن يحببن فى الرجل الذى يختزنه ذلك المخلوق الخيالى . ولكن فى النهاية عندما لا يكون ثمة وقت للخلاص من المصيبة ، ومن المظهر الخداع الذى أضفوا عليه الحسن ، يستحيل معبودهم الأول فى النهاية إلى هيكل عظمى كريه . « جولى » إننى أفضل أن أراك تحبين رجلا عجوزاً على أن أراك تعشقين المقدم .. آه .. لو أنك استطعت أن تضعى نفسك بعد عشر سنوات من الآن فى الحياة لكنت عادلة بالنسبة إلى تجربتى . إننى أعرف « فيكتور » وأعرف أن بشاشته بشاشة خالية من الروح ... إنها بشاشة الثكنات . وهو فضلا عن ذلك خال من أى موهبة . ومن أى ميل إلى الإنفاق . إنه واحد من أولئك الرجال الذين خلقهم الله ليأكلوا ويهضموا أربع وجبات فى النهار ، ثم ليناموا أو يحتفوا بأول قادمة ، ويحاربوا . إنه لايفهم الحياة . وهو ذو قلب طيب ، وقد يقتاده قلبه إلى إعطاء أحد البائسين أو أحد رفاقه محفظة نقوده ، ولكنه غافل ولم يوهب رقة القلب التى تجعلنا أحياناً عبيداً لسعادة امرأة . ثم إنه جاهل أنانى ... هناك كثير من الصفات السلبية .

— وبرغم ذلك ، يا أبى ، لابد أن يكون له من الروح والوسائل

ما دفعه ليكون مقدماً . قال الأب فى نوع من الحماسة : يا عزيزتى ، إن « فيكتور » سيظل مقدماً أبد الحياة . إننى لم أر بعد الشخص الذى يليق بك فى عينى . ثم توقف لحظة وتأمل ابنته . وأضاف : ولكنك لاتزالين أصغر ، وأضعف ، وأرق ، من أن تتحملى أشجان الزواج ومتاعبه ، ياصغيرتى « جوليا » المسكينة . ثم إن « ديجليمون » قد دلله والداه كما دللت أمك ودلالتك ، فكيف تتعشم أن ينشأ تفاهم بينكما بإرادات مختلفة مطبوعة بطابع التحكم ، بحيث لا يمكن التوفيق بينها . ولابد أن تكونى أحد اثنين : ضحية أو طاغية ، وكلا البديلين يجلبان مبلغاً متعادلا من الشقاء فى حياة المرأة ، غير أنك رقيقة ومتواضعة . وستنثنين قبله وعندك لطف عاطفى لن يعرف قدره .. وعندئذ .

قال هذه العبارة بصوت مضطرب . ثم لم يكملها ، إذ خنقته العبرات . ثم عاد يقول بعد صمت وجيز : سوف يجرح « فيكتور » صفات البراءة التى تتميز بها روحك الشابة . فأنا أعرف الرجال العسكريين يا صغيرتى « جولى » وعشت فى الجيوش . ومن النادر أن ينتصر قلب هؤلاء الناس على العادات الناجمة عن الشقاء الذى يعيشون فيه ، أو عن مصادمات حياتهم المغامرة .

— أجابت « جولى » فى نغمة وسط بين الجد والمزاح : « إنك تريد يا أبى - إذن - أن تقلب عواطفى ، وأن تدفعنى إلى الزواج من أجلك أنت لا من من أجلى أنا » .

صاح الأب فى نوع من الاندهاش : أدفعك إلى الزواج من أجلى ... من أجلى أنا يا بنيّتى .. أنا .. الذى لن تسمعى صوتى قريباً بهذه النغمة الودية من التأنيب ! لقد لاحظت أن الأبناء يعزون دائماً تضحيات الوالدين نحوهم إلى عاطفة شخصية . تزوجى « فيكتور » يا صغيرتى « جولى » وسوف ترثين يوماً بمرارة لعدم صلاحيته وفساده ، وأنانيته ، وفظاعته ، وبلاهته فى الحب . وآلاف الكروب الأخرى التى ستنزل بك منه . فاذكرى إذن أن صوت الوحى الذى نطق به أبوك — تحت هذه الأشجار — قد دوى عبثاً فى أذنيك .

وسكت العجوز ، وفاجأ ابنته بنظرته ، وهى تهزّ رأسها فى عصيان . ثم قام كل منهما ببضع خطوات نحو الحاجز ، حيث كانت عربتهما واقفة . وفى أثناء هذا المشى الصامت فحصت الفتاة خفية وجه أبيها ، وتنقلت درجة درجة بين أجزاء سحنته المقطبة ، إذ ترك فيها الألم العميق المحفور على جبهته المائلة نحو الأرض انطباعاً شديداً ، وقالت بصوت رفيع مضطرب : أعدك يا أبى .. ألا أتكلم إليك عن « فيكتور » ما لم تكن قد عدلت عن سوابق ظنك عنه .

ونظر العجوز إلى ابنته فى استغراب ، وانحدرت على طول خديه المجعدين دمعتان كانتا تدوران فى عينيه ، ولم يستطع أن يقبّل « جولى » على مشهد من الناس الذين كانوا محيطين بهما ، واكتفى بأن ضغط على يدها فى رقة . وعندما صعد إلى العربة كانت جميع أفكار الأسى التى

تجمعت فوق جبهته قد اختفت تماماً ، وأقلقه وضع ابنته الحزين عندئذ أقل مما أقلقه المرح البرىء الذى بدر منه من « جولى » أثناء العرض .

* * *

فى الأيام الأولى من شهر مارس سنة ١٨١٤ ، أى بعد أقل من سنة بقليل من يوم ذلك العرض الإمبراطورى . كانت مركبة بأربعة دواليب تشق طريقها من « أمبواز » إلى « تور » وكانت المركبة تجرى بغاية السرعة ، وهى تغادر أشجار الجوز الضخمة الشبيهة بالقبة الخضراء ، والتى يختفى تحتها مركز « لافريلير » حتى جاءت اللحظة التى وصلت فيها إلى جسر مبنى فوق نهر « الشير » من ناحية مصبه فى نهر « اللوار » ، فوقفت فجأة . وإذا أحد محاور العجلات ينكسر على إثر الحركة التى لم يكن تفاديها ممكناً ، عندما تلقى سائق المركبة الشاب أمر سيده بذلك ، والتى حاول أن يفرضها بدوره على أربعة خيول من أشد خيول المرابط قوة .

وهيأت الصدفة للشخصين اللذين فى داخل المركبة الوقت الضرورى — عند يقظتهما — لتأمل موقع من أجمل المواقع التى يمكن أن تمثلها شواطئ نهر « اللوار » الخلابة . فإلى اليمين كان يمكن أن يجمع المسافر فى نظره كل انحناءات نهر « الشير » الذى يزحف مثل ثعبان فضى وسط أعشاب المزارع التى أسبغت عليها أولى دفعات الربيع ألوان الزمرد ، وإلى اليسار كان يبدو نهر « اللوار » فى كل روعته ؛ وكانت لفحة هواء الصباح

الباردة قليلا تخلق صفحات عديدة من بعض لطماتها المتواترة ، فتعكس ذبذبات الشمس فوق مسطحات الماء الساكن الشاسعة التى يظهرها ذلك النهر المهيب . وكانت الجزر المخضرة هنا وهناك تتوالى فى مساحة المياه كما تتوالى فصوص العقد . وفى الناحية الأخرى من النهر كانت أجمل أرياف مقاطعة « التورين » تبسط كنوزها إلى آخر امتداد البصر . وفى أقصى المشهد لا تقع العين على أى تخوم سوى تلال نهر « الشير » التى كانت قممها ترسم فى تلك اللحظة خطوطاً مضيئة فوق زرقة السماء الصافية . وكانت مدينة « تور » تبدو خلال أوراق الشجر الرقيقة فى الجزر الظاهرة فى أقصى المشهد أشبه ما تكون بمدينة البندقية من حيث بروزها وسط المياه ، وكانت أبراج أجراس « كاتدرائيتها » العتيقة تعلو فى الجو حتى صارت أشبه بالسحب البيضاء حين تتحول إلى اختلافات وهمية .

وكان المسافر يلمح، وراء الجسر الذى وقفت المركبة فوقه ، وفى الواجهة مباشرة نهر « اللوار » على طول حوضه حتى مدينة « تور » وسلسلة من الصخور التى شكلتها الطبيعة حتى بدت كأنها قد وضعت لتصد أمواج النهر التى تنهش الحجر فى دأب ، وهو مشهد يذهل المسافر دائماً وتبدو قرية « فوفريه » كأنها قد عششت فى مضايق تلال تلك الصخور التى بدأت ترسم زاوية أمام جسر نهر « الشير » ومن « فوفريه » حتى مدينة « تور » . ويسكن المنعطفات المخيفة فى ذلك التل قوم من

زراع الكروم . وفى أكثر من موضع توجد ثلاث طبقات من المنازل المحفورة فى الصخر ، تجمعها سلالم خطرة منحوتة فى الحجر .

وفى أعلى سقف أحد البيوت كانت فتاة ذات « جونلة » حمراء تجرى نحو حديقتها ، وقد تصاعد دخان إحدى المداخن بين فروع الكرم وبين أغصانه المورقة . وكان بعض المزارعين يحرثون حقولا متعامدة وامرأة عجوز تدير دولاب مغزلها تحت زهور شجرة اللوز ، وتتأمل عبور المسافرين من تحتها ضاحكة من فزعهم . وهى جالسة فى هدوء فوق صخرة هوت من الجبل ، ولم تكن تقلقها شقوق الأرض ولا احتمال انهيار حائط قديم لم تعد تسنده سوى جذور متشابكة لنبات اللبلاب الذى يغطيه . وكانت أوباء الكهوف المفتوحة تردد صدى ضربات مطارق صانعي الدنان ، والأرض بعد هذا كله مزروعة فى كل مكان ، وخصبة فى كل مكان ، حيثما رفضت الطبيعة أن تتخلى عن الأرض للصناعة الإنسانية . ولا شىء يوازن فى حوض نهر « اللوار » بالمنظر العام الغنى الذى تمثله مقاطعة (التورين) فى عيون المسافر .

واللوحة الثلاثية — هذا المنظر — ذات الأوجه المبينة على وجه التقريب تزود الروح بأحد هذه المشاهد التى تنقشها بالذاكرة إلى الأبد . وعندما يستمتع شاعر بهذا المنظر تأتى أحلامه غالباً لتبنى فوقه أسطورياً آثاره الرومانتيكية .

وفى اللحظة التى وصلت فيها المركبة فوق جسر نهر « الشير » كانت أشرعة بيضاء عديدة تسد ما بين جزر نهر « اللوار » وتضفى انسجاماً جديداً على هذا الموقع المنسجم . وأزجى أريج الصفصاف المتدلى الأغصان على حافتى النهر عطوراً نفاذة إلى مذاق النسمة الرطبة ؛ وكانت العصافير تملأ الأسماع بمعزوفاتها المستفيضة وقد أضاف إليها غناء راعى الماعز الرتيب لوناً من الشجن ، فى حين كانت صيحات الملاحين تبشر بهرج ومرج عن بعد وكانت الأبجرة الكسول تتوقف من تلقاء نفسها حول الأشجار المتناثرة فى هذا المنظر الشاسع مضفية على تلك اللوحة آخر لمسة من اللطف . وتلك هى مقاطعة « التورين » فى أوج مجدها ، وذاك هو الربيع فى غاية بهائه . وذلك الجزء من فرنسا هو الوحيد الذى لم تستطع الجيوش الأجنبية أن تزعجه ، وكان أيضاً فى ذاك الوقت الجزء الأوحد الهادئ كأنه يتحدى الغزو .

وما إن توقفت المركبة حتى أطل منها رأس مغطى بقبعة رجل البوليس وسرعان ما فتح رجل من الجيش بابها ، وقفز إلى الطريق متعجلا كأنه فى طريقه إلى المشاجرة مع سائق المركبة . غير أن الذكاء الذى عالج به ذلك السائق من أبناء « التورين » مجر العجلة المكسور طمأن المقدم الكونت « ديجليمون » الذى عاد إلى الباب مادا ذراعيه كأنه يمط عضلاته الخامدة ، وتثاءب . ثم نظر إلى المنظر ، ووضع يده على ذراع امرأة شابة لفّت نفسها بعناية برداء مبطن بالفرو

وقال لها فى صوت مبحوح : هيا يا « جولى » استيقظى إذن كى نتأمل الإقليم . إنه رائع .

ودفعت « جولى » رأسها خارج المركبة ، وكانت تغطى رأسها بقبعة من جلد السمور ، كما كانت ثنيات المعطف الكثيف الذى تغطت به يخفى تماماً أجزاءها بحيث لم يعد يرى إلا وجهها .

ولم تعد « جولى ديجليمون » تشبه فى شىء الفتاة التى كانت تعدو قبيل ذلك فى فرح وسعادة فى أثناء العرض بحدائق « التويليرى » . وفقد وجهها الرقيق دائماً ألوانه الوردية التى كانت تهبه فيما سبق رونقاً غنيًّا ظاهراً ، وأبرزت الخصلات السوداء لبعض شعرها الذى جعدته الرطوبة بياض جبينها الأصم ، وقد خمدت حيويتها . وبرغم ذلك كانت عيناها تلمعان بوقدة غير عادية ، وإن ارتسمت تحت جفونها صبغات بنفسجية فوق خديها المنهوكين . ونظرت بعين غير مبالية على أرياف نهر « الشير » و« اللوار » وجزائرهما ، وعلى مدينة « تور » وعلى هضاب « فوفريه » الطويلة ، ثم لم تعبأ بأن ترى وادى نهر « الشير » الخلاب وألقت بنفسها بسرعة فى أقصى المركبة ، وقالت بصوت بدا غاية فى الضعف فى الهواء الطلق :

– نعم .. هذا رائع .

فقد انتصرت على أبيها كما هو واضح من أجل تعاستها .

– ألا تحبين أن تعيشى هنا يا « جولى » ؟

قالت بلا أدنى اكتراث : أوه ! هنا أو فى أى مكان .

فسألها المقدم (ديجليسون) : هل تتألمين ؟

أجابت المرأة الشابة بشىء من الحيوية المؤقتة : ألبتة . وتأملت زوجها مبتسمة ثم أضافت : لى رغبة فى أن أنام .

وفجأة دوى صوت عدو حصان ، فترك المقدم « ديجليسون » يد زوجته ، وأدار رأسه نحو منعطف الطريق فى ذلك المكان . وبمجرد غياب نظر المقدم عن « جولى » اختفى تعبير البشاشة الذى طبعته طبعاً على وجهها الباهت اللون ، كأن الوهج قد كف عن إضاءته . وبقيت فى ركن المركبة دون أى رغبة فى رؤية المنظر مرة أخرى ، ودون أى فضول لمعرفة من هو الفارس الذى كان حصانه يعدو على ذلك النحو الغاضب . وثبتت نظرها على شعر أرداف الخيول الأمامية دون أن تنم عن أى عاطفة ، وكانت تبدو فى غباء فلاح « بريتونى » (من مقاطعة بريتانى الفرنسية) فى أثناء سماعه قداس يوم الأحد من راعى الكنيسة . وخرج فجأة شاب فوق فرس ثمين من غابة صغيرة من أشجار الحور والزعارير المزهرة .

قال العقيد : إنه إنجليزى .

أجاب السائق : أوه ! يا إلهى ! نعم يا سيدى إنه من نوع الشباب الذى يريد التهام فرنسا على حد قولهم .

وكان المجهول أحد المسافرين الذين وجدوا أنفسهم على القارة الأوربية ،

عندما قبض « نابليون » على كل البريطانيين اقتصاصاً منهم لاعتداء حكومة « سان جيمس »[1] على القانون الدولى عند نقض معاهدة « إميان » . وبعد أن استسلم هؤلاء السجناء لهوى القوة الإمبراطورية لم يبقوا جميعاً فى الأماكن التى قبض عليهم فيها ، أو فى الأماكن التى أطلق لهم أول الأمر حرية اختيارها . وأغلب الذين سكنوا فى تلك الفترة مقاطعة « التورين » كانوا قد نقلوا إليها من مختلف أنحاء الإمبراطورية ، حيث بدت إقامتهم ضارة بمصالح نابليون فى القارة الأوربية . وكان الأسير الشاب الذى خرج يروح عن نفسه ملل الصباح ، واحداً من ضحايا السلطة البيروقراطية ، فمنذ عامين صدر أمر من وزارة العلاقات الخارجية أدى إلى انتزاعه انتزاعاً من جو « مونبلييه » ، حيث فاجأه من قبل تصدع السلام وهو فى غمرة من حرصه على الشفاء من علة بالصدر . وعندما تبين هذا الشاب عسكرية شخص الكونت « ديجليمون » بادر بتحاشى نظراته بأن أدار رأسه نحو حقول نهر « الشير » .

قال المقدم وهو يتمتم : كل هؤلاء الإنجليز وقحون كأن الأرض ملك لهم . من حسن الحظ أن الماريشال « سولت » سيلحق بهم الإهانات .

وعندما عبر السجين أمام المركبة نظر نحوها . وبرغم نظرته العجلى أمكنه عندئذ أن يعجب بتعبير الشجن الذى أعطى وجه الكونتيسة

(١) أى حكومة بريطانيا .

المفكر جاذبية غير محددة . وهناك رجال كثيرون ينفعل قلبهم بشدة لمجرد مرأى العذاب عند المرأة ، فعندهم يكاد الألم يكون وعداً بالثبات والحب . وكانت « جولى » مأخوذة تماماً بتأمل محدة فى المركبة فلم تعر الفرس أو الفارس التفاتاً . وأعيد تركيب « المجر » بمتانة ورشاقة ، وصعد الكونت إلى المركبة . وجاهد السائق من أجل توفير الوقت الضائع ، واقتاد المسافرين بسرعة نحو الجزء الصاعد على حافة الصخور المعلقة التى تنضج فى وسطها أعناب «فوفريه» وحيث تقوم منازل جميلة كثيرة ، وتظهر عن بعد الأطلال الخاصة بدير «المارموتييه» حيث كان اعتزال القديس «مارتان».

— ماذا يبغى منا إذن ذلك اللورد الذى لا يكاد يحجب ما وراءه ؟

بهذا صاح المقدم وهو يدور برأسه ليتأكد من أن الفارس الذى كان يتبع مركبتهم منذ نهر « الشير» هو نفس الشاب الإنجليزى .

ولما كان الإنجليزى لم يخدش أى لياقة من لياقات الأدب وهو يتنزه فى الطريق بين الجبل والنهر الخاص بالسد ، فقد عاد المقدم إلى ركن المركبة بعد أن ألقى نظرة تهديد نحوه . ولكن المقدم لم يستطع برغم كراهيته غير الإرادية أن يمنع نفسه من أن يلاحظ جمال الفرس وأريحية الفارس ، فقد كان لذلك الشاب وجه إنجليزى ذو لون دقيق ، وبشرة ناعمة بيضاء إلى حد يكاد يدعو الناظر أحياناً إلى افتراض انتمائها إلى جسم رقيق لفتاة شابة ! وكان أشقر اللون رفيعاً طويلا . أما زيه فكان ذا طابع أنيق نظيف ، تتميز به أزياء إنجلترا الحريصة على عدم

خدش الفضيلة . وبدا كأنه يحمر خجلا عن حياء ، أكثر مما كان يحمر خجلا عن استمتاع بمظهر الكونتيسة .

رفعت « جولى » نظرها مرة واحدة نحو الغريب ، وكانت قد اضطرت إلى ذلك بشكل من الأشكال عندما أراد زوجها أن يدفعها إلى الإعجاب بسيقان الفرس الذى كان من جنس أصيل . وعندئذ فقط التقت عينا « جولى » بعينى الإنجليزى الخجول . ومنذ تلك اللحظة عمد إلى متابعة المركبة على بعد خطوات بدلا من أن يسير بفرسه بالقرب منها . ونظرت الكونتيسة إلى الرجل المجهول ، ولم تر فيه أى مزايا إنسانية أو فروسية مما كان يوصف به ، وألقت بنفسها إلى أقصى المركبة بعد أن أفلتت منها حركة خفيفة بحواجبها تصديقاً لرأى زوجها . وعاد المقدم إلى النوم ، وبلغ الزوجان مدينة «تور» دون أن يقول أحدهما للآخر أى كلمة ، ودون أن تجذب المناظر الساحرة فى المشهد المتغير الذى جاسا خلاله فى أثناء الرحلة انتباه « جولى » ولو مرة واحدة . إذ لم يكد زوجها يغط فى النوم حتى شرعت السيدة « ديجليمون » تتأمله حيناً بعد حين على مدد متفاوتة . وفى أثناء آخر نظرة تلقيها عليه أدت إحدى رجات المركبة إلى سقوط نوط كبير بيضى معلق فى رقبتها بسلسلة حداد المأتم فوق ركبتى السيدة الشابة . وظهرت أمامها فجأة صورة والدها . وترقرقت عيناها أمام هذا المشهد ، وتدحرج دمعها بعد أن كان حبيساً . ومن المحتمل أن يكون الإنجليزى قد رأى آثار

الرطوبة والبريق التى خلفتها الدموع لحظة فوق خدود الكونتيسة الباهتة اللون ، ولكن سرعان ما جففها الهواء . وكان المقدم « ديجليمون » مكلفاً من قِبَل الإمبراطور بحمل بعض الأوامر إلى الماريشال « سولت » الذى كان عليه أن يدافع عن فرنسا إزاء غزو الإنجليز إقليم « البيارن » فانتهز المقدم « ديجليمون » فرصة هذه المهمة كى ينتشل زوجته من الأخطار التى كانت تهدد « باريس » آنذاك ، ويوصلها إلى مدينة « تور » لدى قريبة عجوز من أقربائه . وسرعان ما عبرت المركبة ملاط شوارع « تور » ، وسارت فوق الجسر إلى الشارع الكبير ، وتوقفت أمام قصر عتيق كانت تعيش فيه الكونتيسة « دى ليستومير لانلون » سابقاً .

وكانت الكونتيسة « دى ليستومير لانلون » سيدة من تلك السيدات المسنّات الجميلات ذوات اللون المصفر ، والشعر الأبيض ، والابتسامة الرقيقة ، وكأنما على رءوسهن سلال ، إذ تخفى شعورهن قبعات مجهولة الزى . وكانت صورهن السبعينية ذات طابع قرن لويس الخامس عشر ، ولكنهن من السيدات المحبيات دائماً كما لو كن لايزلن فى دور العشق ، وهن تقيّات أقل مما هن ورعات ، وأقل ورعاً مما يبدو عليهن الورع . وهن يظهرن المساحيق دائماً على طريقة سيدات « الماريشالات » ويجدن الرواية ، ويتحدثن بطلاقة ، ويضحكن من إحدى الذكريات أكثر مما تضحكهن المداعبة ، ولا تروقهن أخبار الأحداث .

ولما وصلت الخادمة لإبلاغ الكنتيسة — إذ كان عليها أن تسترد لقبها عاجلا — بزيارة أحد أبناء الأخوات الذى لم تره منذ بدء حرب أسبانيا ، نزعت نظارتيها بنشاط ، وأقفلت صفحات « كتابها المفضل « دهليز البلاط القديم » ، واستعادت رشاقتها الخاصة فى بلوغ المصطبة فى اللحظة نفسها التى كان الزوج والزوجة يصعدان فيها السلم .

وتبادلت الخالة والقريبة تراشق النظرات فى سرعة :

وصاح المقدم وهو يمسك بالسيدة العجوز ويقبلها متعجلا : صباح الخير ياخالتى العزيزة . لقد جئتك بامرأة شابة لرعايتها . بل جئت أعهد إليك بكنزى . وليست « جولى » مدللة أو غبوراً . إنها ذات رقة ملائكية ، ولعلها لا تفسد هنا .. أتعشم ذلك . هكذا قال وهو يقاطع نفسه .

أجابت الكونتيسة وهى تزجى إليه نظرة ساخرة : إنسان خليع . . . !

وسبقت الكنتيسة « جولى » إلى التقدم نحوها فى لطف محبب خاص ، وقبلتها ، حتى بقيت « جولى » شاردة الفكر ، وبدت مرتبكة أكثر مما بدا عليها الاستغراب .

قالت الكونتيسة مرة أخرى : سوف يتعرف أحدنا على الآخر إذن يا قلبى العزيز ... لا تخشينى كثيراً ، فإنى أتعمد ألا أبدو كهلة على الإطلاق أمام الشباب .

وقبل بلوغ غرفة الاستقبال كانت الكونتيسة قد طلبت الطعام لضيفيها حسب العادة فى الأقاليم ، غير أن الكونت قاطع فصاحة خالته ليقول

لها بلهجة قاطعة إنه لن يستطيع أن يعطى من وقته أكثر مما يسمح له وقت الخدمة بالتناوب. وعندئذ عجّل الأقارب الثلاثة بالدخول إلى غرفة الاستقبال دون أن يجد المقدم الوقت الكافى ليروى لخالته الكبيرة كل أحداث السياسة. وأحداث الحرب التى اضطرته إلى اللجوء إليها طالباً إيواء امرأته الشابة. وتأملت الخالة بالتبادل فى أثناء هذه الحكاية ابن الأخت الذى كان يتحدث دون مقاطعة، وابنة الأخت التى كان اصفرارها وبؤسها يبدوان ناتجين عن هذا الانفصال الذى لا مندوحة عنه وكان حال أمرها يقول: هيه.. هيه..! هذان الشابان يحب كل منهما الآخر.

فى تلك اللحظة دوت فرقعات كرباج فى الفناء القديم الهادئ الذى كانت ملاطاته مرسومة بحزم من العشب. فقبّل «فيكتور» الكونتيسة مرة ثانية، واندفع خارج البيت.

وقال وهو يقبل زوجته التى تبعته حتى باب المركبة: وداعاً يا عزيزتى...

فقالت هى بصوت محبب: أوه يا «فيكتور» دعنى أصحبك إلى أبعد من هذا.. ما كنت أود أن أبتعد عنك...

— هل تعتقدين ذلك؟

أجابت «جولى»: وداعاً إذن الآن ما دامت هذه رغبتك.

واختفت المركبة.

سألت الكونتيسة ابنة الأخت، وهى تستفسر منها بإحدى تلك النظرات الفاحصة التى تلقيها السيدات المسنات نحو الشباب:

أنت إذن تحبين ابن أختى المسكين «فيكتور» حباً كبيراً؟

أجابت «جولى»: وأسفاه! يا سيدتى أليس من الضرورى أن تحب الرجل تماماً لكى تتزوجه؟

وكانت هذه العبارة الأخيرة ذات نبرة دالة على لهجة السذاجة التى كشفت دفعة واحدة كل القلب البرىء والأسرار العميقة.

غير أنه كان من العسير على سيدة كانت صديقة «ديكلوه» والماريشال «ريشيليو» ألا تسعى للتخمين بشأن سر هذا الزواج الحديث العهد. وكانت الخالة وابنة الأخت كلتاهما فى تلك اللحظة على عتبة الباب الخاص بالعربات، مشغولتين بالنظر إلى المركبة المختفية. ولم تكن عينا الكونتيسة تعبران عن الحب على النحو الذى اعتادت الماركيزة أن تفهمه. فقد كانت السيدة الكريمة من إقليم «البروفانس» كما كانت عواطفها حية.

سألت قريبتها: لقد تركت نفسك إذن ليستحوذ عليك ابن أختى الخليع؟

فارتعدت الكونتيسة دون إرادة منها. لأن نبرة الكلام، ونظرة تلك العجوز المدللة، ظهرت كأنها تنذر بمعرفة طباع «فيكتور» معرفة تكاد تكون أكثر عمقاً من معرفتها هى نفسها. وحاولت السيدة «ديجليمون» إذ أحست بالقلق أن تتخفى فى نوع من المداراة الخرقاء التى تمثل أقرب ملاذ تلجأ إليه القلوب الساذجة المتألمة. وتقبلت السيدة «دى ليستوميرى» إجابات «جولى» ولكنها اعتقدت فى غير قليل من

الابتهاج أن عزلتها سوف تحتشد ببعض أسرار الحب ، لما بدا على قريبتها من أنها تحتفظ بعقدة روائية تسلى من يتابعها .

وعندما وجدت السيدة « ديجليمون » نفسها فى غرفة الاستقبال الكبيرة ذات السجاجيد الحففة بقضبان لينة مذهبة ، وجلست أمام النار المشتعلة محتمية من رياح الشبابيك وراء « بارافان » صينى ، لم تستطع تعاستها أن تنقشع . وكان من الصعب أن تبرز الفرحة تحت أغطية الحوائط القديمة إلى ذلك الحد بين الأثاثات العريقة . وبرغم ذلك وجدت الباريسية الشابة نوعاً من المتعة فى النفاذ إلى هذه العزلة العميقة ، وإلى ذلك الصمت الحقيقى الخاص بمناطق الأقاليم .

وبعد أن تبادلت بضع كلمات مع الخالة التى كانت قد بعثت إليها منذ بعض الوقت خطاباً فى مستهل أيام عرسها ، بقيت صامتة وكأنها قد استمعت إلى موسيقى الأوبرا . وبعد ساعتين من الهدوء اللائق بهذا المكان الشبيه بالدير ، وجدت أن هذا ليس من الأدب فى شىء نحو الخالة ، وتذكرت أنها لم تجبها إلا بإجابات باردة . وكانت السيدة العجوز قد احترمت عناد قريبتها بتلك الغريزة المليئة بالعطف التى امتاز به الناس فى العصر السالف . وظلت الأرملة تعمل فى « التريكو » أو التزيد فى تلك اللحظة . وكانت فى الحقيقة قد تغيبت مرات عديدة كى تعد الغرفة الخضراء التى وضع فيها أهل البيت الحقائب ، والتى كان مقدراً للكونتيسة أن تنام فيها . ولكنها عادت فاحتلت مكانها فى

مقعد ضخم ، وظلت تنظر خلسة إلى السيدة الشابة . وأحست « جولى » بالخجل ؛ لأنها مرحت مع تأملاتها التى لا تقاوم ، فحاولت أن تعتذر عن ذلك ساخرة من موقفها .

فقالت الخالة : يا عزيزتى الصغيرة ... نحن نعرف ألم الأرامل .

وكان لا بد أن يكون المرء فى سن الأربعين كى يفطن إلى السخرية التى عبرت عنها شفتا السيدة العجوز .

وفى اليوم التالى كانت الكونتيسة فى حالة أفضل ، إذ أقبلت على الكلام ، ولم تعد السيدة « دى ليستومير » تيأس من أن تستأنس بهذه الزوجة الشابة التى حكمت عليها أول الأمر بالنفور والغباء ، وحدثتها عن مصادر المتعة فى الإقليم ، وعن الحفلات والبيوت والأماكن التى تستطيع التردد عليها . وكانت جميع أسئلة الماركيزة فى أثناء ذلك اليوم أشبه ما تكون بالمصايد التى لم تستطع — وفقاً لعادة قديمة من عادات البلاط — أن تمنع نفسها من أن تضعها فى طريق قريبتها ، حتى تستخلص طباعها . وقاومت « جولى » كل إلحاح عليها فى أثناء بعض الأيام ، بالخروج بحثاً عن اللهو . وبرغم رغبة السيدة العجوز فى أن تخرج للنزهة مع قريبتها الجميلة زهواً بها اضطرت فى النهاية إلى التخلى عن أملها فى اقتيادها إلى بعض الأوساط . ووجدت الكونتيسة مسوغاً لعزلتها وتعاستها فى حزنها على أبيها الذى لاتزال تلبس الحداد عليه .

وبعد ثمانية أيام أعجبت الأرملة بالرقة الملائكية ، والتلطف المتواضع

والروح المتسامحة التى تمتعت بها « جولى » واهتمت منذ ذلك الحين اهتماماً بالغاً بالاكتئاب الغريب الذى ظل يقرض أطراف ذلك القلب الشاب . لقد كانت الكونتيسة من النساء المخلوقات ليكن محبوبات ، واللائى يأتين بالخير . وصار معشرها الحلو محبباً ثميناً لدى السيدة « دى ليستومير » حتى بدأت تهيم بها ، ولا ترغب إطلاقاً فى مفارقتها . وكان الشهر الواحد كافياً لإنشاء صداقة أبدية بينهما .

ولاحظت السيدة العجوز بتعجب تلك التغيرات التى طرأت على محيا السيدة « ديجليمون » فقد انطفأت الألوان الحية التى كانت تضرم بشرتها إلى حد غير معقول ، وأخذ الوجه ألواناً صماء باهتة . وعندما فقدت « جولى » تألقها البدائى صارت أقل تعاسة . وكانت الأرملة أحياناً توقظ لدى قريبتها الشابة دفعات من المرح ، أو من الضحك المتفكه فلا يلبث أن يذوى مع فكرة مزعجة طارئة . وخمنت أنه ليس ذكرى أبيها ولا غياب « فيكتور » سبب هذا الاكتئاب العميق الذى ألقى حجاباً على حياة القريبة . ومرت بها وساوس سيئة عديدة حتى لم تستطع أن تقف على السبب الحقيقى للداء ، لأننا قد لا نلتقى بالسبب الحقيقى إلا بالمصادفة .

وأخيراً ، وفى ذات يوم صارت « جولى » تمثل فى نظر الخالة المندهشة النسيان الكامل للزواج ، وجنون الفتاة الشابة الحمقاء ، ورعونة الفكر ، كالطفولة الجديدة بالسنين الأولى ، بل كل تلك الروح الرقيقة التى

تبلغ أحياناً عمقاً كبيراً ، ويتميز بها الشبان فى فرنسا . فعزمت السيدة « دى ليستومير » عندئذ على أن تسبر غور الأسرار الخاصة بهذه الروح التى كان وضعها الطبيعى البالغ معادلاً للتصنع والمداراة بحيث لا يمكن النفاذ منها إلى ما وراءها . واقترب الليل عندما كانت السيدتان جالستين أمام نافذة مطلة على الشارع ، وعاودت « جولى » حالة التفكير عندما مر رجل على فرس .

قالت السيدة العجوز : ها هو ذا أحد ضحاياك !

فنظرت السيدة « ديجليمون » إلى الخالة مبدية دهشتها الممزوجة بالقلق ، فقالت الكونتيسة :

— إنه شاب إنجليزى . . . وهو شريف من الشرفاء .. صاحب الرفعة « آرثر أورمون » ، الابن الأكبر للورد « جرينفيل » وقصته جديرة بالاهتمام ، إذ جاء بناء على نصيحة من أطبائه إلى مدينة « مونبلييه » سنة ١٨٠٢ على أمل شفائه — تحت تأثير جو الإقليم — من مرض صدرى نزل به ، فوقع فى الأسر مع بقية أبناء وطنه جميعاً ، بناء على أمر « بونابرت » عندما وقعت الحرب . إذ لم يكن هذا الوحش قادراً على الاستغناء عن القتال . ومن باب اللهو عكف هذا الإنجليزى الشاب على دراسة مرضه الذى كان فى ذلك الوقت من الأمراض المميتة ، ورويداً رويداً بدأ يهوى التشريح ثم الطب ، بل أخذ يشغف بهذه الأنواع من الفنون شغفاً كبيراً ، وهو أمر شديد الشذوذ بالنسبة إلى الرجال المرموقين ؛

ولكن الوصى على العرش كان من المعنيين بالكمياء ! وباختصار تقدم السيد « آرثر » تقدماً مذهلا حتى لدى أساتذة « مونبلييه » فكانت الدراسة عزاءه فى الأسر واستطاع أن يشفى نهائياً فى الوقت نفسه . ويقال إنه ظل سنتين دون أن ينبس ببنت شفة ، فيتنفس قليلا وهو مستلق فى إحدى الحظائر يشرب ألبان البقر القادم من « سويسرا » ويتغذى بالجرجير . ومنذ وصل إلى مدينة « تور » لم ير أحدا . وبدا مزهواً كالطاووس ، ولكنك غزوت قلبه بالتأكيد ، لأنه ليس محتملا أن يكون مروره تحت نافذتنا مرتين كل يوم منذ – وصلت أنت إلى هنا – من أجلى أنا ومن المؤكد أنه يحبك .

أيقظت هذه الألفاظ الأخيرة الكونتيسة وكأنها كانت سحراً ، وأبدت حركة وابتسامة أدهشتا الماركيزة . وظلت نظرة « جولى » أسيانة باردة دون أن يبدر منها ذلك الرضا الغريزى الذى تستشعره أشد النساء صرامة ، عندما تعلم مدى تأثيرها على شقاء إنسان . وعبر وجهها عن شعور بالنفور أشبه ما يكون بالاشمئزاز . ولم يكن هذا العزل الكامل الذى تضرب به امرأة عاشقة الدنيا كلها عرض الحائط من أجل مخلوق واحد . إنها تعرف بلاشك الضحك والمرح . . لا . . لقد كانت « جولى » حينذاك كشخص تدفعه ذكرى خطر شديد حاضر إلى استشعار الألم . وكانت الخالة مقتنعة تماماً بأن قريبتها ليست عاشقة لزوجها ابن الأخت ، وذهلت لذلك تماماً حين اكتشفت أنها لا تحب أحداً ،

وارتعدت حين وجدت فى « جولى » شخصاً غير سعيد . أو امرأة شابة كفتها تجربة يوم أو تجربة ليلة لتقدير عدم أهلية « فيكتور » . .

وقدرت الماركيزة فى بالها . إذا كانت تعرفه فهذا هو كل السر . سوف يعانى ابن اختى قريباً من أضرار الزواج .

وعندئذ اقترحت فيما بينها وبين نفسها أن تحوِّل « جولى » إلى عقائد المذاهب الملوكية فى قرن « لويس » الخامس عشر . ولكنها بعد ذلك بساعات عرفت ، أو لعلها خمنت . الموقف الشائع إلى حد ما فى العالم المحيط بالكونتيسة ، والذى يرجع إليه اكتئابها . وعندما صارت « جولى » متفكرة فجأة انسحبت إلى غرفتها أكثر تبكيراً مما اعتادت . وبعد أن تولت خادمتها خلع ملابسها ، وفارقتها لتستعد للنوم ، جلست أمام المدفأة غاطسة فى أريكة وثيرة ذات مسند من القطيفة الصفراء ، وهى قطعة من الأثاث العتيق الذى يرغب فيه المكروبون والسعداء على السواء . وبكت وتنهدت وعملت فكرها ، ثم أخذت منضدة صغيرة وبحثت عن الورق . وشرعت تكتب . ومرت الساعات سريعة . وبدت المناجاة المكشوفة التى وضعتها « جولى » فى هذه الرسالة كأنها قد كلفتها غالياً ، بحيث ساقتها كل عبارة إلى تخيلات طويلة وفجأة فاضت بالسيدة الشابة الدموع وتوقفت .

وفى تلك اللحظة دقت الساعة الثانية صباحاً . ومال رأسها الذى كان فى ثقل رأس امرأة بسبيل الموت فوق صدرها ، وعندما أعادت

رفعه رأت « جولى » خالتها وقد برزت فجأة كشخص انفصل عن السجادة المعلقة فوق الحائط .

قالت لها خالتها : ماذا بك إذن يا صغيرتى لماذا السهر إلى هذا الوقت المتأخر ؟ ولماذا البكاء بخاصة على انفراد فى مثل سنك ؟

وجلست بغير تكلف بالقرب من قريبتها ؟ والتهمت عيونها الرسالة التى كانت قد بدأتها .

ـ كنت تكتبين إلى زوجك !

فأجابت الكونتيسة : وهل أعرف أين هو ؟

وتناولت الخالة الرسالة وقرأتها . وكانت قد أحضرت معها نظارتها : كأنما توقعت سلفاً ما حدث . وتركتها المخلوقة البريئة تتناول الرسالة دون أن تبدى أقل ملاحظة ؛ ولم ينتزع منها كل طاقتها أى عيب من عيوب الكرامة ، ولا أى شعور بالخطيئة الخفية .. لا .. إذ التقت الخالة هنالك بالخير كما التقت بالشر ، والتقت بالصمت كما التقت بالمناجاة وبموضع السر فى إحدى لحظات الأزمة عندما تكون الروح بغير ذريعة ويكون الكل سواء . وكانت « جولى » أشبه ماتكون بالفتاة الشابة العفيفة التى تفنى محباً من جراء الاستخفاف به ، ولكنها فى الليل تجد نفسها تعيسة مهجورة إلى حد أن ترغب فيه ، وتبحث عن قلب تأوى إليه بمتاعبها . فتركت الرسالة واستسلمت ، وقد أخذ يتلاشى ما يدفعها من

الرقة المفروضة على خطاب مفتوح دون أن تنبس ببنت شفة ؛ وبقيت متفكرة أثناء قراءة الماركيزة الرسالة .

عزيزتى لويز

فيم يفيد التماس تحقيق الوعد الغاشم الذى تعاهدت عليه شابتان جاهلتان مرات عديدة ؟ لقد كتبت إلى تقولين إنك غالباً ما تساءلت : لماذا لم أجب عن استفساراتك منذ ستة أشهر؟ فإذا لم تكونى قد فهمت صمتى فلعلك اليوم تخمنين سبب ذلك . عندما تعلمين الأسرار التى سوف أفشيها . لقد كنت عولت على أن أدفنها إلى الأبد فى قرار قلبى مالم تخطرينى بزواجك القريب . سوف تتزوجين «بالويزا» وهذه الفكرة وحدها تجعلنى أرتعد . ياصغيرتى المسكينة تزوجى ، ثم بعد أشهر قليلة سينزل بك ندم حاد من جراء ذكرى ما كنا عليه قبل وقت مضى ، عندما وصلنا كلتانا إلى مدينة « أكوران » فى أعلى سلاسل الجبل ، وجعلنا نتأمل الوادى الجميل الذى كان تحت أقدامنا ، وأعجبنا فيه بأشعة الشمس الغاربة التى كان بريقها يغمرنا ، وجلسنا فوق قطعة من الحجر ، واستغرقنا فى انبهار تلاه أرق الاكتئاب .

وكنت الأولى حين شعرت بأن هذه الشمس البعيدة تحدثنا عن المستقبل؛ وكنا غريبتين مخبولتين فى ذلك الحين . هل تذكرين كل هذياننا ! وكنا نتبادل القبلات كعاشقين على حد تعبيرنا آنذاك . وأقسمنا بأن التى تتزوج قبل الأخرى تروى لها بإخلاص تلك الأسرار الخاصة

بزفاف البكارة ، وكل المتع التى نفحتها أرواحنا الطفولية فى شكل لذيذ .
ستكون تلك الليلة سبباً فى يأسك يا « لويزا » .

فى ذلك الوقت كنت شابة جميلة ، غير مكترثة بل سعيدة .
وسيحولك الزوج فى أيام قليلة إلى ما أنا عليه الآن : قبيحة متألمة ،
عجوز . سيكون من الجنون أن أقول لك إلى أى حد كنت مزهوة
ومغرورة وسعيدة بزواجى من المقدم « فيكتور ديجليمون » بل كيف
أقول لك ذلك ؟ إننى لم أعد أذكر أنا نفسى شيئاً . فى ثوان قليلة
صارت طفولتى كحلم ، ولم تكن قدرتى أثناء النهار الشرعى الذى
اختص بالرباط الذى كنت أجهل آماده خالية من المؤاخذات . فقد
حاول أبى أكثر من مرة أن يهبط من فرحى ، لأننى كنت أبدى من
المباهج ما كان يعدّ غير لائق . وأوحت أقوالى بالدهاء لسبب بسيط
هو أنها كانت خالية من الدهاء . وقمت بآلاف الأعمال الصبيانية
بخمار الزفاف وبالرداء والزهور . وفى المساء — عندما صرت على انفراد
فى الغرفة التى قادونى إليها فى غاية الأبهة — خطرت لى بعض الشيطنة كى
أدفع « فيكتور » إلى الحيرة . وفى انتظار مجيئه أحسست بدقات قلبى
مثلما أحسست بها حينما تملكتنى قديماً فى الأيام الخاصة باحتفالات
الأعياد فى ٣١ ديسمبر ، عندما نفذت — دون أن يرانى أحد — إلى غرفة
الاستقبال حيث تكومت هدايا رأس السنة .

وعندما دخل زوجى بحث عنى ، وإذا ضحكتى المكبوتة التى

انطلقت من فمى تحت أغطية الشاش الموصلى الناعم التى أحاطت بى ،
كانت آخر صيحة لتلك الفرحة الرقيقة التى بعثت الحياة فى ألعاب
طفولتنا ... »

عندما انتهت الأرملة من قراءة هذه الرسالة التى بدأت على هذا النحو
وكان ضرورياً أن يحتوى على ملاحظات تعيسة حقاً ، وضعت نظارتها
ببطء فوق المنضدة ، ووضعت فوقها الرسالة فى الحال ، وركزت على
قريبتها عينيها الخضراوين اللتين لم تكن وقدتهما المضيئة قد ضعفت
بعد بتأثير السن ، وقالت : ياصغيرتى . . لا تستطيع سيدة متزوجة
أن تكتب على هذا النحو إلى فتاة شابة دون أن تقصر فى شئون اللياقات ..

أجابت « جولى » وهى تقاطع الخالة : وهذا هو ما اعتقدته وقد
شعرت بالخجل من نفسى عندما كنت تقرئينه ...

عادت العجوز تقول ببساطة مفرطة : لاينبغى — إذا لم يرقنا صنف
من أصناف الأكل على المائدة أن نبعث غيرنا على القرف منه
يا طفلتى .. ولاسيما أن الزواج قد بدا شيئاً ممتازاً من أيام حواء إلى
اليوم ... ألم تعد لك أم ؟

فارتعشت الكونتيسة ، ثم رفعت رأسها برقة ، وقالت : منذ عام
وأنا لا أكف سلفاً عن الندم بشأن أمى . ولكننى أخطأت فى أنى لم أصغ
للكراهية التى ابداها أبى وهو يرفض أن يصبح « فيكتور » صهراً له .

ونظرت إلى الخالة ، فجففت دموعها ارتعادة ابتهاج ، حينما لمحت

معالم الطيبة التى بعثت الحياة فى ذلك الوجه المسن . ومدت يدها الشابة إلى الماركيزة التى بدت عيناها مغرورقتين . وعندما تضاغطت أصابع كل منهما كانت المرأتان قد بلغتا غاية التفاهم .

أضافت الماركيزة : أيتها اليتيمة المسكينة .

وكان ذلك بصيصاً أخيراً من النور بالنسبة إلى «جولى» إذ اعتقدت أنها لاتزال تسمع صوت النبوءة على لسان أبيها .

سألت المرأة العجوز : إن يديك مشتعلتان من السخونة ! أهما كذلك دائماً ؟

وأجابت «جولى» : لم تفارقنى الحرارة المرتفعة منذ سبعة أيام أو ثمانية .

— كانت حرارتك مرتفعة وأخفيت ذلك عنى !

قالت «جولى» بنوع من القلق الخجول : إنها عندى من سنة .

— على ذلك لم يكن الزواج حتى اليوم بالنسبة إليك ياملاكى الصغير إلا ألماً طويلاً ؟

لم تجرؤ المرأة الشابة على الإجابة، ولكنها أتت بحركة إيجاب فضحت كل معاناتها .

— أنت إذن تعيسة ؟

— أوه لا يا خالتى «فيكتور» يحبنى حب العبادة ، وأنا أعبده ... فهو طيب جداً .

— نعم أنت تحبينه ، ولكنك تهربين منه . أليس كذلك ؟

— نعم .. بعض الأحيان .. إنه يبحث عنى غالباً .

— ألست غالباً مضطربة فى العزلة خوفاً من مفاجأته لك ؟

— وا أسفاه ! فعلا يا خالتى . ولكننى أؤكد لك أنى أحبه كثيراً .

— ألم تكونى تتهمين نفسك سراً بأنك أنت نفسك لا تعرفين أولا تملكين القدرة على أن تشاركيه متعته ؟ ألم تكونى تعتقدين أحياناً أن الحب المشروع أشد قسوة فى عبئه من أى عاطفة إجرامية ؟

قالت «جولى» وهى تبكى : أوه ! هو كذلك . أنت تخمنين كل شىء إذن حينما كان كل شىء لغزاً بالنسبة إلىّ . لقد فترت حواسى وصرت بغير أفكار ، وهأنذا أكابد العيش . لقد كبت روحى خوف مبهم يثلج عواطفى ويبقينى فى فتور مستمر ، ولقد أصبحت فاقدة النطق لكى أشكو لنفسى وبغير أقوال تعبر عن ألمى ، إننى أتعذب وأخجل من عذابى عند رؤيتى «فيكتور» سعيداً بما من شأنه أن يودى بى .

صاحت الخالة التى حيي وجهها الجاف فجأة بابتسامة مرحة عكستها مباهج شبابها : هذه صبيانيات . هذه كلها حماقات !

قالت المرأة الشابة فى يأس : وأنت أيضاً تضحكين !

أجابت الماركيزة بسرعة : لقد كنت أنا كذلك . أما وقد تركك «فيكتور» الآن وحيدة ، ألم تعودى فتاة شابة هادئة بلا متع ولكن بدون آلام .



فتحت « جولى » عينيها الواسعتين ببلاهة ، واستطردت المركيزة :

— على أى حال ياملاكى أنت تعبدين « فيكتور » .. أليس كذلك ؟ ولكنك كنت تفضلين أن تكونى أخته لا زوجته حيث إن الزواج لا يصلح لكما .

— آه .. فعلا يا خالتى . ولكن لماذا تبتسمين ؟

— أوه ! معك حق يا طفلتى المسكينة ، إذ ليس فى هذا كله مدعاة للسرور . وسيكون مستقبلك مليئاً بأكثر من شقاء مالم أحدب عليك ، ومالم تفطن تجربة عمرى الطويل إلى سبب أحزانك الساذج . إن ابن أختى لم يكن يستحق حظه السعيد .. ذاك الأبله !! فى عهد محبوبنا لويس الخامس عشر إذا وجدت امرأة شابة فى مثل موقفك؛ كان ينبغى فى الحال أن يعاقب زوجها على سلوكه كجندى مرتزق ، ذاك الأنانى ! أما العسكريون فى عصر هذا الطاغية الإمبراطورى فكلهم جهلة أشرار ، ويأخذون القسوة بديلا عن الشهامة ، ولا يعرفون النساء أكثر مما لم يعرفوا كيف يحبون ، ويعتقدون أن الذهاب إلى الموت فى الغداة يحليهم فى العشية من أى اعتبارات أو اهتمامات مبذولة حيالنا . لقد كانوا قديماً يعرفون كيف يحبّون بنفس البراعة فى معرفة كيف يموتون فى الوقت المناسب . يابنة الأخت ، سوف أقوم بتأديبه من أجلك ، وسأضع حدًّا لهذا التصدع التعيس ، الطبيعى إلى حد ما ، الذى كان سيقودكما إلى كراهية أحدكما الآخر وإلى تمنى الطلاق إذا لم تكونى

قد بلغت الموت قبل بلوغك اليأس .

أصغت « جولى » إلى خالتها باستغراب وباندهاش متعادلين عند سماعها هذه الأقوال التى استطاعت أن تستشعر حكمتها أكثر من أن تفهمها . وأحست بالذعر عند سماع الحكم الذى أصدره أبوها بشأن « فيكتور » على فم « قريبة » ذات تجربة ولكن بتعبير أرق .

وأصابها حدس عارم بمستقبلها ، فأحست بلا شك بثقل شقائها الذى كان يجثم فوق صدرها بالضرورة ، لأنها لم تلبث أن ذرفت الدموع ، وألقت بنفسها بين ذراعى السيدة العجوز وهى تقول لها : « كونى أمى ؟ » أما الخالة فلم تبك ، لأن الثورة أبقت لنساء الملكية القديمة دموعاً قليلة فى العيون ، فقديماً الحب ، ثم الرعب مؤخراً جعلاهن يألفن الحوادث المؤثرة الحادة بحيث صرن يحتفظن وسط أخطار الحياة بالكرامة الباردة وبالمودة الصادقة بغير مظاهر. وهذا من شأنه أن يسمح لهن بأن يكن دائماً مخلصات لأصول اللياقة ، ويوفر لهن نبل الهيئة الذى صارت الأخلاق الجديدة ترفضه عن خطأ .

أخذت الأرملة المرأة الشابة بين ذراعيها وقبلت جبهتها برقة ولطف معهودين غالباً فى أساليب وعادات مثل هاتيك النساء أكثر مما فى قلوبهن ولاطفت قريبتها بأقوال رقيقة ، ووعدتها بمستقبل سعيد ، وهدهدتها بوعود غرامية لكى تعينها على النوم كما لو كانت ابنتها هى .. ابنتها الحبيبة التى تتحول آلامها وآمالها إلى آلامها وآمالها الخاصة بها هى .

وكانت ترى نفسها أيام شبابها ، فتخيلت نفسها جميلة وبلا تجربة كقريبتها . وصارت الكونتيسة تغط فى النوم سعيدة بلقاء صديقة وأم تستطيع أن تروى لها كل شىء برغم ذلك .

وغداة ذلك اليوم صباحاً فى اللحظة التى كانت إحداهما تقبل الأخرى فى محبة قلبية عميقة ، وفى جو من التفاهم الذى يبرهن على تقدم عاطفى وعلى توافق أكثر اكتمالا بين روحيهما ، سمعتا خطوات فرس فأدارتا رأسيهما فى وقت واحد ، ورأتا الشاب الإنجليزى الذى كان يمر متباطئاً كعادته . وكان واضحاً أنه قام بدراسة معينة للحياة التى اعتادتها السيدتان الوحيدتان ، وأنه لم يكن يتخلف قط عن المرور وقت غدائهما أو عشائهما .

وكان فرسه يتباطأ فى خطوته بلا حاجة إلى إشارة ، ثم يلقى « آرثر » بنظرة مكتئبة خلال الوقت الذى يقضيه فى عبور المكان فيما بين شباكى غرفة الطعام ، فيشعر بالإهانة أغلب الوقت من الكونتيسة التى لا تبذل نحوه أدنى انتباه . غير أن الماركيزة — وقد اعتادت هذه الغرابات الركيكة المتعلقة بصغائر الأشياء مما يبعث الحياة عادة فى الأقاليم ، ولايكاد يحمى نفسه منها أكبر العقول إلا بصعوبة — صارت تجد تسلية فى هذا الحب الخجول الجاد الذى كان الإنجليزى يعبر عنه بطريقة مضمرة . وصارت نظراته الدورية شبه عادة بالنسبة إليها . وعمدت إلى الإعلان عن عبور « آرثر » فى كل يوم بمداعبات جديدة .

وعندما كانت السيدتان تجلسان إلى المائدة كانتا تنظران فى آن معاً إلى رجل الجزيرة « البريطانى » والتقت عينا « جولى » و « آرثر » أو « آرثير » فى تلك المرة فى شىء من الإيضاح العاطفى ، بحيث احمر وجه السيدة الشابة . وفى الحال همز الإنجليزى حصانه ورحل به عدواً .

قالت جولى للخالة : ولكن يا سيدتى ما العمل ؟ لابد أنه من الثابت لدى الناس الذين يرون هذا الإنجليزى عابراً من هنا أننى ...

أجابت الخالة مقاطعة كلامها : نعم !

— هيه ! طيب . ألا يمكن أن نطلب منه عدم التنزه على هذا النحو ؟

— أليس فى هذا إخطار بأنه ذو خطورة ما ؟ وفضلا عن هذا هل فى إمكانك أن تمنعى رجلاً من الذهاب والمجىء حيثما حلا له ذلك ؟ منذ الغد لن نتناول طعامنا فى هذه الغرفة . وعندما لا يرانا ذلك الشاب الوجيه بعد اليوم سيكف عن حبه لك عن طريق النافذة . هكذا يا طفلتى العزيزة تتصرف المرأة ذات الخبرة بالحياة .

غير أن شقاء « جولى » كان يجب أن يكون كاملا . إذ لم تكد السيدتان تنهضان من المائدة حتى وصل فجأة خادم « فيكتور » لقد جاء من مدينة « بورج » متجشماً السفر حقيقة خلال الطرق الملتوية كى يحمل إلى الكونتيسة رسالة من زوجها . فقد هجر « فيكتور » الإمبراطور وأعلن إلى زوجته سقوط الحكم الإمبراطورى والاستيلاء على

« باريس » والحماس الذى انفجر تأييداً لأسرة « البوربون » فى كل المواقع الفرنسية . ولما كان لا يستطيع الوصول إلى مدينة « تور » فإنه يرجوها المجىء فى سرعة كبيرة إلى مدينة « أورليان » التى يأمل أن يكون موجوداً فيها حاملا جواز السفر لها . وكان على هذا الخادم ، وهو جندى سابق أن يرافق « جولى » من « تور إلى » أورليان » حيث لايزال الطريق بينهما حراً فى اعتقاد « فيكتور » .

قال الخادم : ليس أمامك يا سيدتى أى وقت .. فالنمساويون والبروسيون والإنجليز سوف يلتقون فى نقطة تقاطع عند مدينة « بلوا » أو عند « أورليان » .

واستعدت المرأة الشابة فى بضع ساعات ، ورحلت فى عربة سفر قديمة أعارتها لها الخالة ، وقالت وهى تقبلها : لماذا لا تجيئين معنا إلى باريس ؟ الآن وقد استعاد البوربون أنفسهم سوف تجدين هنالك ..

— لو لم تكن الرحلة غير مضمونة النجاح لحضرت معكما يا صغيرتى المسكينة ، لأن نصائحى ضرورية جداً لك و « لفيكتور » وسوف أعد كل ما يلزم كى ألحق بكما .

ورحلت « جولى » فى رفقة خادمها والجندى السابق الذى كان يعدو بحصانه قرب المقعد ساهراً على سلامة سيدته . وعند الليل كانت « جولى » قد وصلت إلى إحدى المحطات قبل « بلوا » وشعرت بالخوف لسماعها صوت عربة تمضى خلف عربتها ولا تفارقها منذ « أمبواز »

فعمدت إلى الكوة الصغيرة لتتحقق من شخصية رفقائها فى السفر . وساعدها ضوء القمر على رؤية آرثر أو أرثير واقفاً على بعد ثلاث خطوات منها ، وعيناه تحملقان نحو مقعدها . والتقت نظراتهما . فألقت الكونتيسة بنفسها بشدة إلى ركن عربتها . ولكن بشعور الخوف الذى جعل قلبها يخفق . وكانت تعتقد فى خطيئة الحب الموحى به بغير إرادة إلى أحد الرجال . شأنها شأن غالبية السيدات الشابات الساذجات حقيقة وقليلات التجارب .. فقد استشعرت فزعاً غريزياً قد يكون مصدره الشعور بضعفها أمام اقتحام جرىء من هذا الطراز .

ومن أسلحة الرجل القوية جداً قدرته الخفية على أن يشغل بال امرأة ذات خيال راكد تفزعه أو تسوؤه المتابعة . وتذكرت الكونتيسة نصيحة الخالة ، وقررت أن تبقى فى نهاية مقعدها بالعربة فى أثناء الرحلة دون أن تخرج منها . ولكنها كانت تسمع الإنجليزى وهو يخطو حول العربتين عند كل محطة . وفوق ذلك كانت ضوضاء مركبته المزعجة تدوى على الطريق بلا توقف فى أذنى « جولى » . وقدرت المرأة الشابة أنها سرعان ما سوف تجتمع بزوجها وأن « فيكتور » سيكون المدافع عنها ضد ذلك التعذيب الفريد .

— ولكن ماذا لو كان ذلك الشاب لا يحبنى برغم هذا ؟

هكذا وصلت فى نهاية تفكيرها إلى هذه العبارة . وعندما وصلت إلى « أورليان » كان « البروسيون » قد استولوا عليها بكرسى عربتها . وقادوها

فى حراسة الجنود إلى فناء الفندق . ولم تكن المقاومة ممكنة . وشرح الأجانب للمسافرين الثلاثة بالإشارات الآمرة أنهم قد تلقوا الأمر بعدم خروج أى شخص من عربته . فبقيت الكونتيسة تبكى مدة ساعتين تقريباً وهى سجينة وسط الجنود الذين كانوا يدخنون ويضحكون وينظرون إليها أحياناً نظرة متطلعة وقحة . ولكن فى النهاية رأتهم يتباعدون عن العربة بنوع من التوقير عند سماعهم ضوضاء خيول كثيرة . وسرعان ما أحاطت بمقعد العربة فرقة من الضباط الأجانب من ذوى الرتب الكبيرة التى كان على رأسها ضابط نمساوى .

قال لها اللواء : يا سيدتى تفضلى بقبول اعتذاراتنا . فقد حدث خطأ ويمكنك مواصلة رحلتك بلا خوف ، وهاك جواز سفر يقيك برغم ذلك كل ألوان الإذلال ..

وتناولت الكونتيسة الأوراق وهى ترتجف ، وتمتمت بأقوال غامضة ، وشاهدت بالقرب من اللواء « آرثر » فى بدلة ضابط بريطانى . وهو الذى كان له الفضل بلا شك فى إنقاذها بسرعة . وأدار الشاب البريطانى رأسه فى فرح واكتئاب معاً ولم يجرؤ على النظر إلى « جولى » إلا خلسة .

ووصلت السيدة « ديجليمون » إلى باريس بفضل جواز السفر دون أى حادثة مكدرة . وهناك التقت بزوجها الذى أفلت من يمين الولاء للإمبراطور ، فكوفئ بحفاوة بالغة من قبل الكونت « دارتوا » الذى عينه أخوه « لويس » الثامن عشر عميداً للمملكة . وحصل « فيكتور »

فى الحرس الخاص على درجة بارزة جعلته فى رتبة لواء .

وبرغم ذلك ، وسط كل هذه الاحتفالات التى أبرزت عودة « البوربون » كان شر عميق مؤثر على حياته قد هجم على « جولى » المسكينة ، إذ فقدت الكونتيسة « دى ليستومير لاندون » . فقد ماتت السيدة العجوز من الفرح ، وحدثت لها جلطة فى القلب عندما شهدت دوق « دانجوليم » فى « تور » من جديد . وهكذا ماتت تلك التى كانت سنها تخول لها الحق فى نصيحة « فيكتور » والوحيدة التى كان يمكنها بإرشادات ماهرة أن تجعل الوئام أكثر وفاقاً فيما بين الزوجة والزوج . وأحست « جولى » بمدى فداحة هذه الخسارة . ولم يعد بينها وبين زوجها سواها نفسها . غير أنها شابة خجلة ، وكانت لاشك تفضل أولا العناء على الشكوى . وكان كمال طبعها نفسه متعارضاً مع ما جرؤت أن تطرحه من واجباتها أو مع نزوعها نحو البحث عن سبب آلامها لأن وقف هذه الآلام كان شيئاً دقيقاً . فقد خشيت « جولى » أن تخدش حياءها كفتاة شابة .

كلمة فيما يتعلق بمصير السيد ديجليمون فى عهد رجوع الملكية :

ألا يلتقى رجال كثيرون فيما بينهم وتظل تفاهتهم العميقة سراً بالنسبة إلى غالبية الناس الذين يعرفونهم ؟ فكل من الرتبة الكبيرة ، والأسرة ذات المكانة الملحوظة والوظائف الهامة ، وبعض المداهنة فى المعاملة

الحميدة ، والتحفظ الشديد فى السلوك أو امتيازات الثروة ... كل هذه شأنها بالنسبة إليهم شأن الحراس الذى يحولون دون نفاذ أى انتقادات إلى وجودهم الخاص بهم . وهؤلاء الناس يشبهون الملوك الذين يستحيل تقدير قاماتهم وطباعهم وأخلاقهم الحقيقية تقديراً عادلا ، أو معرفتها معرفة سليمة ، لأن رؤيتهم تتم إما عن بعد شديد أو عن قرب شديد . وتقوم هذه الشخصيات ذات الفضل المصطنع بتوجيه الأسئلة بدلا من أن تقوم بالكلام وتملك فن إبراز الآخرين فى المشهد كى تتحاشى اتخاذ وضع أمامهم . ثم يجذبون ببراعة موفقة كلا من خيط عواطفه أو خيط مصالحه . ويتلاعبون على هذا النحو بالرجال الذين يتميزون عليهم فعلا ، ويجعلون منهم صوراً خشبية متحركة . ويعتقدون بالتالى فى صغرهم ما داموا قد نزلوا بهم إلى مستواهم . وعندئذ يحصلون على الانتصار الطبيعى للفكر الدنىء المتثبت فوق طيش الأفكار الكبيرة . ومن أجل الحكم على هذه الرءوس الفارغة وتقدير قيمهم السالبة يجب على المراقب أن يملك فكراً دقيقاً قبل أن يكون عالياً وأن يملك صبراً أكثر مما يملك طاقة فى البصر ، وأن تتوافر النعومة والملمس الرقيق أكثر مما تتوافر له الرفعة والعظمة فى الأفكار . وبرغم ذلك — مهما يبذل هؤلاء المغتصبون من مقدرة على الدفاع عن نواحى ضعفهم — من الصعب عليهم تماماً أن يخدعوا نساءهم وأمهاتهم وأولادهم أو أصدقاء البيت . غير أن هؤلاء يحفظون لهم دائماً سرهم فيما يمس الشرف المشترك على نحو ما .

بل غالباً ما يساعدونهم على أن يفرضوا ذلك السر على المجتمع . وإذا كان تآمر أهل البيت يعين كثيرين من هؤلاء التوافه على أن يصبحوا فى عداد الرجال الممتازين فهم بهذا يعوضون عدد الرجال الممتازين الذين يعدون من التوافه ، بحيث يتوافر للهيئة الاجتماعية دائماً نفس القدر من الكفايات الظاهرة .

ولنفكر الآن فى الدور الذى لابد أن تلعبه امرأة ذات مستوى فكرى وعاطفى حيال زوج من هذا الصنف ... ألا نلحظ وجود حيوات مثقلة بالآلام والتضحية التى لا يعدلها أى جزاء على الأرض بالنسبة إلى قلوب معينة مليئة بالحب والرقة ؟

ولو كان قد التقى بامرأة قوية فى هذا الموقف المريع لخرجت منه بجريمة ، على نحو ما فعلت « كاترين » الثانية التى أطلق عليها لذلك السبب اسم « العظيمة » .

ولكن لما لم تكن كل النساء جالسات على عروش فإنهن يتقطعن معظمهن لألوان من الشقاء البيتية التى لا يفحصها الحول برغم كونها مبهمة . وهن عندما يبحثن عن عزاء دنيوى مباشر عن الشرور يقمن غالباً بتغيير الآلام فقط إذا شئن البقاء مخلصات نحو واجباتهن أو يؤدين أخطاء إذا أطحن بالقوانين فى سبيل لذائذهن .

وكل هذه الأفكار تقبل التطبيق على التاريخ السرى الخاص « بجولى » . فى كل المرحلة التى ظل « نابليون » واقفاً فيها على رجليه بقى

الكونت « ديجليمون » متقدماً مثل كثيرين غيره ، ضابطاً جيداً من ضباط الياوران . وممتازاً فى أداء المهمات الخطرة ، ولكنه ظل بغير أى قدرة قيادية ذات أهمية فلم يثر أى حسد . وأصبح معدوداً كواحد من الشجعان الذين كان يؤثرهم الإمبراطور ، وكواحد ممن يطلق عليهم العسكريون عادة اسم « الطفل الطيب » أما الملكية العائدة التى أعطته لقب الماركيز فلم تجد فيه شخصاً عاقا ، إذ أنه تبع أسرة « البوربون » حتى مدينة « جان » ببلجيكا . وأدت هذه الفعلة المنطقية الأمينة إلى تكذيب الطالع عندما قدر صهره فيما سلف أن زوج ابنته لن يتقدم على رتبة مقدم .

وعند العودة الثانية رقى عميداً وصار ماركيزاً فطمع السيد « ديجليمون » فى أن يصل إلى الضيعة ، حيث يتبنى حكمة المحافظين وسياستهم ، فيحيط نفسه بالرياء الذى لا يخفى خلفه شيئاً ، ويصير رجلا خطيراً قليل الكلام مستفسراً ، وينظر إليه كرجل عميق. فإذا حصن نفسه بلا توقف بأشكال آداب التعامل المزودة بالصيغ وحفظ ترديد العبارات الجاهزة التى تصك بانتظام فى « باريس » كى يعطى الأغبياء الفكة الصغيرة منها كمعنى من معانى الأفكار الكبيرة أو الوقائع ، اشتهر لدى أهل المجتمع بأنه رجل ذوق ومعرفة . وبمجرد عناده فى آرائه الأرستقراطية يوضع فى قائمة أصحاب الطباع الحسنة . وإذا صار بالمصادفة غير عابئ أو مرح ، كما كان فى الأيام السالفة ، أن تكون سخافته وتفاهته فى

الأقوال بالنسبة إلى الآخرين مصدر إيحاءات ضمنية دبلوماسية : « أوه ! ياله من رجل لا يقول إلا ما يرمى إليه .. » هكذا كان يعتقد فيه قوم من الفضلاء . وكانت تخدمه فضائله وعيوبه على السواء ، وكلفته بسالته شهرة عسكرية عالية لا تنكر ، لأنه لم يتول قيادة رئيسية قط . وعبر وجهه الحازم النبيل عن أفكار عريضة . ولم تكن هيئته خادعة إلا فى نظر زوجته . وانتهى الماركيز عند سماعه الناس جميعاً يقرون بمواهبه المصطنعة إلى أن اقتنع هو نفسه بأنه كان واحداً من الرجال المرموقين فى البلاط حين عرف بفضل مظاهره كيف يحوز الرضا حتى صارت قيمه المختلقة مقبولة بدون معارضة .

ومهما يكن من أمر، فقد كان السيد « ديجليمون » متواضعاً فى بيته ، وأحس فيه بغريزته بعلو شأن زوجته عليه بحكم شبابها . ومن هذه الناحية غير المقصودة تولدت قوى مستورة وجدت الماركيزة نفسها مرغمة على قبولها برغم كل جهودها التى بذلتها كى تدفع عن نفسها حملها . ولما كانت سديدة النصح لزوجها فقد أدارت كل دعاواه وكل ثرواته . وكان نفوذها ذاك ضد الطبيعة ، كما كان بالنسبة إليها نوعاً من التحقير ومصدر كثير من الآلام التى دفنتها فى قلبها .

فأولا وقبل كل شىء كانت غريزتها الأنثية الرقيقة تخبرها أنه من الأجمل أن تطيع هى رجلا موهوباً بدلا من أن تقتاد غبياً ، وأن الزوجة الشابة التى تضطر إلى التفكير والعمل على نحو ما يفعل الرجل

لا تكون رجلا أو امرأة ، وتتخلى عن كل لطفها الجنسى حين تفقد شروره ، ولا تستحوذ على أى امتيازات مما أودعته القوانين فى أيدى الأقوى . لقد كان وجودها يخفى هزءاً مريراً مؤكداً . ألم تكن مضطرة إلى احترام معبود أجوف وأن تقوم هى بحماية حاميها ذلك الكائن الشقى الذى قابل إخلاصها وتفانيها المستمر له بأن ألقى إليها بحب أنانى كحب الأزواج ، وبأن رأى فيها امرأة وحسب ، فلم يتنازل ، أو لم يكن يعرف — وهى إهانة أكثر عمقاً — الاهتمام بلذائذها أو السؤال عن مصدر شقائها ودوائها .

وقد أنقذ الماركيز حبه لذاته مثل أغلب الأزواج الذين يحسون بإذلال الروح العالية بأن قاس الضعف الجسمى بضعف « جولى » المعنوى الذى كان يستحسن الشكوى منه وهو يطالب بحساب المصير الذى منحه فتاة شابة مريضة كزوجة . على أى حال كان يجعل من نفسه الضحية وهو الجلاد .

وكان على الماركيزة أن تظل تبتسم وهى محملة بكل دمامة ذلك الوجود التعيس أمام مولاها الغبى ، وأن تزين بالزهور بيتاً فى حداد وأن تلصق السعادة إعلاناً على وجه مصفر من جراء أسرار التعذيب . وقد أضفت هذه المهمة الفخرية أو هذا الإنكار الذاتى الرائع على الماركيزة الشابة شيئاً فشيئاً وقار المرأة وشعور الفضيلة اللذين كانا الوقاية من أخطار الدنيا بالنسبة إليها . ونسبر غور هذا القلب تماماً

فتجده إما أن يكون الشقاء العاطفى المكنون الذى توج حبها الأول الساذج كفتاة دفعها إلى أن تنظر إلى العشق نظرة فزع ، وإما أنها لم تكن قد أدركت الافتتان أو المتع المحظورة بل المتع الجنونية التى تنسى بعض النساء قوانين الحكمة ومبادئ الفضيلة التى يرتكز عليها المجتمع . أما وقد تخلت عن الملاطفات الحلوة والانسجام الحنون الذى وعدتها به التجربة المحنكة الخاصة بالسيدة « دى ليستومير لاندون » فلم يبق لها إلا أن تنتظر فى استسلام نهاية آلامها على أمل أن تموت شابة .

ومنذ عودتها من « التورين » أخذت صحتها فى التدهور يوما بعد يوم ، وصارت الحياة تقاس فى نظرها بالعناء ، وهو عناء ظريف علاوة على ذلك ، فالمرض يكاد يكون شهوانياً فى مظهره ، بل يمكن أن يعد فى نظر الناس السطحيين مجرد وهم شابة مفرطة اللباقة معجبة بذاتها . وقد حكم الأطباء على الماركيزة بأن تظل راقدة فوق أريكة حيث أخذت تنحف وتهزل وسط الزهور التى أحاطت بها ، وهى تذبل مثلها . وامتنعت لضعفها عن النزهة والخروج فى الهواء الطلق ، ولم تكن تخرج إلا فى عربة مقفلة . ولم تكن — وقد أحاطت نفسها دائماً بكل روائع الترف والصناعات الحديثة — أشبه بمريضة بل بملكة متكاسلة . وكان يحضر إليها بعض الأصدقاء ممن قد يعشقون شقاءها وضعفها متأكدين من وجودها دائماً بالبيت ، ومتفكرين بلاشك أيضاً فى صحتها الجيدة المستقبلة ليحملوا إليها الأخبار وليحيطوها بآلاف الأحداث الصغيرة

التى تجعل الحياة فى « باريس » كاملة التنويع . وكان اكتئابها إذن برغم خطورته وعمقه اكتئاب الرفاهية ، إذ كانت الماركيزة « ديجليمون » شبيهة بزهرة رائعة الحسن تنخرت جذورها حشرة سوداء . وترددت أحياناً على بعض الأوساط لا عن رغبة ولكن بدافع الاستجابة لدواعى الوضع الذى كان يطمح إليه زوجها . واستطاعت بحكم صوتها وبراعتها فى أداء الأغانى أن تتلقى من التصفيق ما يتملق دائماً فى الغالب امرأة شابة ولكن فيم يفيدها هذا النجاح الذى لم يكن يعزيها عن مشاعرها أو آمالها ؟

أما زوجها فلم يكن يحب الموسيقى . ولذلك كانت تشعر دائماً بالحرج فى الصالونات ، حيث كان جمالها يجذب إليها مظاهر مجاملات مغرضة . وأثار وضعها هنالك رأفة قاسية وفضولا بائساً . وأصابها التهاب مميت فى العادة مما يبقيه النساء سراً ولم تستطع علوم الاشتقاق اللغوى الحديثة أن تعثر له بعد على اسم . وعلى الرغم من الصمت الذى جعلت الحياة تتصل فى إطاره فإن سبب معاناتها لم يكن سراً بالنسبة إلى أحد . ولما كانت قد ظلت آنسة برغم زواجها فإن أقل النظرات إليها كانت تثير فيها الحياء . وكذلك كانت تتعمد لكى تتفادى الاحمرار خجلا ألا تظهر إلا ضاحكة مرحبة . كما كانت تتكلف ضرباً من الابتهاج المزيف . وتقول عن نفسها دائماً إنها فى صحة جيدة ، أو تستدرك الأسئلة عن صحتها مقدماً ببعض الأكاذيب المحتشمة .

وبرغم ذلك شاركت حادثة فى سنة ١٨١٧ مشاركة كبيرة فى تعديل الحالة المحزنة التى كانت « جولى » قد تردت فيها آنذاك ، ذلك أنها رزقت بابنة وعمدت إلى إرضاعها ، وهذه المشغوليات الشديدة ، والملاهى المليئة بالقلق التى تنشأ عن رعايات الأمومة : جعلت حياتها أقل تعاسة مدة سنتين . وتنبأ لها الأطباء بتحسن صحتها ، ولكن الماركيزة لم تعتقد إطلاقاً فى تفاؤلاتهم الافتراضية ، وربما كانت ترى فى الموت خاتمة سعيدة شأن كل الأشخاص الذين تصبح حياتهم خالية من أى حلاوة .

وفى أوائل سنة ١٨١٩ كانت الحياة فى ذروة قسوتها بالنسبة إليها ، ففى الوقت الذى هنأت نفسها فيه بعض الهناء السلبى الذى استطاعت أن تكسبه ، استشفت هوات مفزعة ، إذ كان زوجها قد أقلع عنها رويداً رويداً ، وكان هذا البرود العاطفى الذى كان من قبل فاتراً وأنانياً أنانية تامة قادراً على أن يؤدى إلى أكثر من كارثة مما كانت بصيرتها الحسامة وحكمتها تنبئانها به . وبرغم تأكدها من احتفاظها بسلطانها على « فيكتور » ومن أنها استحوذت على تقديره إلى الأبد ، أشفقت من تأثير الأهواء على مثل هذا الرجل التافه الأهوج المغرور ، وكثيراً ما كان أصدقاء « جولى » يفاجئونها مستسلمة لتأملات طويلة ، فكان قليلو الذكاء منهم يستفسرون عن السر وهم يتضاحكون ، كأن المرأة الشابة لم تكن قادرة على أن تفكر إلا فى الترق واللهو ،

وكأنه لم يكن دائماً لأفكار ربة الأسرة أى معنى عميق . وعلاوة على هذا فالشقاء مثله مثل السعادة الحقيقية فى أن كلا منهما يؤدى إلى الأحلام .

وفى إحدى المرات كانت « جولى » تلعب مع ابنتها « هيلين » فنظرت إليها نظرة مبهمة ، وكفت عن الإجابة عن أسئلتها الطفولية التى تسبب للأمهات سروراً كبيراً ، لتعود بذهنها وتحاسب مصيرها فى الحاضر والمستقبل . وبللت عينيها الدموع حين استعادت فجأة ذكرى مشهد العرض فى حدائق « التويليرى » . إذ دوت فى أذنها مرة ثانية نبوءات أبيها ، وأنبها ضميرها على أنها لم تقدر حكمته قدرها . فكل هذه المصايب قد نشأت عن عصيان أحمق ، وغالباً ما كانت تجهل أى هذه المصايب كلها كان أثقلها حملا . فلم يكن حسبها أن كنوزها الحلوة فى روحها ظلت مجهولة ، وإنما لم يمكنها قط أن تجعل نفسها مفهومة لدى زوجها حتى فى أبسط حوائج العيش ، وحينما نمت ملكتها فى الحب لديها ، وصارت أكثر قوة وأكثر حيوية اختفى الحب المباح أو الحب الزوجى وسط ألوان خطيرة من المعاناة الجسدية والمعنوية. ثم إنها كانت تشعر نحو زوجها بالرأفة الملاصقة للاحتقار الذى يذبل مع الزمن كل عاطفة .

على أى حال إذا لم تكن محادثاتها مع بعض الأصدقاء أو بعض مغامرات الأوساط الكبيرة قد علمتها أن الحب يجلب سعادة هائلة فإن الجروح قد جعلتها تخمن المتع العميقة البريئة التى توحد بين الأرواح

المتأخية .وارتسم وجه « آرثر » أو « أرتير » أبيض القلب فى لوحة ذاكرتها التى اختلطت الماضى كل يوم بشكل أكثر نقاء وأكثر جمالا ، ولكن فى لمح البصر ، لأنها لم تكن تجرؤ على التوقف عند تلك الذكرى . وكان حب الشاب الإنجليزى الصامت الخجلان هو الواقعة الوحيدة التى تركت بعض الأثر اللطيف منذ زواجها فى هذا القلب المظلم الوحيد . وكل الآمال التى خابت وكل الرغبات التى لم تتحقق مما كان بالتدريج يزيد من تعاسة فكر « جولى » كان يذكر بلعبة طبيعية من لعب الخيال بذلك الرجل الذى كانت طرائقه وعواطفه وطباعه تبدو ذات تعاطف كبير مع طرائقها وعواطفها وطباعها . غير أن هذه الفكرة كان لها دائماً مظهر النزوة أو الحلم . وبعد هذا الحلم المستحيل الذى ينتهى دائماً بالتنهدات كانت « جولى » تستيقظ وهى أشد تعاسة وتشعر بآلامها الكامنة على نحو أفضل إذا أخذت تنسيها تحت أجنحة سعادة وهمية .

وفى إحدى المرات أخذ أنينها طابع الجنون والوقاحة ، فأرادت تحقيق متعها بأى ثمن ، ولكنها بقيت برغم ذلك فريسة لا أدرى لأى خمود أبله ، تصغى بلا فهم أو تدرك الأفكار غامضة بلا تحدد ، بحيث لم تجد أى ألفاظ تستجيب بها لهذا كله . واضطرت أمام التنغيص الذى شعرت به فى إرادتها الجنون ، وفى عادات سلوكها التى كانت تحلم بها فى الزمن السالف وهى لاتزال فتاة شابة — اضطرت إزاء

ذلك كله أن تبتلع دموعها . لمن تشكو ؟ ومن ذا يسمع شكواها ؟ ثم إنها كانت تتصف بهذه الرقة الأنثوية الكبيرة وبهذا الحياء العاطفى الساحر الذى يتمثل فى إسكات الشكوى التى لا تجدى وفى عدم انتهاز الفرص عندما يكون الانتصار مذلا لكل من الهازم والمهزوم على السواء .

لقد حاولت « جولى » أن تسخر قدرتها وفضائلها الشخصية للسيد « ديجليمون » وتفاخرت بطعوم السعادة التى لم تذقها . واستخدمت كل نعومتها كامرأة فى العبث المحض بتدبيرات غير معلومة لديه حتى إنه بقى مستمراً فى طغيانه . وأحياناً كان يسكرها الشقاء ، فتصبح بغير فكر أو ضابط . ولكنها لحسن الحظ كانت ترتد دائماً إلى أمل علوى بدافع من شفقة حقيقية . فكانت تحتمى بحياة لمستقبل وباعتقاد زاهر يدفعها من جديد إلى قبول مهمتها المؤلمة . وكان صراعها مفزعاً كما كانت تمزقاتها الداخلية بلا أى مفخرة ، أو اكتئاباتها الطويلة مجهولة . إذ لم يكن ثمة إنسان واحد يتلقى نظراتها الحزينة ودموعها المرة الجارية فى وحدتها بلا تبصر ولا قصد .

وتكشفت أمام الماركيزة أخطار الموقف الحرج الذى كانت قد بلغته شيئاً فشيئاً تحت تأثير الظروف بكل أثقالها فى أثناء سهرة فى شهر يناير سنة ١٨٢٠ . وعندما يتعارف الزوجان تماماً ويعتاد كل منهما الآخر اعتياداً طويلا ، بحيث تستطيع المرأة أن تفسر أبسط حركات الرجل ، وأن تنفذ إلى المشاعر أو إلى الأشياء التى يخفيها عنها ، تلمع

غالباً بعض الأنوار المفاجئة ، وتلى أفكاراً وملاحظات سابقة ، ويكون مردها إلى الصدفة أو تصدر بطريقة بدائية بغير مبالاة ، إذ تستيقظ المرأة غالباً فجأة على حافة أو فى قاع هوة . وهكذا استنتجت الماركيزة – وهى سعيدة لوجودها بمفردها منذ بضعة أيام – سر وحدتها. فإن زوجها لعدم ثباته أو لتعبه ولكرمه أو لامتلائه بالشفقة نحوها لم يعد ينتمى إليها .

وفى تلك اللحظة لم تعد تفكر فى نفسها أو فى آلامها أو فى تضحياتها. لم تعد سوى أم تعيش حظ ابنتها ومستقبلها وسعادتها . فابنتها هى الكائن الوحيد الذى يهبها بعض الحبور .. ابنتها «هيلين» هى وحدها التى قيدتها بالحياة . الآن تريد « جولى » أن تعيش كى تقى ابنتها الهوان المخيف الذى تستطيع امرأة الأب أن تخنق حياة هذه المخلوقة العزيزة فى ظله .

وأمام هذا التقدير الجديد لمستقبل مشئوم ابتلعتها تأملات متأججة من شأنها أن تلتهم سنوات برمتها . فعلى الرغم من كل شىء لابد أن بينها وبين زوجها عالماً من الأفكار تقع أحماله عليها بمفردها . وحتى ذلك الحين كانت واثقة من حب « فيكتور » لها بقدر ما كان فى مقدوره أن يحب ، فأخلصت لسعادة لم تكن تشاركه فيها . أما اليوم فلم يعد أمامها – وقد فقدت الرضا ، لعلمها بأن دموعها كانت مصدر فرح لزوجها – إلا أن تختار الأحزان . ووسط فتور الشجاعة

التى أرخت كل قواها فى سكون الليل وصمته .. فى اللحظة التى هجرت فيها أريكتها وقد خبت نارها .. اتجهت على ضوء مصباح نحو ابنتها تتأملها بعين خالية من الدموع .. ودخل السيد « ديجليمون » مليئاً بالمرح ، فدعته « جولى » لتأمل ابنته وهى نائمة ، غير أنه قابل تهلل زوجته بعبارة مبتذلة : فى هذا السن كل الأطفال ظرفاء .

قال هذا ثم أرخى ستائر مهد ابنته بعد أن قبلها بغير مبالاة فوق جبهتها . ونظر إلى « جولى » وتناول يدها وأجلسها بالقرب منه فوق الأريكة حيث بزغ منذ قليل عدد كبير من الأفكار المشئومة ، وصاح بقوله فى مرح ثقيل اعتادت الماركيزة أن تعرف مقدار خوائه : أنت جميلة هذه الليلة ياسيدة « ديجليمون » .

سألته الماركيزة مع تظاهرها بعدم المبالاة العميقة : أين قضيت السهرة ؟

– عند السيدة « ديسيريزى » .

وأمسك بحاجب نار المدفأة الشفاف يتفحصه باهتمام دون أن يلحظ أثر الدموع التى ذرفتها زوجته . وارتجفت « جولى » . وما كانت اللغة لتكفى للتعبير عن دُفّاع الأفكار الذى أفلت من قلبها ولزمها أن تحوشه فيه .

– سوف تقيم السيدة « ديسيريزى » حفلة عزف موسيقى يوم الاثنين القادم ، وتتحرق شوقاً لكى تكونى بين مدعويها ، ويكفى أنك

لم تظهرى فى المجتمعات منذ وقت طويل حتى ترغب فى رؤيتك لديها . إنها سيدة طيبة وتحبك كثيراً ، وسأكون مسروراً بأن تحضرى وكدت أكون قد أعطيت رداً نيابة عنك ...

أجابت « جولى » : سوف أذهب .

وكان فى رنة صوت الماركيزة ولهجتها ونظرتها شىء تفاذ خاص بحيث التفت « فيكتور » إلى زوجته مستغرباً برغم عدم اهتمامه . هذا هو كل ما حدث . واستنتجت « جولى » أن السيدة « ديسبريزى » هى المرأة التى انتزعت قلب زوجها منها . واسترخت فى حلم يائس ، وبدت مشغولة جداً بتأمل النار . وأدار « فيكتور » المحجن بين أصابعه بادياً عليه قلق الرجل الذى يحمل إلى بيته تعب السعادة بعد أن كان سعيداً خارجه . وعندما هاجمه التثاؤب عدة مرات أمسك بالمصباح فى إحدى يديه وبحث باليد الأخرى بفتور عن عنق زوجته وأراد تقبيلها . ولكن « جولى » هبطت مقدمة إليه جبينها وتلقت عليها قبلة المساء .. تلك القبلة الآلية الخالية من الحب كنوع من الإرغام الذى بدا لها بغيضاً . وعندما أغلق « فيكتور » الباب انكفأت الماركيزة فوق مقعد وترنح ساقاها وسالت دموعها .

ولابد من المرور بالعذاب فى موقف مماثل لكى يفهم المرء كل ما يخفيه ذلك الموقف من آلام ، ويستنتج المآسى المرعبة الطويلة التى يؤدى إليها . هذه الأقوال البسيطة الحمقاء ، وهذا الصمت بين

الزوجين ، والحركات والنظرات ، وطريقة جلوس الماركيز أمام المدفأة ، والوضع الذى اتخذه وهو يسعى لتقبيل عنق زوجته ، كل هذا قد أدى إلى تحويل تلك اللحظة إلى خاتمة مفجعة للحياة المؤلمة الموحشة التى تعيشها « جولى » . وركعت فوق ركبتيها أمام أريكتها فى حالتها الحنونية ، ودست وجهها فى الأريكة حتى لا ترى أى شىء وتوجهت بالصلاة إلى الله معطية أقوال أدعيتها العادية لهجة عاطفية حنوناً ، ودلالة جديدة لو سمعها زوجها لفطرت قلبه .

وبقيت ثمانية أيام مشغولة بمستقبلها الذى كانت تدرسه ، وهى فريسة دقائقها ، بحثاً عن الوسائل التى تجعلها لا تخدع نفسها ، وتسترد سلطانها على الماركيز ، وتعيش مدة طويلة تسمح لها بالسهر على سعادة ابنتها . فصممت بالتالى على أن تنازل منافستها وعلى أن تعود إلى الظهور فى المجتمعات ، وأن تتألق فيها . كذلك صممت على أن تظهر كمن تحب زوجها ذلك الحب الذى لم تعد قادرة على أن تحققه له وعلى أن تأسره . ثم تتدلل عليه بعد أن تخضعه لنفوذها بهذه الطرق المصطنعة على نحو ما تفعل العشيقات من صاحبات الأهواء والنزوات حين يتلذذن بتعذيب محبيهن . وكانت هذه الحيلة الشنيعة هى الدواء الوحيد الممكن لشروره . فعلى ذلك النحو ستصبح متحكمة فى آلامها وتوجهها وفقاً لرغباتها حتى تقضى عليها مع استمرارها فى تدويخ زوجها وفى إخضاعه لاستبداد مخيف . وما كانت لتشعر بأى تأنيب

ضمير لو فرضت عليه حياة المشقة والعذاب .

وطفرة واحدة اندفعت فى ترتيبات باردة بغير اهتمام أو مبالاة .
ولكى تنقذ ابنتها خمنت فجأة كل ضروب المكر والكذب لدى
المخلوقات التى لا تحب خداع الدلال الأنثوى وحيله القطيعة مما يدفع
بالرجال إلى كراهية المرأة كراهية عميقة ، لافتراضهم أن فسادها أصيل ،
وأنها مفطورة عليه . والواقع أن زهو « جولى » الأنثوى ومصلحتها
ورغبتها المبهمة فى الثأر لنفسها كانت كلها بغير علم منها ملائمة لحبها
الأمومى كيما تنقذ منه إلى طريق تنتظرها فيه آلام جديدة . غير أن
روحها كانت عذبة وكان فكرها شديد الرقة ؛ وكانت على الخصوص
صريحة صراحة ضخمة تحول بينها وبين التوافق طويلا على هذا الغش .
ولما كانت قد اعتادت أن تراجع نفسها عند أول خطوة من خطوات
الرذيلة ، إذ كان هذا كله رذيلة ، فقد هبت صيحة ضميرها كى تخنق
أنفاس الشهوات والأنانية . ولاشك أن المرأة الشابة التى يبقى قلبها نقياً
ويظل حبها عذرياً تخضع عاطفة الأمومة نفسها لديها لصوت الحياء .
أليس الحياء هو المرأة بأكملها ؟ غير أن « جولى » لم تشأ أن تلمح
أى خطر أو أى خطأ فى هذه الحياة الجديدة . وذهبت إلى الاستقبال
الذى أعدته السيدة « ديسيريزى » وحسبت منافستها حساب أنها سوف
تأتى امرأة باهتة سقيمة ، فوضعت الماركيزة المساحيق الحمراء ، وظهرت
فى تألق حليها الذى أعطاها جمالا فوق جمال .

وكانت السيدة « ديسيريزى » واحدة من تلك النساء اللائى يزعمن
لأنفسهن فى « باريس » إمبراطورية الأزياء والمجتمع . كانت تصدر
المراسيم التى كان يخيل إليها أنها يُعمل بها عالميًا ويؤخذ بها لمجرد قبولها
فى الدائرة الخاضعة لنفوذها . وكانت تدعى التأليف ، فكانت بمثابة
الحكم الأعلى ؛ فالأدب والسياسة والرجال والنساء ... الجميع خضعوا
لرقابتها ، وبدت السيدة « ديسيريزى » كأنها تتحدى الرقابات الأخرى.
وكان بيتها نموذجاً للذوق الحسن فى كل شىء .

وانتصرت « جولى » على الكونتيسة وسط هذه الصالونات المليئة
بالنساء الأنيقات الجميلات ؛ فقد كانت « جولى » ذات روح وحياة
ونشاط دفع النخبة الممتازة من رجال السهرة إلى الالتفاف حولها .
وكانت زينتها غير منتقدة مما دفع الحاضرات إلى اليأس ، وجعلهن
جميعاً يحسدنها لتفصيلة ثوبها وشكل الصدر الذى أرجعن تأثيره عامة
إلى نبوغ معين لدى خياطة مجهولة . إذ تميل النساء إلى الاعتقاد فى
علوم النسج أكثر مما يملن إلى الاعتقاد فى ملاحة وكمال اللائى يفقنهن
فى الملامح والخلقة .

وعندما وقفت « جولى » لتتجه نحو البيانوكى تغنى أغنية (ديزدامونة)[1]
المؤثرة هرع الرجال من كل الصالونات ليصغوا إلى ذلك الصوت المشهور
الذى ظل صامتاً أمداً طويلا ، وساد بينهم صمت عميق . وأحست

(١) ضرب بلزاك هنا مثلا بكل من ماليبران وباستا من أشهر المطربات .

الماركيزة بانفعالات شديدة عندما رأت الوجوه المسرعة نحو الأبواب وكل النظرات المتعلقة بها . وبحثت عن زوجها وصوّبت نحوه نظرة مليئة بالدلال ، وتبيّن لها فى تلك اللحظة ببالغ السرور أن رضاها عن نفسها وحبها لذاتها كانا بشكل غير عادى . وسحرت المجتمعين فى أدائها للجزء الأول الخاص بالمدخل. ولم تكن أشهر المطربات قادرات على تشنيف الآذان بالأداء الغنائى قط على هذا النحو المتكامل من الإحساس والاستهلال النغمى[1] ولكنها عند عودتها الثانية إلى الغناء نظرت إلى المجموعات فلمحت « أرتير » الذى لم تكن نظراته الثابتة تفارقها ، فارتعدت بشدة وتبدل صوتها ، فاندفعت السيدة « ديسيريزى » من مكانها نحو الماركيزة : « ماذا بك يا عزيزتى ؟ أوه ! يالصغيرة المسكينة ! إنها مريضة . لقد ارتعدت لرؤيتها تؤدى شيئاً أكبر من قدراتها ... »

وتوقفت الأغنية ، ولم تجد « جولى » — مضطرة — الشجاعة للاستمرار ورضخت لرحمة منافستها الغادرة ، وتهامست النساء جميعا . وبكثرة التداول حول هذا الحادث استنتجت الحاضرات أن الصراع قد بدأ بين الماركيزة وبين السيدة « ديسيريزى » فلم يقتصدن فى الاغتياب. لقد تحققت فجأة كل المشاعر المسبقة الغريبة التى طالما أقلقت « جولى » فعندما شغلها « أرتير » ارتضت أن تعتقد أن رجلا بمثل هذا المظهر الحلو الرقيق لابد أن يظل مخلصاً لحبه الأول . وأحياناً كان يرضى

(١) من تأليف روسينى (١٧٩٢ – ١٨٦٨).

غرورها أن تكون موضوع هذه العاطفة الجميلة .. هذه العاطفة النقية الصادقة التى تصدر عن شاب تنتمى كل أفكاره إلى حبيبة قلبه ، وتتوقف كل دقائق حياته عليها . وهو فوق ذلك لا يهدف إلى مجرد التحايل ويحمر وجهه خجلا مما تحمر له خجلا وجنتا امرأة بل يفكر كما تفكر المرأة نفسها ، فلا يضع أمامها أى منافسة لها ، ويهب نفسه لها دون أن يحلم بأى طموح أو مجد أو ثروة .

كانت قد قدرت كل هذا عن « أرتير » فى جنون وشرود فكر ، ثم فجأة اعتقدت أنها شهدت تحقيق هذا التقدير أو هذا الحلم . فقد قرأت على وجه الشاب الإنجليزى المائل إلى الأنوثة تقريباً كل الأفكار العميقة وكل الاكتئابات الرقيقة والاستسلامات المؤلمة التى كانت هى نفسها ضحية لها . لقد عرفت نفسها فيه . فالشقاء والاكتئاب هما أبلغ مفسرين للحب ، ويتناظران بين كائنين متألمين فى سرعة لا تصدق. والنظرة الحنون وتلاقح الأشياء أو الأفكار عندهما تام وصحيح . بل إن عنف الصدمة التى تلقتها الماركيزة قد كشف لها عن كل أخطار المستقبل . فإن سعادتها الكبيرة بالعثور على مسوغ لاضطرابها وانتقالها من حالتها المعتادة إلى الألم قد جعلتها تستسلم عن طيب خاطر لثقل رأفة السيدة « ديسيريزى » الحاذقة. وكان توقف الأغانى حدثاً تحادث بشأنه أشخاص كثيرون على أنحاء مختلفة . فقد كان البعض يأسف لمصير « جولى » ويشتكى من فقدان المجتمع لامرأة على هذا القدر من الامتياز . وكان

الآخرون يريدون معرفة سبب هذه الآلام وسبب العزلة التى صارت تعيش فيها .

وقال الماركيز لشقيق السيدة « ديسيريزى » : هيه ، والآن ياعزيزى « رونكيرول » لقد كنت تحسد سعادتى عند رؤيتك لسيدة « ديجليمون » وكنت تؤاخذنى على عدم وفائى لها ؟ هاك إذن ، وسوف تجد مصيرى شيئاً لا أغبط عليه لو بقيت مثلى إلى جوار زوجة جميلة مدة سنة أو سنتين بغير أن تجرؤ على تقبيل يدها خشية خدشها وتكسيرها . فلا تتحير أبداً أمام هذه الحلى الرقيقة التى لا تصلح إلا من وراء لوح زجاج والتى تفرض علينا هشاشتها ونفاستها معاً احترامها دوماً . هل تطلق أنت فرسك الجميل الذى تخشى عليه — كما قيل لى — تحت المطر المنهمر والثليج ؟ تلك قصتى . من المحقق أننى واثق من فضيلة زوجتى ، ولكن زواجى نوع من الترف ، ومن الخطأ أن تحسبنى متزوجاً . وهكذا تكون خياناتى مشروعة بشكل من الأشكال . ولكم وددت أن أعرف كيف كنتم تتصرفون فى مكانى أيها السادة الضاحكون ؟ وما كان الكثيرون من الرجال ليبلغوا درجة التحفظ والتحرز التى بلغتها فيما يتعلق بزوجتى .

وأضاف الماركيز بصوت منخفض بل إننى متأكد أن السيدة « ديجليمون » ليس لديها أدنى شك . ومن المؤكد أيضاً أننى مخطئ جداً فى شكواى ، وأننى غاية فى السعادة ... غير أنه لا شىء يضايق

الإنسان الحساس أكثر من أن يرى مخلوقاً مسكيناً تعلّق به يتعذب ... »

أجاب السيد دى رونكيرول : « فأنت إذن ذوحساسية كبيرة لأنك قليلا ما توجد فى بيتك » .

فأثارت هذه العبارة اللاذعة غير العدائية كل المستمعين . غير أن « أرتير » بقى جامداً ثابت الجنان كرجل مهذب اتخذ الجدية أساساً لطبعه . ولقد أدت أقوال الزوج الغريبة بلا شك إلى التماس بعض الآمال لدى الشاب الإنجليزى الذى انتظر صابراً لحظة انفراده وحده بالسيد « ديجليمون » حتى واتته المناسبة بعد قليل ، فقال له : سيدى إننى أتألم ألماً بالغاً لمرأى حالة السيدة الماركيزة ، وأعتقد أنك ما كنت لتمزح فيما يتعلق بآلامها لو كنت تعلم أنها قد تموت موتاً تعيساً لخطأ فى نظامها الخاص . وإذا كنت أتكلم معك على هذا النحو فعلى أساس أن تثق من قدرتى على إنقاذ السيدة « ديجليمون » وعلى ردها إلى الحياة وإلى السعادة تبيح لى ذلك . ومن غير الطبيعى أن يصبح رجل فى مثل رتبتى طبيباً ... وعلى الرغم من ذلك شاءت الصدفة أن أقوم بدراسة الطب . والواقع أننى غير مرتاح (قال هذا وهو يتكلف نوعاً من الأنانية الباردة التى تخدم أغراضه) لأن أرى نفسى غير مهتم ببذل وقتى ورحلاتى فى سبيل مريض يتألم بدلا من إرضاء بعض نزواتى الخيالية البلهاء . والشفاء من هذه الأنواع من المرض نادر لأنه يستلزم كثيراً جداً من العناية والوقت والصبر . ومن الضرورى خصوصاً

توافر المال والرحلات ومتابعة التعليمات التى تتغير من يوم إلى آخر والتى لا تتسم بالإكراه بدقة متناهية . ونحن الاثنان رجلان من علية القوم (قال ذلك وهو يضغط على هذه الكلمة بمعنى الجنتلمانية الإنجليزية) ونستطيع التفاهم . وأخطرك بأنك إذا قبلت هذا العرض فستكون فى كل لحظة صاحب الحكم على سلوكى . ولن أشرع فى شىء دون استشارتك وبغير ملاحظتك . وأؤكد لك النجاح إذا وافقت على أن تطيعنى . نعم .. أى إذا شئت أن تكف أثناء مدة طويلة عن أن تكون زوج السيدة « ديجليمون » (هكذا قال له فى أذنه) .

قال الماركيز ضاحكاً : « من المؤكد يا سيدى اللورد أن إنجليزياً هو الذى يستطيع أن يعرض على مثل هذا الاقتراح الغريب . واسمح لى بألا أرفضه وبألا أؤيده . سأفكر فى الأمر . ثم إنه لابد أن يعرض قبل كل شىء على زوجتى » .

وفى تلك اللحظة ظهرت « جولى » مرة أخرى على البيانو . وغنت لحن « سميراميس » ومملكتها وحروبها[1] . وكان التصفيق الإجماعى ، أو التصفيق الأصم إن صح هذا التعبير ، والهتافات المهذبة الخاصة بحى (سان جيرمان) دليلا على الحماس الذى استثارته .

وبمجرد عودة « ديجليمون » فى صحبة زوجته إلى قصرهما استطاعت « جولى » أن تلحظ بشىء من السرور المشوب سرعة نجاح محاولاتها .

(١) من تأليف روسينى أيضاً الذى اشتهر بالأوبرا ابتداء من سنة ١٨١٠ .

فكأنما استيقظ زوجها من سباته تحت تأثير الدور الذى لعبته منذ قليل ، وأراد تبجيلها بإحدى النزوات ، فتناولها بشغف ورغبة كما لو كان مع إحدى الممثلات . ولم تستنكر « جولى » معاملتها على ذلك النحو برغم كونها زوجة فاضلة . وبادرت إلى التلاعب بكل قواها ؛ وفى أول النزال دفعها طيبها إلى أن تخسر مرة أخرى غير أن تلك المرة كانت أشد الدروس التى تلقتها هولا من بين كل ما امتلأ به مصيرها .

ففى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً كانت « جولى » فى جلستها قائمة حالمة فى سرير الزوجية ، وقد أضاء الغرفة إضاءة خفيفة مصباح ذو وهج ضعيف ، وساد صمت عميق . وأخذت الماركيزة منذ حوالى الساعة — وقد استسلمت لوخزات تبكيت الضمير — تذرف دموعاً لا تعرف مرارتها سوى النساء اللائى عشن فى مثل موقفها . وكان ينبغى أن يكون للمرء روح كروح « جولى » كى يشعر مثلها بالاشمئزاز من التقارب والتلامس المحسوب بقدر ، ولكى تجد نفسها مغموسة من جراء قبلة فاترة ، فذاك جمود فى القلب زادت وطأته بفعل غباء مؤلم . وشعرت بوضاعة نفسها ، ولعنت الزواج ، وودت لو أنها ماتت ، ولولا صيحة بكاء طفلتها حينذاك لكانت قد عجلت بإلقاء نفسها من الشباك إلى أرض الطريق . وكان السيد « ديجليمون » نائماً بجوارها فى هدوء دون أن توقظه الدموع الدافئة التى تركتها زوجته تتساقط عليه .

وظهرت « جولى » فى اليوم التالى مبتهجة ، وأعانتها قواها على أن تبدو سعيدة ، وعلى أن تخفى ، لا اكتئابها وحسب ، بل إهانة واشمئزازاً لا يقاومان . فمنذ ذلك اليوم صارت تنظر إلى نفسها كامرأة لا لوم عليها ولا تثريب . ألم تكذب على نفسها ؟ فكانت منذ ذلك الوقت قادرة على الرياء ؟ وعلى أن تمعن فيها بعد إمعاناً مذهلاً فى الذنوب الزوجية ؟

لقد كان زواجها سبب هذه الدعارة « القبْلية » أى « الفطرية » التى لم تلق ما تباشر نفسها فيه أو ما تتحقق فى أدائه وبرغم ذلك تساءلت سلفاً عن سبب مقاومتها لعاشق تحبه ، حين كانت تهب نفسها لزوج بغيض ، معارضة بذلك قلبها ودعاء الطبيعة . ولعل كل الأخطاء والجرائم إنما تقوم على مبدأ من الاستدلال السيئ أو من بعض مبالغات الأنانية . ولا تستطيع المجتمعات أن تقوم إلا على التضحيات الفردية التى تفرضها القوانين . ألا يعنى قبول فوائدها الالتزام بالمحافظة على شروطها التى تدفع إلى دوامها ؟

والواقع أن الأشقياء الذين لا يجدون الخبز والذين يضطرون إلى احترام الملكيات لا يستحقون الرثاء والعطف أكثر من النساء المجروحات فى رغباتهن وميولهن وفى رهافة طبيعتهن .

وبعد ذلك المشهد بأيام .. ذلك المشهد الذى دفنت أسراره فى سرير الزوجية .. قدم السيد « ديجليمون » لورد « جرينفيل » إلى زوجته ، واستقبلت « جولى » « أرتير » فى أدب خال من الحرارة بحيث

أرضت رياءها ، وفرضت الصمت على قلبها اكتفاء بعينيها ، وجعلت صوتها ثابتاً ، واستطاعت بذلك أن تظل سيدة مستقبلها . ثم بعد أن تعرفت السيدة « ديجليمون » بوسائلها الفطرية التى تتميز بها النساء عادة ، إن صح هذا التعبير على مدى الحب الذى أوحته ، ابتسمت للأمل فى شفاء سريع ، ولم تعارض بمقاومة إرادة زوجها الذى اعتسف من أجل قبولها أن تصبح فى رعاية الطبيب الشاب . وعلى الرغم من ذلك لم تشأ أن تطمئن إلى اللورد « جرنيفيل » إلا بعد أن درست أقواله وطرائقه كى تتأكد من أنه سيكون من الأريحية بحيث يعانى فى صمت . وكان لها عليه أكبر سيطرة وبدأت سلفاً تستفيد من ذلك . أليست امرأة ؟

و« مونكونتو » اسم قصر إقطاعى قديم قائم على إحدى الصخور الذهبية اللون التى يمر تحتها نهر « اللوار » على بعد قليل من الموقع الذى توقفت فيه « جولى » سنة ١٨١٤ . إنه واحد من تلك القصور الصغيرة فى مقاطعة « التورين » البيضاء الجميلة ذات الأبراج المليئة بالتماثيل والمطرزة كنسيج « الدنتيلا » من صنع « مالين » أو أحد هذه القصور اللطيفة الأنيقة التى اتخذت مكانها فى مياه النهر بجملة غاباتها الصغيرة من شجر التوت ومن الكروم وطرقها المحفورة ودرابزيناتها الطويلة البارزة وكهوفها الصخرية وأغطيتها من اللبلاب ومنحدراتها الوعرة . وكانت أسقف سطوح قصر « مونكونتو » تتلألأ تحت أشعة الشمس كما كان

كل شيء هنالك مضطرماً . ويثير ملامح الشاعرية في تلك المزرعة الساحرة ما يقرب من ألف أثر من آثار إسبانيا وبقاياها : أشجار «الورال» الذهبية والزهور «ذات الجريس» التي تملأ بروائحها النسيم ، والهواء رقيق الملامسة ، كما أن الأرض تبتسم في كل مكان ، وتحيط بالروح في كل مكان أيضاً رقى سحرية حلوة ، فتجعلها كسولا عاشقة وترخيها وتهدهدها . ومن طبيعة هذا الإقليم الجميل الحلو أن ينيم الأوجاع ويوقظ الشهوات ، فلا يبقى أحد بارداً تحت هذه السماء النقية وأمام هذه المياه البراقة . وهنالك يختنق كل طموح ، ويرقد المرء وسط سعادة هادئة تماماً ، كما تغرب الشمس كل مساء في أقمطة ولفائف أرجوانية وزرقاء .

في ليلة رقيقة من ليالي شهر أغسطس سنة ١٨٢١ كان شخصان يتسلقان الطرق المملوءة بالأحجار التي تمرق في الصخور المقام فوقها القصر . وكان الشخصان يتجهان نحو المرتفعات كي يتأملا بإعجاب بلا شك مناحي النظر العديدة التي يمكن اكتشافها هنالك . وكان هذان الشخصان هما «جولي» ولورد «جرينفيل» ولكن «جولي» هذه قد صارت تبدو كما لو كانت امرأة جديدة ، وكانت الماركيزة تتمتع بألوان الصحة الزاهية ، وكانت عيناها اللتان أحييتهما قوة خصبة تلمعان خلال ضباب رطب أشبه بالسائل الذي يعطي عيون الأطفال مفاتن لا تقاوم ؛ وكانت تبتسم ملء شفتيها ، وبدت سعيدة بالحياة ، وقد أدركت

كنهها وكان من السهل أن يرى المرء من طريقتها في رفع قدميها الظريفين أنه لا يثقل حركاتها البسيطة ، ولا يضني نظراتها أو أقوالها أو إشاراتها أي ألم على نحو ما كان في الماضي . بل كانت «جولي» هذه تشبه تحت مظلتها الحريرية البيضاء التي حمتها من أشعة الشمس الحامية عروساً في غلالتها أو عذراء مستعدة إلى الاستسلام لنشوات الحب .

واستطاع «أرثر» أن يقودها بعناية العاشق ، وأن يرشدها كما ترشد الطفل ، فيوجهها نحو أفضل الطرق ، ويساعدها على تفادي الأحجار ، ثم يريها منظراً بين تلال ، أو يصحبها أمام زهرة . وهو إذ يفعل ذلك ، يحركه دائماً شعور مستمر بالطيبة ، وقصد رقيق ، ومعرفة حنون بعيش تلك المرأة الرغيد ، كأنها مشاعر فطرية عنده تناسب ، وقد تزيد قليلا ، على حركة وجوده الخاص الضروري . ومضت المريضة وطبيبها متعادلي الخطوات ، دون أن يستغربا توافقاً بدا كما لو كان قد وجد منذ أول يوم صارا يمشيان فيه جنباً إلى جنب . فهما يطيعان نفس الإرادة ، ويتوقفان بانطباعات عين الإحساسات ، وتجاوبت نظراتهما وأقوالهما مع أفكارهما المتبادلة .

وعندما بلغا كلاهما أعلى الكرمة أرادا أن يستريحا على أحد هذه الأحجار الطويلة البيضاء التي تبرز باستمرار من كهوف مفتوحة في الصخر ، غير أن «جولي» نظرت إلى الموقع تتأمله قبل أن تجلس هنالك .

قالت « جولى » : هذا الإقليم رائع فلننصب خيمة ولنقم ها هنا .
يا « فيكتور » هلم إذن . هلم إذن !

وأجاب السيد « ديجليمون » من المنخفض بصيحة رجال الصيد دون أن يسرع الخطو ، ولكنه اكتفى بالنظر نحو زوجته من وقت لآخر كلما سمحت له بذلك انعطافات الطريق الضيق . واستنشقت « جولى » الهواء بلذة فى أثناء رفع رأسها ، وهى تلقى إلى « أرتير » بإحدى نظراتها الدقيقة التى تقول بها النساء الذكيات كل أفكارهن .

عادت «جولى» تتكلم: أوه ! كم أود أن أبقى هنا دائماً. هل يمكن أن يتعب المرء من تأمل هذا الوادى الجميل ؟ هل تعرف اسم هذا النهر الجميل ياسيدى اللورد ؟

— هذا نهر « الشير » .

— نهر « الشير» وهنالك أمامنا . . . ما ذاك ؟

تلك تلال نهر « الشير»

— وإلى اليمين ؟ آه ! هذه مدينة « تور » . ما أروع ذلك الأثر الذى تحدثه عن بعد أبراج أجراس الكاتدرائيات .

ثم صمتت وتركت يدها التى كانت قد مدتها نحو المدينة تهبط فوق يد « أرتير » وتأمل كلاهما بإعجاب صامت ذلك المنظر وتلك الطبيعة ذات الروائع المنسجمة . وتم التوافق التام بين همس المياه ونقاوة الهواء

وصفاء السماء ، وبين الأفكار التى خطرت مزدحمة فى قلبيهما العاشقين الشابين .

— أوه ! يا إلهى ، كم ذا أحب هذا الإقليم .

قالت « جولى » بعد برهة صمت ، وفى حماس ساذج متزايد « هل عشت فيه طويلا ؟ »

ارتعد لورد « جرينفيل » عند سماع هذه الكلمات وأجاب باكتئاب وهو يشير إلى حزمة من أشجار الجوز ، على حافة الطريق : « هنالك كنت أسيراً ورأيتك لأول مرة .. » .

— نعم . ولكننى كنت حزينة جداً وبدت لى هذه الطبيعة موحشة . أما الآن ...

وسكتت فلم يجرؤ لورد « جرينفيل » على أن ينظر إليها .

قالت « جولى » فى النهاية بعد صمت طويل : « يرجع إليك الفضل فى هذا الاستمتاع . أليس من الضرورى أن يكون المرء حياً كى يجد كل هذه المتع فى الحياة ، أو لم أكن سوى ميتة بالنسبة إلى كل شىء حتى الآن ؟ لقد وهبتنى أكثر من الصحة إذ علمتنى كيف أشعر بقيمتها ...

وللنساء مواهب لا مثيل لها فى تعبيرهن عن مشاعرهن دون استخدام أقوال كثيرة عالية الرنين ، فبلاغتهن تسرى فى اللهجة خصوصاً وفى الحركة والوضع والنظرات ، وأخفى اللورد «جرينفيل» رأسه بين يديه لأن

الدموع تدحرجت فى عينيه . وكان هذا الشكر أول شكر تؤديه « جولى » له منذ ارتحالها عن « باريس » وقد عالج الماركيزة منذ سنة كاملة بإخلاص وتفان كاملين . أيده « ديجليمون » فصحبها إلى مياه « إكس » ثم إلى شواطئ البحر من ناحية « الروشيل » وظل يترقب فى كل لحظة التغيرات التى أحدثتها أوامره الحصيفة البسيطة فى بناء « جولى » البدنى المتهدم، كما ظل يتعهدها كما يتعهد البستانى المشغوف زهرة نادرة . وعمدت الماركيزة . إلى تلقى عناية « أرتير » الواعية بكل أنانية المرأة الباريسية التى اعتادت التكريم والاحترام .. أو تلقتها بلا مبالاة مثل لا مبالاة سيدة البلاط التى لا تعرف قدر الأشياء أو قيم الرجال ، وتأخذهم وفقاً لدرجة الفائدة العائدة عليها منهم . ومن الأشياء الجديرة بالملاحظة التأثير الذى تحدثه الأماكن فى الروح . وإذا كان الاكتئاب يتملكنا دون أن يخطئ الهدف عندما نكون على شواطئ البحار ، فإن قانوناً آخر من قوانين طبيعتنا الانطباعية يؤدى إلى تنقية عواطفنا فوق الجبال . ذلك أن الشهوة تستولى هنالك استيلاء عميقاً على ما تبدو كأنها تفقده من حيث النشاط .

وأشاع مشهد حوض « اللوار » الفسيح وارتفاع التل البديع الذى كان العاشقان يجلسان فوقه فى نفسيهما هدوءاً لذيذاً ذاقا خلاله أول الأمر تلك السعادة التى يحسها العشاق فى تخمين أبعاد العواطف القوية التى تختفى وراء أقوال ليس فى مظهرها دلالة خاصة .

وما إن ختمت « جولى » عبارتها التى حركت انفعالات لورد « جرينفيل » تحريكاً قوياً حتى هزت نسمة محاقة قمة الأشجار ، وأشاعت نضارة المياه فى الهواء ، وحجبت بعض السحب الشمس، وأتاحت بعض الظلال اللينة رؤية كل روائع تلك الطبيعة البديعة . وأدارت « جولى » رأسها كى تخفى عن اللورد الشاب منظر الدموع التى نجحت فى حبسها وتجفيفها ، لأن حنو « أرتير » تملكها بسرعة خاطفة ، ولم تجرؤ على أن ترفع عينيها نحوه خوفاً من أن يقرأ فرحة كبيرة فى نظرتها . وأشعرتها غريزتها كامرأة بأنه من الضرورى فى تلك اللحظة الخطرة أن تدفن حبها فى قاع قلبها . وبرغم ذلك يستطيع الصمت أيضاً أن يكون رهيباً .

وعندما تنبهت « جولى » إلى أن اللورد « جرينفيل » كان فى حالة لا تسمح له بنطق قول واحد عاودت كلامها بصوت عذب قائلة :

«لقد تأثرت بما قلته لك يا سيدى اللورد . ولعل إظهار أسرار القلب فيما يشبه الصياح هو الطريقة التى تتخذها روح لطيفة وطيبة مثل روحك عندما تتراجع عن حكم خاطئ . لقد اعتقدت أننى جاحدة للجميل عندما رأيتنى باردة محتفظة أو ساخرة وفاترة الحس فى أثناء هذه الرحلة التى سرعان ما سوف تنتهى لحسن الحظ . وما كنت جديرة بتقبل عنايتك لو لم أكن قادرة على تقديرها . إننى لم أنس شيئاً ياسيدى اللورد . وا أسفاه ! ولن أنسى شيئاً ... لا الاهتمام الذى بذلته فى

السهر على كاهتمام أم رءوم بابنها . ولا الثقة النبيلة على الخصوص فى محادثاتنا الأخوية ورقة إجراءاتك . وكلها إغراءات نجد أنفسنا جميعاً أمامها بلا أسلحة . ياسيدى اللورد إنه أكبر من طاقتى أن أكافئك .. »

وعند قولها ذاك ابتعدت « جولى » بقوة ، ولم يقم لورد « جرينفيل » بأى حركة لوقفها . واتجهت الماركيزة نحو صخرة على بعد يسيط . وبقيت هنالك ساكنة . وكانت انفعالاتهما سراً بينهما ؛ ولاشك أنهما كانا يبكيان صامتين . ولعل زقزقة العصافير المرحة المتزايدة المعبرة تعبيراً رقيقاً عن غروب الشمس كانت سبباً فى زيادة تأثرهما الشديد العنيف الذى أرغمهما على التباعد . وأخذت الطبيعة على عاتقها أن تعبر لهما عن الحب الذى لم يجرؤا على الكلام عنه .

قالت « جولى » مرة أخرى وهى تقف أمامه فى وضع ملىء بالاحترام سمح لها بأن تمسك يد « أرتير » : هيه ، حسن يا سيدى اللورد .. سوف أطلب منك أن تجعل الحياة التى أعدتها إلىّ نقية طاهرة . وهنا سوف نفترق . أنا أعرف!...

ثم قالت وهى ترى وجه لورد « جرينفيل » يصفرّ : إنه مكافأة لك على تضحيتك سأفرض عليك أيضاً تضحية أكبر من تلك التى كان علىّ أن أعترف بها أكثر من سواها ... ولكن يجب ... لن تبقى فى فرنسا أليس فى طلب هذا منك إعطاؤك من الحقوق ما سوف يصبح مقدساً ؟ ثم وضعت يد الرجل الشاب فوق قلبها السريع الضربات .

قال « أرتير » وهو ينهض من مكانه : « فعلا » .

وأشار فى تلك اللحظة إلى « ديجليمون » الذى كان يمسك بابنته بين ذراعيه ، وقد ظهر من الناحية الأخرى من الطريق المحفور المجاور لدرابزين القصر ، وكان قد تسلقه خصصاً ليجعل ابنته الصغيرة « هيلين » تقفز من فوقه .

— « جولى » لن أحدثك عن حبى ، فروحانا تفهم إحداهما الأخرى أكثر مما يلزم . وأيًّا تكن أعماق أو أسرار اللذائذ قلبى ومتعه فقد شاركتنى فيها جميعاً . إننى أحس هذا الحب وأعرفه وأراه . والآن أتسلم الدليل الجميل المذاق على تعاطف قلبينا تعاطفاً دائماً ، ولكننى أولى الأدبار .. لقد حسبت عدة مرات ببراعة وسائل قتل ذلك الرجل كيما أستطيع أن أقاوم قتله دائماً إذا بقيت إلى جوارك .

— لقد خطرت فى ذهنى عين الفكرة . قالت ذلك وعلى وجهها المضطرب تبدو علامات الدهشة الأليمة .

ولكنها كانت ذات فضيلة جمة ، ويقين شديد بنفسها ، وانتصارات عديدة أحرزتها على الحب سراً فى اللهجة والحركة اللتين بدرتا منها ، حتى ظل لورد « جرينفيل » مأخوذاً بالإعجاب ؛ فقد كان ظل الجريمة نفسه قد تلاشى فى ذلك الضمير الساذج . وسيطرت عاطفة دينية على ذلك الجبين الرائع الحسن ، فاستطاعت أن تطرد منها دائماً الأفكار الخبيثة غير الإرادية التى تولدها عادة طبيعتنا

القاصرة ، وتدل برغم ذلك على عظمة مصيرنا وأخطاره .

وعندئذ كنت سأتعرض لاحتقارك . ولكنه صار منقذى .

وعاد يقول وهو يخفض عينيه : « أليس فقدان تقديرك هو الموت بعينه ؟ »

وظل هذان العاشقان البطوليان صامتين بعض الوقت أيضاً وبقيا مشغولين بالتهام أوجاعهما الحسنة والسيئة على السواء ، وكانت أفكارهما بإخلاص عين الأفكار عند كل منهما ، ولعلهما كانا يتفاهمان فى متعهما الذاتية تماماً على نحو ما يتفاهمان فى أكثر آلامهما خفاء .

قالت وهى ترفع عينيها المليئتين بالدموع نحو السماء : « لا ينبغى أن أهمس . وشقائى فى حياتى هو بعض ما يخصنى » .

صاح اللواء من مكانه وهو يقوم ببعض الحركات : ياسيدى اللورد : لقد التقينا فى هذا المكان نفسه لأول مرة ، وقد لا تذكر أنت ذلك . هناك فى المنحدر بالقرب من أشجار الحور «تلك» .

وأجاب الإنجليزى بإمالة مفاجئة من رأسه .

وقالت « جولى » لقد كان ينبغى لى أن أموت شابة شقية . نعم ؛ إذ يجب ألا تعتقد أننى أعيش . وسوف يكون الحزن مميتاً بنفس درجة المرض اللعين الذى شفيتنى منه . ولا أرى نفسى مذنبة . لا .. فالعواطف التى حملتها لك لا تقاوم ولا تفنى ، ولكنها غير إرادية بالمرة ، وأود البقاء عفيفة . وبرغم ذلك سأظل مخلصة لضميرى كزوجة ،

ولواجباتى كأم ، وكذلك لأمنيات قلبى . اصغ إلىّ .

وقالت « جولى » ذلك له بصوت مضطرب : « لن أعود أنتمى إلى ذلك الرجل بحال » وأشارت إلى زوجها فى حركة مخيفة من الفزع الممزوج بالصدق . واستمرت تقول :

– تفرض على قوانين المجتمع أن أجعل وجوده سعيداً وسوف أطيع ذلك . سأكون خادمته . وستكون تضحيتى من أجله غير محدودة بحدود . غير أنى سأكون أرملة منذ اليوم . ولا أريد أن أكون عاهرة فى نظر نفسى أو فى نظر المجتمع . وإذا لم أعد أنتمى إلى السيد « ديجليمون » فلن أنتمى أبداً إلى سواه . ولن تحظى أنت بأكثر مما انتزعته منى . وهذا قرار اتخذته على نفسى . قالت ذلك وهى تنظر إلى « أرتير » فى خيلاء . واستطردت : وهو قرار لا رجعة فيه ياسيدى اللورد . والآن أعلم أنك إذا استسلمت لفكرة إجرامية فسوف تدخل أرملة السيد« ديجليمون » الدير فى إيطاليا أو فى إسبانيا . لقد شاء سوء الحظ أن نتحدث عن غرامنا . ولعل هذه الاعتراضات كانت فى حكم المقدور . ولما كان ذلك لآخر مرة فقد اهتزت قلوبنا اهتزازاً شديداً . لسوف تتظاهر غداً بتلقى رسالة تستدعيك إلى إنجلترا وسنفترق على ألا نلتقى .

وبرغم ذلك فقد أحست « جولى » بعد أن أرهقها المجهود بركبتيها تنثنيان.. وتملكها برد قاتل وجلست بدافع من فكرة نسائية بحتة كيما تتفادى الارتماء فى أحضان « أرتير » .

صاح لورد « جرينفيل » : « جولى » .

ودوّت هذه الصيحة النافذة كانفجار الرعد . وباحت تلك الصرخة الممزقة بكل مالم يقله العاشق الذى ظل صامتاً حتى آنئذ .

سأل اللواء : « هيه .. إذن ... ماذا بها ؟ »

وعند سماع هذه الصرخة أسرع الماركيز الخطو . ووجد نفسه فجأة أمام العاشقين .

قالت « جولى » : وهى محتفظة بالدم البارد على نحو رائع مما تسمح نعومة النساء الطبيعية لهن به فى أغلب أوقات الأزمات العصيبة فى الحياة : « لا شىء فى الأمر .. لقد كادت نضارة شجرة الجوز هذه تفقدنى الوعى مما أرعب طبيبى المعالج خوفاً . ألست بالنسبة إليه مثل العمل الفنى الذى لم يكتمل بعد ؟ لقد ارتعد أمام رؤيته يتهدم ... »

واستندت فى جرأة إلى ذراع لورد « جرينفيل » وابتسمت إلى زوجها ونظرت إلى المنظر قبل أن تغادر قمة الصخور وجذبت رفيق رحلتها وهى تأخذ بيده .

قالت « جولى » : هاك بالتأكيد أجمل موقع رأيناه . ولن أنساه إطلاقاً . انظر إذن يا « فيكتور » أى أبعاد مترامية ، وأى مساحات شاسعة ، وأى تنوع واختلاف . هذا الإقليم يجعلنى أفهم الحب .

وصدرت منها ضحكة تكاد تكون متشنجة ، ولكنها استوفت أداءها حتى تخدع زوجها ، وقفزت تعدو بمرح فى الطرق المحفورة واختفت .

قالت وقد ابتعدت عن السيد « ديجايمون » : « هيه .. ماذا ؟ .. الآن ؟ هيه .. ماذا يا صديقى ؟ بعد لحظة لا نكون نحن أنفسنا ولن نصبح أنفسنا إطلاقاً . أى أننا لن نعيش بعد اليوم .. »

أجاب لورد « جرينفيل » : « هيا ببطء فالعربات لاتزال على مبعدة من هنا ، سوف نمشى معاً . وإذا كان مباحاً لنا أن نبث نظراتنا بعض أقوالنا فسوف تحيا قلوبنا لحظة أطول ... »

وذهبا يتنزهان فوق السد على حافة الماء فى آخر النهار صامتين تقريباً لا ينطقان إلا بعبارات مبهمة حلوة كهمس مياه نهر « اللوار » ولكنها تحرك النفوس . وعندما غابت الشمس لفتهما جميعاً فى انعكاساتها الحمراء قبل أن تزول كصورة أسيانة لحبهما المقدور .

وتخوف اللواء من عدم العثور على العربة فى المكان الذى كانت واقفة فيه ، فتبع العاشقين أو سبقهما دون أن يتدخل فى محادثتهما . وقد حطم سلوك اللورد « جرينفيل » النبيل الرقيق الذى احتفظ به خلال الرحلة كل وساوس الماركيز وشكوكه فترك زوجته حرة منذ بعض الوقت واثقاً من حسن النية لدى الطبيب اللورد . ومضت « جولى » و « أرثر » وجعلا يمشيان فى ظل الاتفاق الحزين المؤلم بين قلبيهما الذابلين . ومنذ هنيهة حين كانا يصعدان خلال المنحدر الوعر لقصر « مونكونتور » كان لديهما أمل غامض مبهم وسعادة مشفقة ولم يكونا يجرؤان على الاستفسار عن مؤداها . أما وقد عادا يهبطان على

طول السد فقد قلبا البناء الواهى الذى شيده خيالهما . ولم يعودا يجرؤان على إظهاره مثل الأطفال الذين يتوقعون سلفاً سقوط القصور التى يقيمونها من الورق المقوى . كانا بغير أمل . وفى نفس الليلة رحل لورد « جرينفيل » . وأثبتت آخر نظرة ألقى بها نحو « جولى » لسوء الحظ أنه كان على حق فى التحرز من نفسه منذ اللحظة التى بدأ التعاطف يكشف لهما مدى العشق الخارق الذى كان يكمن فى قلبيهما .

وحينما جلس السيد « ديجليمون » وزوجته فى اليوم التالى فى داخل العربة بغير رفيق رحلتهما ، وأخذا يشقان الطريق فى سرعة ، تذكرت « جولى » الرحلة التى قطعتها مع الماركيز سنة ١٨١٤ ، عندما كانت لا تزال تجهل الحب . وكادت تلعن استمراره حينذاك فى فؤادها ثم تدافعت آلاف الانطباعات المنسية . فالقلب له ذاكرته الخاصة به . ومثل تلك المرأة التى لا تقوى على تذكر الأحداث الجسام سوف تتذكر طول حياتها أشياء تهم عواطفها . كذلك كانت « جولى » تتذكر التفصيلات التافهة تذكراً كاملا ، وتعرفت بسعادة على أبسط الأحداث التى اعترضت رحلتها الأولى إلى حد تذكرها بعض الأفكار التى خطرت على بالها عند مواقع معينة فى الطريق .

ولما كان « فيكتور » قد عاد يعشق زوجته بشغف منذ استردت نضارة شبابها وكل جمالها ، فقد جاء يدنو منها على طريقة المحبين . وبمجرد سعيه لأخذها بين ذراعيه انسحبت برقة وتعللت بأى عذر

لكى تتحاشى تلك الملامسة البريئة . ثم سرعان ما اشمأزت من الاحتكاك به برغم أنها كانت تحس بحرارته وتشارك فيها بحكم الطريقة التى جلسا بها . وأرادت أن تجلس بمفردها فى مقدم العربة فأبدى زوجها كرماً وتركها وحدها فى أقصى العربة ، وشكرته لهذا الالتفات فى تنهد لم يرعه انتباها . وفى آخر النهار اضطرها « فاتن » الحرس العسكرى ذاك إلى أن تتحدث معه بثبات أرهبه بعد أن كان قد راح يفسر اكتئابها فى مصلحته .

وقالت له : « يا صديقى ، لقد كدت أن تقتلنى سلفاً . وأنت تعرف ذلك . وإذا كنت الآن فتاة شابة بلا تجربة فى استطاعتى أن أبدأ من جديد التضحية بحياتى . ولكننى أم الآن . ولدى ابنة يجب أن أربيها وأدين لها بقدر ما أدين لك . فلنخضع لسوء حظ أصابنا معاً بالتساوى . وأنت صاحب النصيب الأقل من الرثاء لك . ألم تعرف كيف تجد عزاءك وتسليتك ، فى حين أن واجبى ، وشرفنا المشترك . والطبيعة فوق ذلك كله تحرّمه علىّ . ثم أضافت : وعلى فكرة لقد نسيت بطيش منك ثلاث رسائل من السيدة « ديسيريزى » فى الدرج . ها هى ذى . وإذا كان صمتى يثبت لك شيئاً فهو دليل على أن لك فى شخصى زوجة مليئة بالتسامح ولا تفرض عليك التضحيات التى يفرضها القانون عليها . غير أننى فكرت بما فيه الكفاية حتى تحققت من أن دورينا مختلفان ، وأن المرأة وحدها مقسوم عليها بالشقاء . وتقوم عفتى على مبادئ محددة وثابتة .

وسأعرف كيف أعيش بغير انتقاد، فلا أقل من أن تدعنى أعيش » .

حار الماركيز من المنطق الذى تعرف النساء دراسته فيما يتعلق بوضوح الحب وقد قسعته تلك الكرامة التى تبدو طبيعية لديهن فى مثل هذه الأنواع من الأزمات . ومن أجمل الأشياء عند النساء ذلك النفور الغريزى الذى أظهرته « جولى » نحو كل ما أساء إلى حبها أو إلى أمنيات قلبها والذى قد ينشأ عادة من فضيلة طبيعية لن تسكتها القوانين أو المدنية .

ولكن من ذا يجرؤ على تأنيب النساء ؟ ألسن يشبهن القساوسة بغير عقيدة حين يفرضن الصمت على العاطفة الهائلة التى لا تسمح لهن بالانتماء إلى رجلين ؟ إذا كانت بعض النفوس القاسية تعاتب ذلك النوع من « الاتفاق » أو العهد الذى أخذته « جولى » على نفسها بين واجباتها وحبها فقد ترى فيه الأرواح العاطفية الوهى جريمة . إذ أن الإنكار العام يتهم الشقاء الذى ينتظر عدم الطاعة للقوانين ، كما يتهم العيوب المؤسفة فى الأنظمة التى تقوم عليها المجتمعات الأوربية .

ومضى عامان عاش فيها السيد والسيدة « ديجليمون » حياة أهل المجتمع فيخرج كل منهما منفرداً ويلتقيان فى الصالونات أغلب ما يلتقيان لا فى البيت . وذلك هو نوع الطلاق الرشيق الذى ينتهى إليه الكثير من زيجات المجتمع العالى . وفى إحدى السهرات التقى الزوج وزوجته فى صالون بيتهما على غير العادة . إذ كانت السيدة «ديجليمون»

قد دعت إحدى صديقاتها إلى العشاء . وبقى اللواء فى بيته فى تلك الليلة برغم عشائه الدائم فى الخارج .

— سيدتى الماركيزة سوف تكونين سعيدة .

قال السيد « ديجليمون » ذلك وهو يضع فنجان القهوة الذى شربه قبل قليل فوق المائدة . ونظر الماركيز إلى السيدة « ديوعفين » معبراً عن الخبث والحزن بقدر متساو ثم أضاف :

« سوف أرحل فى رحلة صيد طويلة فى صحبة قائد الصيد بالكلاب . وستعيشين أرملة تماماً على الأقل أثناء ثمانية أيام ، وهذا هو ما تتمنينه فيما أعتقد ... »

ثم قال للخادم الذى جاء يحمل الفناجين : « يا جيبوم » ، هيا علّق الحيوانات بالعربات .

أما السيدة « ديوعفين » فهى « لويزا » التى أرادت السيدة « ديجليمون » قديماً أن تنصحها بالعزوبة . وتبادلت المرأتان نظرة واعية أثبتت أن « جولى » قد وجدت فى صديقتها الشخص الذى تثق به وتسر إليه بكل أدوائها . وهى موضع ثقة ثمين عطوف ، لأن السيدة « ديوعفين » كانت سعيدة جداً فى زواجها . ولعل حظ إحداهما السعيد فى مثل هذا الموقف المتعارض الذى كانتا فيه ، صار مصدر ضمان لتضحيتها بالنسبة إلى تعاسة الأخرى . فى مثل هذه الحالة يكون عدم التشابه فى المصاير فى الغالب رابطة قوية من روابط الصداقة .

قالت « جولى » وهى تلقى نظرة غير عابئة إلى زوجها : « وهل هذا هو فصل الصيد ؟ »

كان ذلك فى أواخر شهر مارس ...

– سيدتى إن قائد الصيد بالكلاب يصطاد فى أى زمان وأى مكان يريد . ولسوف نذهب إلى الغابة الملكية نصيد الخنازير الوحشية .

احتط لنفسك حتى لا يصيبك شىء ما . .

قال وهو يبتسم : إن سوء الطالع غير متوقع دائماً .

قال « جييوم » : « عربة السيد جاهزة » .

فنهض اللواء ، وقبل يد السيدة « ديوتمفين » ثم استدار نحو « جولى » وقال فى حالة استعطاف :

– سيدتى إذا ضعت ضحية خنزير وحشى !

سألت السيدة « ديوتمفين » ماذا يعنى ذلك ؟ .

قالت السيدة « ديجليسون » « لفيكتور » : هيا تعال . ثم ابتسمت كما لو كانت تقول « للويزا » سوف ترين .

ومدت « جولى » رقبتها نحو زوجها الذى تقدم لتقبيلها . ولكن لم تلبث أن تحركت فانزلقت القبلة الزوجية فوق شريط زينة الحرملة .

قال الماركيز وهو يوجه كلامه إلى السيدة « ديوتمفين » : سوف تشهدين على ذلك أمام الله إذ يلزمنى فرمان من أجل الحصول على هذا

الإنعام الطفيف . وهذا هو مما تعنيه زوجتى بالحب . لقد ساقتنى إلى ذاك بحيلة لا أدريها . تمنياتى السعيدة .

وخرج .

صاحت « لويزا » عندما صارت المرأتان على انفراد : « ولكن زوجك المسكين طيب حقيقة .. إنه يحبك » .

– أوه . لا تضيفى إلى كلمة الحب من الأوصاف ما يحيله إلى معنى آخر . فأسمى ما يشعر به يدفعنى إلى الاشمئزاز .

قالت « لويزا » : نعم ولكن « فيكتور » يطيعك طاعة عمياء .

قالت « جولى » : مرجع طاعته فى الغالب إلى الإعزاز الكبير الذى أوحيت به إليه . ذلك أنى امرأة فاضلة جداً حسب القوانين ، وأجعل بيته محبباً ، وأغمض عينى عن دسائسه . ولا أنقص شيئاً من ثروته . فهو يستطيع أن يبعثر دخوله كما يشاء ، وأنا أعنى فقط بالمحافظة على رأس المال . وهذا هو ثمن الهدوء وراحة البال . وهو لا يشرح لنفسه أو لا يريد أن يشرح لنفسه وجودى . ولكننى إذا كنت أمضى مع زوجى على هذا النحو فلا يخلو ذلك من آثار تهيج طباعه . فأنا أشبه مروّض الدب الذى يرتعد من أن تتحطم الكمامة يوماً من الأيام . وإذا كان « فيكتور » يعتقد أن له الحق فى ألا يشعر بالإعزاز نحوى فلا أكاد أجرؤ على التنبؤ بما يمكن أن يحدث . إذ أنه عنيف ملىء بحب الذات وبالغرور على الأخص ، ولو لم يكن ذا فكر دقيق بما فيه الكفاية .

كى يقف موقفاً حكيماً فى ظروف حرجة ، عندما تتعرض رغباته السيئة للعبث ، لعمد إلى قتلى مؤقتاً ، لأنه ضعيف الطباع ، ولو مات هو نفسه حزناً فى اليوم التالى . ولكن هذا الحظ المقدور لا خوف منه .

وسادت لحظة صمت انتقل فيها فكر الصديقتين إلى السبب المجهول لهذا الموقف . ثم استطردت « جولى » وهى تلقى نظرة حزم نحو « لويزا » : « لقد أطعت فى قسوة . ولكننى برغم ذلك لم أمنعه « هو » من أن يراسلنى آه ! لقد نسينى « هو » وله فى ذلك حق . لقد كان مصيره سيتحطم بأشأم الأحداث ! أليس يكفى ما حدث بمصيرى ؟ هل تصدقين يا عزيزتى أننى أطالع الصحف الإنجليزية يومياً على أمل وحيد هو أن أقع على اسمه مطبوعاً . هيه ! أليس غريباً ألا يكون اسمه قد ظهر بعد فى مجلس اللوردات .

— أنت تعرفين الإنجليزية إذن ؟

— لم أكن قد بحت لك بذلك ! لقد تعلمتها .

صاحت « لويزا » وهى تمسك بيد « جولى » : مسكينتى الصغيرة .. ولكن كيف تستطيعين أن تظلى على قيد الحياة ؟ .

أجابت الماركيزة وقد أفلتت منها حركة ساذجة تكاد تبلغ حد الطفولة : هذا سر فاصغى إلى . إننى أتناول الأفيون . قصة حياة الدوقة « دى .. » فى لندن أعطتنى الفكرة . وأنت تعرفين أن « ماتيران » قد ألف عنها رواية طويلة . ولكن قطرات « لوداتوم » أى « صبغة الأفيون »

ضعيفة جداً ، إذ أننى أنام وحسب ، ولا أظل مستيقظة سوى سبع ساعات أهبها كلها لابنتى . . »

وتأملت « لويزا » نار المدفأة دون أن تجرؤ على أن تنظر إلى صديقتها التى كان شقاؤها يتزايد فى عينيها لأول مرة .

وقالت « جولى » عقب لحظة صامتة : « لويزا » احفظى لى سرى .

وفجأة أحضر خادم خطاباً إلى الماركيزة ..

صاحت « جولى » مصفرة الوجه : « آه » !

قالت السيدة «ديوبمفين» : لن أستفسر عن المرسل . وراحت الماركيزة تقرأ ولم تعد تسمع شيئاً . وشهدت صاحبتها أشد المشاعر حيوية وأكثر التبجيل خطراً ، وهى ترتسم كلها على وجه السيدة « ديجليمون » التى كانت تحمر وتصفر دوراً بعد دور . وأخيراً ألقت «جولى» بالورق إلى النار .

— هذا الخطاب مثير . أوه ؟ قلبى يختنق .

ونهضت وأخذت تمشى وعيناها تومضان .

صاحت « جولى » إنه لم يغادر باريس .

وكان حديثها مرتجاً بلا نسق بحيث لم تجرؤ السيدة « ديوبمفين » على أن تقاطعها ، بل مكث حديثها متقطعاً تتخلله فترات صمت مخيفة . وكانت العبارات تصدر خلال كل توقف عن فمها بلهجة أكثر فأكثر عمقاً . كما أن الألفاظ الأخيرة كانت تتسم بطابع مفزع .

— إنه لم يكف عن رؤيتي دون علمي. نظرة من نظراتي الحائرة كل يوم تعينه على الحياة . أنت لا تعرفين يا « لويزا » إنه يموت ويطلب أن يودعني . ويعرف أن زوجي قد تغيب عن البيت هذه الليلة لعدة أيام ، وسيأتي بعد لحظة . أوه ! لسوف أضيع بسبب ذلك لقد ضعت ابقي معي . أمام امرأتين لن يجرؤ! أوه ! امكثي فأنا أخشى نفسي .

أجابت السيدة « ديويمفين » : « ولكن زوجي يعلم أنني تناولت العشاء في بيتك ، ولابد أن يحضر ليصحبني » .

— إذن سأكون قد صرفته قبل رحيلك . سوف أكون الجلاد بالنسبة إلينا نحن الاثنين . وا أسفاه سوف يعتقد أنني لم أعد أحبه . هذه الرسالة ! عزيزتي .. لقد احتوت تلك الرسالة على عبارات أراها الآن مكتوبة في خطوط من نار .

وخطرت عربة أمام الباب .

صاحت الماركيزة في نوع من البهجة : آه ! لقد جاء علناً وبغير خفاء .

— صاح الخادم : لورد « جرينفيل »

بقيت الماركيزة واقفة ساكتة . وبمجرد رؤيتها « أرثير » أصفر اللون نحيفاً شاحباً لم تعد القسوة ممكنة حياله . وبرغم أن لورد « جرينفيل » قد أحس باستياء عنيف لرؤية « جولى » في غير انفراد ظهر هادئاً بارداً . أما بالنسبة إلى هاتين المرأتين الملمتين بأسرار حبه فقد كانت

هيئته ورنة صوته وتعبير نظراته في مثل القوة التي تُعزى إلى آلات الانفجار الحربي . وبقيت الماركيزة والسيدة « ديويمفين » كمخبولتين تحت تأثير الشعور المتبادل الصارخ بالألم المروع . وكانت رنة صوت لورد « جرينفيل » تدفع السيدة « ديجليمون » إلى الاختلاج القاسي . حتى إنها لم تجرؤ على أن تجيبه خوفاً من أن تكشف له عن مدى تأثيره وسيطرته عليها . ولم يجرؤ لورد « جرينفيل » على تأمل « جولى » بحيث أخذت السيدة « ديويمفين » على عاتقها وحدها مهمة المحادثة الخالية من أية أهمية . وشكرتها « جولى » على نجدتها لها بأن بعثت إليها بنظرة مطبوعة بالاعتراف المؤثر بالجميل .

وعلى ذلك فرض العاشقان الصمت على مشاعرهما ، وكان لازما أن يستمسكا في داخل الحدود التي تعينها الواجبات واللياقات . ولكن سرعان ما أعلن حضور السيد « ديويمفين » . وعند دخوله تبادلت الصديقتان نظرة . وفهمتا دون كلام صعوبات الموقف الجديدة . وقد كان من المستحيل إطلاع السيد « ديويمفين » على سر هذه المأساة ، ولم يكن لدى « لويزا » مبررات ذات قيمة كي تقدمها إلى زوجها لو طلبت إليه البقاء مع صديقتها . ولم تكد السيدة « ديويمفين » تلبس الشال حتى نهضت « جولى » كأنها تساعدها على ربطه ، وقالت بصوت خفيض : « سأجد الشجاعة. مادام قد جاء علناً عندي فما الذي أخشاه ؟ ولولاك لسقطت عند قدميه منذ أول لحظة لمرآه المتغير » .

ثم قالت السيدة « ديجليمون » فى صوت مرتجف ، وهى تعود لتأخذ مكانها فوق تحت بجلوس شخصين لم يجرؤ اللورد « جرينفيل » على المجيء للجلوس عليه : ماذا إذن يا « أرتير » ؟ إنك لم تطعنى .

— لم أستطع مقاومة متعة الاستمتاع إلى صوتك ومتعة البقاء إلى جوارك مدة أطول . لقد كان ذلك نوعاً من الجنون أو الخرف . لم أعد سيّد نفسى . لقد شاورت نفسى جيداً وعرفت أننى أضعف مما ينبغى إذ يجب أن أموت . ولكن الموت بغير أن أكون قد رأيتك ، وبغير أن أكون قد استمعت إلى ارتعاش ثوبك واقتطفت دموعك .. أى موت هو ذلك ! » .

وأراد الابتعاد عن « جولى » ولكن حركته المفاجئة أدت إلى سقوط مسدس من جيبه . ونظرت الماركيزة إلى هذا السلاح نظرة لم تعبر عن العشق أو الفكر . والتقط لورد « جرينفيل » مسدسه ، وظهر كأنه قد استاء بقسوة من حادث يمكن أن يؤخذ على أنه مساومة غرامية .

سألت « جولى » : « أرتير ! » .

أجاب « أرتير » وهو يخفض من عينيه : « سيدتى ، لقد جئت مليئاً باليأس وأردت .. » ثم توقف ..

صاحت : « أردت أن تنتحر فى بيتى » .

قال بصوت رفيق : « ليس بمفردى » .

— إيه ! ماذا ! من المحتمل زوجى أيضاً ؟

صاح بصوت مخنوق : « لا .. لا .. ولكن اطمئنى » . وعاد يقول : لقد اختنق مشروعى المقدور . بمجرد دخولى إلى هنا ، وعندما رأيتك أحسست بالشجاعة على أن أصمت وعلى أن أموت وحدى .

ونهضت « جولى » وألقت بنفسها بين ذراعى « أرتير » الذى استطاع أن يتبين ، برغم شهيق عشيقته بالبكاء ، قولين مليئين بالعشق . قالت « جولى » : أن يعرف المرء السعادة ثم يموت ... إيه ، بل نعم ! .

وكانت كل قصة « جولى » مركزة فى هذه الصيحة العميقة : صيحة الطبيعة والحب الذى تذعن له المرأة غير المتدينة . وأمسك بها « أرتير » وحملها فوق الأريكة بحركة ذات طابع العنف الذى تدفع إليه السعادة غير المنتظرة . ولكن الماركيزة انتزعت نفسها فجأة من ذراعى حبيبها ، وقذفته بنظرة ثابتة من امرأة يائسة ، وأخذته من يده ، وأمسكت بمصباح وقادته إلى غرفة النوم . ثم بلغت السرير الذى تنام فوقه « هيلين » فدفعت ستائره وكشفت غطاء ابنتها برقة . وهى تضع يدها أمام الشمعة حتى لا يضايق الضوء جفون الابنة الصغيرة الشموقة نصف المقفلة . وكانت ذراعا « هيلين » مفتوحتين . كما كانت تبتسم وهى نائمة . وبنظرة أشارت « جولى » إلى طفلتها أمام لورد « جرينفيل » وكان كل شىء فى تلك النظرة .

— أما الزوج فنستطيع أن نهجره ، حتى ولو أحببنا . فالرجل كائن قوى يستطيع أن يجد عزاءات كبيرة ، وتستطيع أن نحتقر قوانين

المجتمع . أما الطفل بغير أم ... !

كانت كل هذه الأفكار وآلاف أخرى أكثر حنواً فى تلك النظرة .

قال الإنجليزى وهو يبتسم : « نستطيع أن نحملها معنا .. وسوف أحبها كثيراً ... »

صاحت « هيلين » مستيقظة : « ماما ! »

و بمجرد سماعها ذرفت « جولى » الدموع . وجلس لورد « جرينفيل » صامتاً حزيناً بذراعيه مضمومتين إلى صدره فى تقاطع .

« ماما » ! هذا الطلب الحلو الساذج أيقظ كثيراً من المشاعر النبيلة ، وكثيراً من التعاطفات التى لا تقاوم . بحيث انسحق الحب لحظة أمام صوت الأمومة القوى . إذ لم تعد « جولى » امرأة ، وإنما صارت أماً . ولم يقاوم لورد « جرينفيل » طويلا إذ انتصرت عليه دموع « جولى » .

وفى تلك اللحظة انفتح أحد الأبواب بعنف محدثاً ضجة كبيرة ، ودوت هذه الألفاظ كدوى الرعد فى قلب العاشقين ! هل أنت هنا يا سيدة « ديجليمون » ؟

فقد عاد الماركيز . وقبل أن تستطيع « جولى » استعادة الدم البارد كان اللواء يتجه من غرفته نحو غرفة زوجته ، فقد كانت الغرفتان متلاصقتين . ولحسن الحظ أشارت « جولى » إلى لورد « جرينفيل »

الذى ألقى بنفسه فى مقصورة المياه . وأوصدت الماركيزة بابها بإحكام .

قال « فيكتور » : هايا زوجتى .. هأنذا . إننا لم نقم بمشروع الصيد ، وسأذهب للنوم .

قالت هى : « عم مساء ، وسأفعل مثلك ، وعلى ذلك دعنى أستبدل ملابسى » .

— تبدين خشنة الليلة . سمعاً وطاعة يا سيدتى الماركيزة .

وعاد الماركيز إلى غرفته ، وصحبته « جولى » كى تغلق الباب الموصل واندفعت لتخليص اللورد « جرينفيل » واستعادت رباطة جأشها وحضور ذهنها ، ففكرت فى أن زيارة طبيبها القديم لها طبيعية تماماً . وكان فى إمكانها أن تتركه فى الصالون كى تحضر لتشرف على نوم ابنتها . وذهبت لتطلب منه التوجه إلى هنالك بلا ضوضاء . ولكنها لم تكد تفتح باب المقصورة حتى صرخت مدوية . إذ كانت أصابع لورد « جرينفيل » قد انحشرت فى فرضة الباب فهرستها .

سألها زوجها : « إيه ! ماذا بك إذن ؟ »

— لا شيء ، لا شيء ... لقد شكتنى دبوس فى أصبعى .

وفجأة انفتح باب الاتصال . وظنت الماركيزة أن زوجها جاء خصيصاً من أجلها ، ولعنت ذلك الاهتمام ... فلم يخلق القلب عبثاً . ولم تكد تجد الوقت لإقفال مقصورة المياه ولم يكن لورد « جرينفيل » قد سحب يده بعد . وظهر اللواء مرة أخرى فى الواقع . غير أن الماركيزة

أخطأت إذ كان قد قدم نحوها بسبب «مسائل شخصية خاصة به .

— هل لك فى أن تعيرينى منديلا ؟ إن « شارل » ذاك لغريب .
فهو يمضى دون أن يترك لى منديلا واحداً للرأس . فى أيام زواجنا الأولى كنت تتدخلين فى أعمالى برعاية دقيقة إلى درجة مضايقتى . آه إن شهر العسل لم يدم طويلا بالنسبة إلىّ ولا بالنسبة إلى أربطة عنقى . والآن صرت تحت رحمة سلطة مدنية خاصة بهؤلاء الناس الذين يسخرون جميعاً منى .

— خذ . هاك منديل . ألم تمر بالصالون ؟

— لا .

— كان يمكن أن تلتقى هناك بلورد « جرينفيل » .

— أهو موجود بباريس ؟

— يبدو هذا .

— أوه ! سأذهب إلى هناك . هذا الطبيب الطيب .

صاحت « جولى » : ولكن لعله رحل الآن .

وكان الماركيز حينذاك فى وسط غرفة زوجته قد غطى رأسه بالمنديل ، وهو ينظر إلى نفسه فى المرآة بإعجاب ورضى .

— لا أدرى أين هم شغالة البيت ؟ لقد دققت الجرس « لشارل » ثلاث مرات ولم يحضر . أنت أيضاً إذن بدون الخادمة ؟ دقى لها الجرس لأنى أود الليلة غطاء إضافياً لسريرى .

أجابت الماركيزة بجفاف : لقد ذهبت « بولين » للنزهة .

— فى منتصف الليل !

— لقد أذنت لها بالذهاب إلى الأوبرا .

قال الزوج وهو يخلع ملابسه : هذا شىء فريد !.. لقد خيل إلى أننى رأيتها عند صعودى السلم .

قالت « جولى » وهى تتكلف عدم الصبر : « لقد عادت إذن بلا شك »

ثم لكى تتحاشى المركيزة إيقاظ أى شك لدى زوجها سحبت حبل الجرس شداً خفيفاً .

ولم تعرف أحداث تلك الليلة تماماً . ولكن لاشك أنها كانت جميعها غاية فى البساطة ، وغاية فى الشناعة ، على نحو ما كانت عليه الأحداث المبتذلة البيتية السابقة .

وفى اليوم التالى رقدت الماركيزة « ديجليمون » فى سريرها جملة أيام .
سأل السيد «ديرونكرول» السيد « ديجليمون » بعد أيام قليلة من ليلة الكوارث : ما الحدث الغريب الذى وقع ببيتك حتى يتحدث المجتمع كله عن زوجتك ؟

قال « ديجليمون » : صدقنى .. وابق عزباً . لقد أمسكت النار بستائر السرير الذى كانت تنام فيه « هيلين » وفجعت زوجتى للحدث حتى أصابها مرض يستغرق عاماً كاملا حسب إشارة الطبيب . . تتزوج

من امرأة جميلة فتصير قبيحة . وتتزوج فتاة مليئة بالصحة . فتتحول إلى صاحبة نقاهة . وتعتقد أنها شديدة الولع فإذا بها باردة . أو أنها باردة فى المظهر ثم تكون فى الحقيقة شهوانية بحيث تقتلك أو تزرى بشرفك . أحياناً تصير المخلوقة الشديدة الرقة مخلوقة ذات أهواء ، ولن تكون ذات الأهواء رقيقة بحال . وأحياناً تبسط الطفلة ، التى اخترتها حمقاء ضعيفة ، ضدك إرادة من حديد أو روح شيطان. لقد تعبت من الزواج » .

— أو من زوجتك .

— هذا صعب . بالمناسبة ، هل تحب أن تحضر معى إلى كنيسة القديس « توما الإكوينى » لمشاهدة دفن لورد « جرينفيل » ؟

قال ديرونكرول : هذه فرصة فريدة لإضاعة الوقت . ولكن هل عرف سبب وفاته على وجه التحديد ؟

— زعم خادمه أنه بقى ليلة بأكملها على الإفريز الخارجى من الشباك إنقاذاً لشرف عشيقته ، وكان الليل بارداً برداً قارساً هذه الأيام !

— هذه التضحية كانت تصير محلّ تقدير كبير لدينا نحن المدربين أيضاً ، غير أن لورد « جرينفيل » شاب و .. إنجليزى . هؤلاء الإنجليز يريدون دائماً التفرد فى كل شىء .

— أجاب « ديجليمون » على أى حال تتوقف ملامح البطولة على المرأة التى توحى بها ، ومن المؤكد أن « أرثير » المسكين لم يمت من أجل زوجتى ! .

٢
آلام مجهولة

يمتد فيما بين نهر « اللوان » الصغير ونهر « السين » سهل فسيح تحفه غابة « فونتنيلوه » وثلاث مدن هى « موريه » و « نيمور » و « مونتيروه » ولا يرى البصر فى ذلك الإقليم المجدب سوى تلال نادرة . وترى أحياناً وسط الحقول بعض الجذور الخشبية التى تأوى إليها طرائد الصيد ، ثم ترى فى كل مكان تلك الخطوط المحدودة الرمادية أو الصفراء الخاصة بآفاق « سولونى » و « بوس » و « بيرى » . ويرى المسافر وسط ذلك السهل بين « موريه » و « مونتيروه » قصراً قديماً اسمه « سان لانج » الذى لا تخلو منافذ الوصول إليه من عظمة وجلال . إنها كلها من المتنزهات الرائعة ذات شجر الدردار على الجانبين ، وذات الحفيرات والحوائط الطويلة حول الأحواش ، والحدائق الشاسعة ، والمبانى الواسعة الخاصة « بالأشراف » التى احتاجت فى بنائها إلى جباية الضرائب غير القانونية ، وكذلك إلى ثمرات المزارع العامة ، وسرقات وكيل الخزانة لمال الحكومة المشروعة . أو الثروات الضخمة الأرستقراطية التى هدمتها الآن مطرقة القانون المدنى . فإذا تاه بعض الفنانين ،

أو بعض الخاملين مصادفة في الطرق ذات آثار العجلات العميقة أو الأراضي الصلدة التي تحمى مدخل الإقليم ، فإنه يتساءل عن النزوة التي دفعت إلى الإلقاء بهذا القصر الشاعرى إلى تلك السهول المحشوشبة بالقمح ، وتلك الصحراء المليئة بالطباشير والسجيل والرمال ، حيث يموت المرح ، وتنشأ التعاسة حتما ، وتتعب الروح بلا توقف بسبب العزلة التي لا يمتزج بها صوت ، والآفاق الرتيبة ، والمظاهر السلبية للجمال ، وإن كانت مناسبة للآلام التي لا تطمع في عزاء .

وجاءت امرأة شابة اشتهرت في « باريس » بلطفها وحسنها وروحها ، وكانت ذات وضع اجتماعي وثروة متناسبتين مع شهرتها العريضة ، جاءت تقيم ، مثيرة اندهاشاً كبيراً ، في القرية الصغيرة الواقعة على بعد ميل تقريباً من « سان لانج » في حوالى آخر سنة ١٨٢٠ . ولم يكن المزارعون والفلاحون قد شهدوا أى « سادة » بالقصر منذ أجيال لا تذكر . ولو أن محصول الأرض كان وفيراً فإن الأرض قد تركت في رعاية وكيل أعمال ، وفي حراسة « أجراء » قدماء . وأثارت رحلة السيدة الماركيزة نوعاً من القلق في الإقليم ، واجتمع أشخاص عديدون عند طرف القرية في فناء فندق ردىء واقع عند مفترق طرق « نيمور » و« موريه » كي يشهدوا مرور المركبة المتباطئة ، لأن الماركيزة جاءت من (باريس) بخيولها وفي مقدم المركبة كانت الخادمة تمسك فتاة صغيرة أميل إلى الأحلام منها إلى الابتسام ، في حين كانت الأم تجلس مضطجعة في داخل

العربة مثل محتضر في النزع الأخير أرسله الأطباء إلى الريف . ولم يحجب محيا تلك المرأة الشابة الرقيقة المتوعك دهاة القرية الذين رأوا في وصولها إلى « سان لانج » أملا في حركة ما بالمقاطعة . ومن المؤكد أن كل نوع من الحركة كان غير أثير كما هو ظاهر لدى تلك المرأة المصابة بالأوجاع .

وأعلن أكبر شيوخ القرية في (سان لانج) مساء بالملهى الليلى في ركن الحانة التي يقدم فيها الوجهاء على الشراب ، أن مظهر التعاسة المطبوع على سمات وجه السيدة الماركيزة هو دليل على أنها أصيبت بالإفلاس . إذ تغيب السيد الماركيز بناء على تعيينه — كما أشارت الصحف — مرافقاً للدوق « دانجوليم » في إسبانيا . وعليها أن توفر في أثناء بقائها في « سان لانج » المبالغ الضرورية للوفاء بالفروق المعزوة إلى مضاربات خاطئة بالبورصة . فقدكان الماركيز أحد كبار المضاربين ، وقد تباع الأرض حصصها صغيرة ، وسيكون ثمة فرص طيبة لمن يشاء . ولعل كل مستمع قد شرع يفكر في حصر دراهمه . وفي سحبها من مخبئها ، وتعداد ممتلكاته ، حتى يكون له نصيبه من حطام « سان لانج » وبدا ذلك المستقبل جميلا إلى الحد الذى دفع كل وجيه من الوجهاء إلى التشوق لمعرفة واقع الأمر والتفكير في وسائل الإلمام بالحقيقة عن طريق العاملين في القصر . غير أنه لم يكن في إمكان أى واحد منهم أن يلقى أى أضواء على تلك الكارثة التي قادت سيدتهم إلى قصرها



امرأة فى الثلاثين

العتيق فى « سان لانج » فى مطلع الشتاء ، فى حين أنها تملك أراضى أخرى معروفة ببهجة معالمها وجمال حدائقها . وجاء السيد عمدة القرية ، لتقديم تحياته واحتراماته إلى السيدة ، ولكنه لم يقابلها . وجاء الوكيل بعد العمدة ، وقدم نفسه ، ولكن حظه لم يزد شيئاً على حظ الأول .

ولم تكن السيدة الماركيزة تخرج من غرفتها إلا لكى يقوموا بترتيبها . وفى الانتظار تبقى داخل صالون صغير مجاور كانت تتناول فيه العشاء ، إذا صح تسمية الجلوس إلى المائدة والنظر إلى ما عليها من طعام فى قرف ، ثم تناول القدر الضرورى منه على وجه التحديد ، كى لا تقضى جوعاً ... عشاء . وبعد ذلك ترجع فى الحال إلى مقعد قديم مبطن بوسادة حيث تجلس منذ الصباح فى كوة الشباك الوحيد الذى كان ينير الغرفة . ولم تكن ترى ابنتها إلا فى أثناء اللحظات القصار التى تتناول فيها عشاءها المكروب . وحتى لحظات رؤيتها تلك كانت تدفعها فيما يبدو إلى معاناة الألم .

أليس من الضرورى أن تشعر امرأة شابة بآلام خارقة كى تخرس فيها عاطفة الأمومة ؟

ولم يوفق أحد هؤلاء الناس فى التقرب إليها ، وكانت خادمتها الشخص الوحيد الذى تقبل منه الخدمات . وفرضت صمتاً مطلقاً على القصر ، بحيث كان على ابنتها أن تلعب بعيداً عنها . وكان يصعب عليها أن تتحمل أقل ضوضاء ، حتى صار أى صوت إنسانى ـ بما فى ذلك صوت

طفلتها مصدر حزن مقيت بالنسبة إليها . وشغل أهل الإقليم أنفسهم بأحداثها الغريبة ، ولكن عندما استنفدت كل الافتراضات الممكنة لم يعد أهل المدن الصغيرة المجاورة أو الفلاحون يفكرون إطلاقاً فى تلك المرأة المريضة .

واستطاعت الماركيزة ، وقد خلت إلى نفسها ، أن تمكث إذن صامتة تماماً وسط الصمت الذى ضربته حول نفسها . ولم تجد فرصة إطلاقاً كى تغادر الغرفة المغطاة بالسجاد ، حيث ماتت جدتها ، وحيث جاءت هى لتموت موتاً رقيقاً بلا شهود وبلا مزعجات ، وبدون أن تعانى مظاهر الأنانية الزائفة المحلاة بالعاطفة التى تجعل موت الأموات فى المدن مزدوجاً .

كانت هذه المرأة فى السادسة والعشرين من عمرها . وتستعذب الروح عادة— وهى لاتزال مليئة بأوهام شاعرية — أن تستطعم الموت عندما يبدو لها نافعاً مفيداً ، غير أن للموت دلالا بالنسبة إلى الشباب ؛ إذ يقدم الموت ويتراجع ، ويظهر ثم يختفى ، حتى يصبح إبطاؤه سبباً فى زوال أوهامه . بل يؤدى ما بعد الموت إلى عدم اليقين ، وينتهى إلى أنه يلقى بهم إلى العالم حيث يلتقون بالألم . وهو أقل شفقة من الموت فيضربهم دون أن يترك لهم فرصة انتظاره . والواقع أن هذه المرأة التى حرمت نفسها الحياة ، كانت فى طريقها إلى تجربة مرارة ذلك التوانى فى أعماق العزلة ، وإلى أن تتلقى فيها — فى أثناء فترة احتضار خانق

لا يقضى عليها الموت — درساً قاسياً فى الأنانية يخلع منها القلب ويشكلها حسب المجتمع .

وينشأ هذا الدرس التعليمى القاسى الحزين عن آلامنا الأولى . ولعل الماركيزة قد تألمت ، وعانت حقيقة للمرة الأولى والوحيدة فى حياتها . أليس من الخطأ حقيقة الاعتقاد بأن مشاعرنا تتوالد ؟ ألا تظل بمجرد تفريغها موجودة فى قاع القلب؟ فتسكن وتصحو حسب أحداث الحياة، وتبقى كامنة فيه بحيث تؤثر إقامتها على الروح بالضرورة . وعلى ذلك يخص كل شعور بيوم كبير واحد ، هو يوم عاصفته الأولى الطويل إلى حد ما . ولا يكون أكثر الآلام ثباتاً من بين مشاعرنا قوياً إلا فى هجمته الأولى ، على حين تواصل إصاباته الأخرى سيرها آخذة فى الضعف ، إما بسبب تعودنا أزماته ، وإما بسبب أحد قوانين طبيعتنا التى تسعى إلى البقاء ، فتعارض تلك القوة الهدامة بقوة مساوية مدفونة فى حالة سكون فى تدبيرات الأنانية . ولكن إلى أى نوع من أنواع تلك الآلام ينتمى اسم هذا الألم ؟

لقد أعدت الطبيعة الناس لحزن فقدان الوالدين فى حين يعد الألم العضوى عابراً ولا يلحق بالروح ، وإذا دام فليس هو بالألم ، وإنما هو الموت . وعندما تفقد امرأة شابة مولودها سرعان ما يعطيها حب الزوجية مولوداً آخر . وهذه الآلام وأخرى غيرها مشابهة هى ضربات وجروح بشكل ما ، ولكن ليس من بينها ما يصيب الحيوية فى جوهرها ،

ولا بد من أن تتتابع هذه الآلام بشكل عجيب ، كيما تقتل الشعور الذى يحثنا على البحث عن السعادة . فالألم الحقيقى الكبير لابد أن يكون إذن داء فتاكاً إلى حد ما كى يعانق الماضى والحاضر والمستقبل معاً ، ولا يدع أى جزء من أجزاء الحياة فى تكامله ، ويغير معالم الفكر إلى الأبد ، ويرتسم على الدوام فوق الشفاه وفوق الجبين حتى يحطم أو يرخى نوابض اللذة بأن يغرس فى الروح مبدأ القرف من كل شىء فى الحياة ؛ ولابد أن يحدث هذا الألم كى يستكمل ضخامته ، وكى يثقل على الروح والجسد . لابد أن يحدث فى لحظة من لحظات الحياة عندما تكون كل قوى الروح والجسد لاتزال شابة ، أن يصعق القلب فى ريعانه ، وعندئذ يشق الألم ندباً كبيراً . إذ أن المعاناة شاقة ، ولا يكاد يفلت أحد من هذا المرض دون تغيير شعرى فنى . فإما أن يأخذ طريق السماء ، أو يبقى ها هنا أرضاً ، على أن ينفذ إلى العالم كى يكذب على المجتمع ، ويلعب فيه دوراً ويعرف الطريق إلى « الكواليس » حيث ينسحب من أجل التدبير والبكاء والمزاح . وبعد هذه الأزمة الصحيحة لا توجد أى أسرار فى الحياة الاجتماعية التى تصير منذ ذلك الحين محكوماً عليها نهائياً . وتنشأ هذه الأزمة الأولى أو أشد الآلام جرحاً عند النساء الشابات فى سن الماركيزة عن واقعة بعينها ؛ إذ لا يفوت المرأة ، وبخاصة المرأة الشابة الكبيرة الروح والكبيرة القدر من الجمال - لا يفوتها إطلاقاً أن تبذل حياتها حيثما تدفعها الطبيعة والعاطفة والمجتمع على القذف بها

كاملة . أما إذا كانت تنقصها تلك الحياة ، وكانت تعيش على الأرض ، فستأخذ فى تجريب أقصى الآلام فيها للسبب نفسه الذى يجعل من الحب الأول أجمل العواطف جميعاً .

لماذا لم يوهب قط هذا الشقاء مصوراً أو شاعراً ؟ ولكن هل يستطيع أن يصور نفسه ؟ وهل يستطيع أن يتغنى بآلام نفسه ؟ لا .. فطبيعة الآلام التى يولدها هذا الشقاء لا تستسلم لأى تحليل أو لأى ألوان فنية . وفضلا عن ذلك لا يمكن أن تروى هذه الآلام إطلاقاً إلى أحد ؛ ولكيما يمكن التسرية عن إحدى النساء بصددها ، لابد من القدرة على تخمينها ، لأن العلم بها يحاط دائماً بمرارة ، ويعاقب عليها دينياً ، وتأوى إلى الروح ككتلة هابطة من الجليد تتلف كلها فى أثناء سقوطها فى الوادى قبل أن تبلغ مكانها فى قاعه :

كانت الماركيزة إذن فريسة لآلامها التى كان مقدراً لها أن تمكث طويلا مجهولة ، لأن كل ما فى الحياة يحكم عليها بذلك فى حين تقوم العاطفة بملامسة تلك الآلام كما يقوم وعى المرأة الصادق بتسويغها جميعاً دائماً . ومن تلك الآلام ما يشبه الأطفال الذين تجحدهم الحياة عمداً أو الذين يستمسكون بقلوب أمهاتهم بروابط أقوى من روابط الأطفال الموهوبين بتوفيق . ولعل تلك الكارثة المرعبة التى تقضى على كل ما هو حياة خارجنا لم تكن على هذا النحو من القوة والتمام قط : ولم تتضخم بقسوة بواسطة الظروف مثلما جرت فى حياة الماركيزة . فقد مات

رجل معشوق شاب كريم لم تستجب قط لرغباته كى تطيع قوانين المجتمع بسبب حرصه على أن ينقذ لها ما اصطلح المجتمع على تسميته باسم « شرف المرأة » . ولن تستطيع أن تقول « إنى أعانى »؟.. ولو بكت لساءت زوجها دموعها برغم أنه السبب الرئيسى للنكبة . ولأبطلت القوانين وصنوف العرف شكواها . ولاستفادت من ورائها صديقة ، وضارب عليها صديق . لا .. لم يكن لهذه المكروبة المسكينة أن تبكى بدون انزعاج إلا فى الصحراء . بحيث تلتهم هناك ألمها ، أو بحيث يلتهمها ألمها ، أو بحيث تموت ، أو تقتل شيئاً فيها ، وليكن ضميرها مثلا .

وبقيت منذ بضعة أيام بنظراتها معلقة على أفق منبسط ، حيث لم يكن ثمة ما يبحث عنه كالحال بالنسبة إلى حياتها المستقبلة ، ولم يكن ثمة ما يبعث على الأمل ، حيث كان كل شىء ظاهراً مكشوفاً فى نظرة واحدة . وحيث كانت هى تلتقى بصور حزنها البارد الذى لا يكف عن تمزيق قلبها .

وكانت الأصباح الضبابية ، والسماء ذات النور الخافت ، والسحب المنخفضة الداكنة الجارية بالقرب من الأرض ، كأنها أروقة رمادية كان ذلك كله يلائم أطوار مرض الماركيزة النفسى ، إذ لم يكن قلبها ينقبض ، ولم يكن يتلوى تقريباً ... لا .. ولكن طبيعتها الناضرة المزهرة كانت تنعجن بفعل ألم لا يحتمل ، لأنها لم تكن محددة الهدف ، فقد عانت طبيعتها من الألم كما عانت من أجل الألم ، ولكن أليست

المعاناة انتقالا إلى الأنانية ؟

وكذلك كانت أفكار مفزعة تمر بضميرها فتخدشه . وتساءلت ، فى إيمان صادق ، فوجدت نفسها فى حالة ازدواج ، إذ كان فيها امرأة تستخدم البرهان ، وامرأة تستخدم العاطفة .. امرأة تعانى ، وأخرى لا تريد المعاناة أكثر من ذلك . وتذكرت مباهج طفولتها التى جرت دون أن تحس بسعادتها . والتى أخذت تتوافد صورها الذهنية الصافية فى ازدحام كأنها تريد أن تؤنبها على خديعة الزواج الذى يظهر مناسباً فى نظر المجتمع ، ويكون شنيعاً فى الحقيقة . فيم أفادها التعفف الجميل فى شبابها ؟ وفيم أفادتها المباهج المكبوتة ، والتضحيات المؤداة نحو المجتمع ؟ وبرغم أن كل ما فيها عبر عن الحب وتوقعه ظلت تتساءل : لماذا الآن هذا التناسق فى حركاتها وابتسامها ولطفها ؟ فلم تعد تحب أن تشعر بالنضارة والشهوة أكثر مما يكون مكروها سماع لحن متكرر بلا غرض . وكان جمالها نفسه غير محتمل بالنسبة إليها كأى شىء لا جدوى منه . واستشفت فى فزع أنها برغم ذلك لم تعد قادرة على أن تصبح مخلوقة كاملة . ألم يفقد (الأنا) الداخلى فيها ملكة تذوق الانطباعات فى هذا الوضع الجديد الحلو الذى يهب الحياة مقادير طائلة من السرور والفرح ؟

وستمحى أكثر الأحاسيس فى المستقبل غالباً بمجرد تلقيها ، وسيصبح كثير من الأحاسيس التى كانت تثيرها لو مرت بها فى الزمن

القديم – بلا قيمة أو أهمية بالنسبة إليها ، إذ تتبع طفولة المخلوق طفولة القلب . والواقع أن عشيقها قد حمل معه إلى القبر تلك الطفولة الثانية ، ولو أنها لاتزال شابة من حيث رغباتها ، لكنها لم تعد يتوافر لها ذلك الشباب الكامل في الروح الذى يعطى كل ما فى الحياة قيمته ونكهته . ألم تحتفظ فى نفسها بمبدأ الحزن والحذر الذى يسلب انفعالاتها عنفوانها المفاجئ واندفاعها؟ لأنه لم يعد شىء يستطيع أن يهبها السعادة التى تمنتها ، والتى حلمت بها أحلاماً جميلة . وأطفأت دموعها الأولى الحقيقية هذه النار السماوية التى تثير انفعالات القلب الأولى ، وكان عليها أن تقاسى على الدوام ألا تكون على نحو ما كان يمكنها أن تكون. ومن هذا الاعتقاد كان لابد أن ينشأ قرف مرير يدفع إلى إدارة الرأس كلما سنحت متعة جديدة . وتصورت الحياة على ذلك تصور المسن الهرم الذى يوشك أن يفارقها . وبرغم إحساسها بشبابها أثقل روحها حجم أيامها الخالية من المتع ، وضغط عليها ضغطاً أحالها إلى عجوز قبل الأوان .

وطلبت إلى المجتمع بصرخة يأس ما كان المجتمع قد رده إليها بديلا عن الحب الذى أعانها على أن تعيش والذى فقدته . وتساءلت : أليس الفكر أقسى من العمل فى غرامها الضائع الذى كان على قدر كبير من العذرية والنقاء ؟ وظهرت بمظهر المذنبة عن خطيئة ، كى تسب المجتمع ، وكى تجد هى العزاء عن أنه لم يحدث بينها وبين الذى بكته

ذلك الاتصال الكامل الذى يعمد إلى وضع الأرواح بعضها فوق بعض ، بحيث يخفف من ألم الروح التى تبقى بيقين استمتاعها المطلق بالسعادة وبيقين أنها عرفت تماماً كيف تعطيها ، ثم بيقين احتفاظها فى ذاتها بانطباع من تلك الروح التى ولت . وكانت غير راضية عن نفسها مثل الممثلة التى فاتها دورها ، لأن الألم كان يهاجم كل وشائج بدنها وقلبها وعقلها . وإذا كانت الطبيعة قد انقبضت فى تمنياتها الودية الخالصة ، فإن الغرور لم يكن جرحه بأقل من جرح الطيبة التى تحمل المرأة على التضحية بنفسها . ثم عمدت إلى إثارة كل الأسئلة وإلى تحريك جميع قوى الموجودات المختلفة التى تهبنا إياها الطبائع الاجتماعية والأخلاقية والحسية ، ولكنها أهملت تماما قوى الروح ، بحيث لم تعد تدرك شيئاً وسط أشد الأفكار تناقضاً . وأحياناً عندما كان الضباب يغيم الأرجاء كانت تفتح نافذتها ، وتظل أمامها بلا فكر ، وهى مشغولة بتنفس الرائحة الرطبة الترابية المنثورة فى الأجواء آلياً ، وتبقى واقفة ساكنة بلهاء فى مظهرها لأن طنين ألمها أحالها أيضاً إلى آلة صماء بالنسبة إلى انسجامات الطبيعة ومفاتن الفكر .

وفى أحد الأيام قرب الظهر ، فى لحظة أضاءت الشمس فيها الجو دخلت خادمتها بغير إذن وقالت لها : « هذه هى المرة الرابعة التى يحضر فيها السيد القسيس لرؤية السيدة الماركيزة . وهو يلح اليوم بإصرار حتى لم نعد نعرف بماذا نجيبه ؟ »

— إنه يطمع بلاشك فى بعض النقود ، من أجل الفقراء فى الدائرة فخذى خمساً وعشرين ليرة ذهبية وأعطيه إياها من قبلى .

قالت الخادمة وقد عادت بعد لحظة : « سيدتى ، السيد القسيس يرفض تسلم النقود ، ويريد أن يخاطبك » .

— فليحضر إذن !

أجابت الماركيزة بذلك وقد أفلتت منها حركة تنم عن مزاج منحرف ينبئ باستقبال تعيس للقسيس الذى تمنت بلا شك لو أمكنها أن تتفادى كل اللجاجات بتقديم شرح مختصر صريح إليه .

كانت الماركيزة قد فقدت أمها وهى طفلة ، وبطبيعة الحال تأثرت تربيتها بالفتور الذى دمغ الروابط الدينية فى فرنسا فى أثناء الثورة . وتعد التقوى من فضائل المرأة التى تستطيع النساء وحدها أن تنقلها نقلا طيباً . وقد كانت الماركيزة طفلة من أطفال القرن الثامن عشر الذى كانت عقائده هى عقائد والدها ، ولم تكن تباشر أى عبادات دينية ؛ وكان القسيس فى نظرها موظفاً أهلياً غير معترف بجدواه ، ولم يكن يستطيع صوت الدين أن يؤدى إلا إلى استفحال الشرور حيال الموقف الذى تردت فيه ، ثم إنها قلّما كانت تعتقد فى قساوسة الأرياف أو فى شموعهم ؛ ولذلك عزمت على أن تعرف هذا القسيس حدوده دون خشونة ، وأن تتخلص منه ببعض الهبات على طريقة الأغنياء .

حضر القسيس . ولكن مظهره لم يؤثر على أفكار الماركيزة ،

فقد رأت رجلا قصيراً سميناً ذا بطن بارز ، وذا وجه محمر ، ظاهر الشيخوخة ، وظاهر التجاعيد ، ويتكلف الابتسام دون أن تفلح ابتسامته فى شىء . وكان رأسه أصلع مخططاً بتجاعيد عديدة بالعرض كما كان يسقط فى ربع دائرة على وجهه ويصغره . وكانت بضع شعرات بيضاء تزين أسفل رأسه فوق الرقبة ، وتمتد إلى الأمام نحو الأذنين . ومهما يكن من شىء فقد كانت هيئة وجه هذا القسيس أشبه بهيئة وجه رجل مرح بالطبع . وكانت شفتاه الغليظتان ، وأنفه الخفيف التقلص ، وذقنه الذى توارى وراء ثنيات التجاعيد ، كان كل ذلك يدل على طباع سعيدة . ولم تلمح الماركيزة أول الأمر سوى ملامحه الرئيسية ؛ ولكن بمجرد نطقه أول كلمة أذهلتها رقة صوته ؛ فتأملته بانتباه أكبر ، ولاحظت عينيه من تحت حاجبيه اللذين وخطهما الشيب . وقد بللتهما الدموع . وكانت خطوط خده من ناحية الجانب تسبغ على وجهه تعبيراً جليلا للألم ، بحيث اكتشفت الماركيزة إنساناً وراء هذا القسيس .

— سيدتى الماركيزة ، إن الأغنياء لا ينتمون إلينا إلا حين يتألمون ؛ ويمكن تخمين نوع الآلام التى تنزل بساحة امرأة متزوجة شابة جميلة غنية لم تفقد أطفالا أو أقارب ؛ فهذه الآلام تنشأ عادة عن جروح لا يخفف أوجاعها الشديدة سوى الدين ؛ وروحك يا سيدتى فى خطر . وأنا لا أحدثك الآن عن الحياة الأخرى التى تنتظرك !! لا .. فلست أمام كرسى الاعتراف ، ولكن أليس من واجبى أن ألقى لك الأضواء

على مستقبل وجودك الاجتماعى ؟ لعلك تغفرين لرجل عجوز إزعاجك بقصد سعادتك .

— لم يعد ثمة سعادة بالنسبة إلىّ يا سيدى . سوف أكون منكم عما قليل ، كما تقول ، ولكن على الدوام .

— لا ، ياسيدتى . أنت لن تموتى من الألم الذى يثقل عليك ويرتسم على ملامحك . لو كان عليك أن تموتى بسببه لما جئت إلى « سان لانج » فنحن نموت تحت تأثير الندم الأكيد ، أقل مما نموت من آثار الآمال التى تخيب الظن . لقد عرفت آلاماً أشد قسوة ، ومما لا يحتمل ، دون أن تؤى إلى الموت .

أدّت الماركيزة حركة من لا يصدق ...

— سيدتى أنا أعرف رجلا كان شقاؤه عظيما حتى لتبدو آلامك خفيفة إذا قورنت بآلامه .

ولعل عزلتها الطويلة بدأت تثقل عليها أو لعل اهتمامها قد أثاره احتمال تمكنها من أن تصب أفكارها المؤلمة فى قلب صديق ، ومهما يكن من أمر فقد نظرت إلى القسيس بتعبير الاستفهام الذى لا يخطئه المرء .

عاد القسيس يقول : « سيدتى ؛ كان ذلك الرجل أباً لأسرة تحولت من أسرة عديدة الأبناء إلى أسرة ذات ثلاثة أطفال فقط ؛ إذ أنه فقد أقاربه على التوالى ، ثم ابنته وزوجته اللتين كان يحبهما حباً جمّاً ، وبقى بمفرده فى أقصى أقاليم الريف على أرض صغيرة يمتلكها ، حيث

كان سعيداً مدة طويلة ، وذهب أولاده الثلاثة إلى الجيش ، واحتفظ كل منهم بالرتبة المناسبة مدة خدمته . وفى فترة المائة يوم من ٢٠ مارس إلى ٢٢ يونية سنة ١٨١٥ عند عودة « نابليون » إلى « باريس » دخل الابن الأكبر الحرس ، وصار برتبة مقدم ، وكان الصغير رئيس فرقة مدفعية كما كان الابن الأوسط ذا رتبة رئيس كتيبة من فرسان الخيالة . وكان هؤلاء الأولاد الثلاثة — ياسيدتى — يحبون والدهم بقدرما كان هو يحبهم ؛ ولو كنت تعرفين عدم مبالاة الشبان الذين يندفعون مع عواطفهم الجامحة فلا يتوافر لهم وقت على الإطلاق للمشاعر الأسرية ، لفهمت مرة واحدة قوة هذه العاطفة بالنسبة إلى عجوز مسكين معزول لم يكن يعيش إلا بهم ومن أجلهم . ولم يمر أسبوع دون أن يتلقى رسالة من أحد أولاده ولكنه لم يكن هو أيضاً ضعيفاً نحوهم مما ينقص احترام الأولاد ، ولم يكن أيضاً قاسياً فى ظلم مما يدفعهم إلى الانقباض ، ولم يكن فوق هذا وذاك بخيلا عليهم بالتضحية مما يدفعهم إلى التفكك . لا .. بل كان أكثر من والد ، لأنه جعل من نفسه أخاً لهم وصديقاً . وفى النهاية ذهب يودعهم فى « باريس » عند سفرهم إلى « بلجيكا » ؛ إذ كان يود أن يرى أيملكون خيولا جميلة ! ألا ينقصهم شىء ؟ .. وعندما رحلوا عاد الوالد إلى بيته ، وبدأت الحرب ، فتلقى الرسائل مكتوبة من « فليرو » ومن « لينى » وسار كل شىء سيراً حسناً ؛ ثم تقع معركة « ووترلو » وأنت تعرفين النتيجة ، إذ فى نفس واحد كانت فرنسا

كلها فى حداد ، وعاشت الأسر جميعها فى أعمق قلق ؛ أما هو يا سيدتى فقد كان ينتظر ؛ ولم يعرف فسحة أو راحة ، وكان يقرأ صحف الأخبار ، ويذهب كل يوم بنفسه إلى مكتب البريد . وفى إحدى الليالى أبلغ بزيارة خادم ابنه المقدم ، فإذا الرجل يقود الحصان الخاص بسيده ؛ ولم يكن ثمة موضع للسؤال ، إذ كان المقدم قد مات ممزقاً إلى نصفين برصاصة . وقرب نهاية السهرة وصل خادم الابن الأصغر على قدميه ، وكان الابن الأصغر قد مات غداة المعركة ، وأخيراً عند منتصف الليل جاء أحد رجال المدفعية يعلن وفاة الابن الأخير الذى كان الأب المسكين قد وقف حياته بأكملها فوق رأسه منذ وقت قصير . نعم ياسيدتى سقطوا جميعاً موتى !

وبعد فترة سكون غالب القسيس انفعالاته ، وأضاف هذه الأقوال فى صوت رقيق :

— وبقى الأب حيًّا يا سيدتى ، وفهم أنه إذا كان الله قد تركه حيًّا على الأرض فعليه أن يواصل العذاب فيها ، وهو يتعذب فيها فعلا ، ولكنه ألقى بنفسه وسط الدين . ماذا يستطيع أن يصبح؟

ورفعت الماركيزة عينيها نحو وجه القسيس الذى صار مجللا بالحزن والضراعة ، وانتظرت هذه اللفظة التى انتزعت دموعها انتزاعاً :

— قسيساً ياسيدتى . فقد طهرته الدموع قبل أن يتطهر عند أقدام المذابح .

وساد الصمت لحظة ، وصارت الماركيزة ، والقسيس يتأملان الأفق الضبابى من النافذة كما لو كانا يريان هناك أولئك الذين لم يعودوا أحياء . ثم قال القسيس : « لا قسيساً فى مدينة ، وإنما مجرد خورى بسيط » .

سألت وهى تمسح دموعها : فى « سان لانج »

— نعم يا سيدتى .

ولم يظهر جلال الألم قط كبيراً على هذا النحو فى نظر « جولى » . وقولة الرجل : « نعم يا سيدتى » وقعت من قلبها كوقع أثقال ألم لا نهائى . وكان هذا الصوت الذى يرن برقة فى الأذن يؤدى إلى مغص فى الأحشاء آه ! لقد كان نفس صوت الشقاء .. ذلك الصوت المليء الرهيب الذى يبدو كما لو كان يجمع فى حلقاته سوائل نفاذة .

قالت الماركيزة فيما يحمل تقريباً معنى الاحترام : « سيدى ؛ وإذا لم أمت فماذا أصبح إذن » ؟

— سيدتى ؛ أليس لك طفل ؟

قالت بيرود : « بلى » .

ألقى القسيس نحو تلك المرأة نظرة شبيهة بالنظرة التى يقذفها الطبيب نحو مريضه فى حالة الخطر ، وعزم على أن يعمل كل ما بوسعه كى ينتزعها من الروح الخبيثة الشريرة التى وضعت اليد عليها سلفاً .

— كما ترين ، يا سيدتى ، لا مندوحة عن أن نعيش بآلامنا ، ولا

يعطينا العزاء الحقيقى سوى العقيدة الدينية ، فهل تسمحين بأن أعود أسمعك صوت إنسان يستطيع أن يتعاطف مع كافة الآلام ، ولا يحمل فيما أعتقد أى فزع ؟

ــ نعم يا سيدى .. عد ... وأشكرك لأنك فكرت فىّ .

ــ على ذلك إلى لقاء قريب يا سيدتى .

أرخت هذه الزيارة روح الماركيزة ، إن صح هذا التعبير ، وكان الحزن والعزلة قد أثارا قواها بعنف شديد ، وخلف لها القسيس فى قلبها ذلك الأريج البلسمى ودوى الخلاص عبر الأقوال الدينية ، ثم إنها أحست بذلك النوع من الرضا الذى يسعد السجين عندما يتلقى – بعد أن يتعرف على عمق الوحدة وثقل قيودها ــ طرقات جار يطرق الحائط دافعاً إياه إلى الرد عليه بصوت آخر يتناقلان به التعبير عن أفكار مشتركة . وهكذا عثرت على نجىّ لم تكن تتوقعه ، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى أعماق تأملاتها المريرة وقالت لنفسها مثل السجين : إن رفيق الألم لا يخفف من القيود أو من المستقبل . ولم يشأ القسيس أن يجعلها تجفل أو تنفر كثيراً من ألم كله أنانية وأثرة منذ زيارته الأولى ، ولكنه تعشم أن يجعلها بفضل فنه وطريقته – تقترب من الدين يتقدم فى أثناء اللقاء الثانى .

وعاد فى الواقع غداة اليوم التالى ، فبرهن استقبال الماركيزة له على أن زيارته كانت مطلوبة .

قال العجوز : « على أى حال ياسيدتى الماركيزة ، هل فكرت قليلا فى كتل الآلام البشرية ؟ هل رفعت عينيك نحو السماء ؟ هل رأيت هناك عظمة العوالم وضخامتها التى تنقص من أهميتنا وتسحق غرورنا فتقلل آلامنا » ؟.

قالت : « لا يا سيدى ، إذ تثقل القوانين الاجتماعية بشدة على قلبى وتمزقه لى تمزيقاً قوياً حتى أستطيع الارتفاع بنفسى إلى السموات ، ولعل القوانين ليست فى قسوة آداب المجتمع . أوه ! المجتمع » !

— علينا ، ياسيدتى أن نطيع هذه وتلك ، فالقانون هو الكلمة والآداب هى أفعال المجتمع .

عادت تقول الماركيزة مبدية حركة اشمئزاز « طاعة المجتمع » ؟.. هيه ! يا سيدى إن شرورنا جميعها تنشأ عنه . لم يضع الله أى قانون للشقاء ، ولكن عندما تجمّع الناس بعضهم مع بعض أفسدوا عمله . ونحن .. نحن النساء .. لقد عاملتنا المدنية بأسوأ مما عاملتنا الطبيعة به ، فالطبيعة تفرض علينا الآلام البدنية التى لم تخففوها ، فى حين أضافت المدنية المشاعر التى تخونونها باستمرار ، إذ تخنق الطبيعة الكائنات الضعيفة ، على حين تحكمون عليها أنتم بأن تعيش كى تقوموا بتسليمها إلى شقاء دائم . ويؤدى الزواج ، وهو نظام يرتكن إليه المجتمع ، إلى إشعارنا نحن وحدنا بأثقاله ، فللرجل الحرية ، وللمرأة الواجبات . علينا أن نهبكم حياتنا بأكملها ، وليس عليكم من حياتكم نحونا إلا لحظات نادرة

ثم إن الرجل يختار هناك حيث نرضخ نحن عن عمى . أوه ! يا سيدى ، لعلى أستطيع أن أقول لك كل شىء .. فالزواج على نحو مايطبق اليوم يبدو لى دعارة مشروعة . منه تنبع كل آلامنا . ولكن علىّ أنا وحدى – من بين كل المخلوقات التعيسة التى عقدت قرانها قضاء وقدراً – أن ألزم الصمت أنا وحدى كنت مصدر الشر لأننى أردت هذا الزواج .

وتوقفت وذرفت دموعاً مريرة وبقيت صامتة . ثم عادت تقول : « فى هذا الشقاء العميق ، ووسط هذا المحيط الشاسع من الألم عثرت على بعض الرمال ، حيث خطوت بقدمى ، وحيث تعذبت بغير أدنى إزعاج ، ثم هبت عاصفة أودت بكل شىء . وهأنذا وحدى بلا سند ، أضعف من أن أقف ضد العواصف » .

قال القسيس : « لانكون ضعفاء قط حينما يكون الله معنا . وعلاوة على هذا إذا لم تكن لديك عواطف ترضينها هنا على الأرض أفليس عليك واجبات تتطلب الأداء ؟ » صاحت هى بشىء من نفاد الصبر : دائماً واجبات! ولكن أين لى العواطف التى تهبنا قوة أدائها ؟ سيدى ، لاشىء فى لاشىء أو لاشىء من أجل لا شىء هو أعدل قوانين الطبيعة والأخلاق والأبدان . هل تريد أن تعطر هذه الأشجار أوراقها دون ماء النبات الذى يجعلها تورق ؟ وللأرواح رحيقها أيضاً ، وقد نضب الرحيق عندى فى منبعه ؟ ! » .

قال القسيس : « لم أكن أتكلم معك عن العواطف الدينية التى تولد

الإذعان . ولكن أليست الأمومة إذن يا سيدتى ... » .

قالت الماركيزة : كف ياسيدى سأصدق فى كلامى معك . وا أسفاه ! وبرغم ذلك لا أملك أن أصدق إنساناً القول ، إذ أنه محكوم على بالزيف ، وتقتضى منا الدنيا التظاهر المستمر ، وترغمنا على قبول العرف السائد ، وإلا رمتنا بالعار . هناك أمومتان ياسيدى . وكنت فى الزمن القديم أجهل مثل هذه الفوارق ، لكنى أعرفها اليوم . ولست إلا نصف أم ، وكان الأفضل ألا أكونها إطلاقاً . وليست « هيلين » ابنته ! أوه ! لا ترتجف ! إن « سان لانج » هوة سحيقة تبتلع العواطف الزائفة ابتلاعاً ، ومنها تثب ومضات شريرة ، وفيها تنهار الأبنية الواهنة من القوانين المناقضة للطبيعة . فعندى طفل ، وهذا يكفى . إننى أم ، وهذا هو ما أراده القانون . ولكن أنت يا سيدى .. يا من تملك روحاً رهوفة رأفة رقيقة .. لعلك تهم صرخات امرأة مسكينة لم تدع لأى عاطفة مصطنعة سبيلا إلى قلبها . وسيحكم الله على ولكننى لا أظن أننى أقصر فى تنفيذ قوانينه عندما أستسلم لعواطف وضعها فى روحى وهأنذا أجد نفسى بينها . أليس الطفل يا سيدى صورة كائنين وثمرة عاطفتين ممتزجتين فى حرية ؟ فإذا لم يتعلق الطفل بكل وشائج الجسم ، وبكل حنان القلب .. إذا لم يكن ذكرى لحب لذيذ ، وللأزمنة والأماكن التى كان الشخصان سعداء فيها ، وكانت لغتهما ملأى بالموسيقى الإنسانية ، وبأفكارهما العذبة الحلوة ، فذلك الطفل إذن خلق غير موفق . نعم فبالنسبة إليهما يجب أن يكون ذلك الطفل تحفة ساحرة

تجمعت فيها أشعار حياتهما المزدوجة الخفية ؛ إذ عليه أن يكون بالنسبة إليهما منبع انفعالاتهما الخصيبة . فيمثل ماضيهما بأكمله ، ومستقبلهما بأكمله . وطفلتى الصغيرة المسكينة «هيلين» هى ابنة أبيها . لأنها ابنة الواجب والمصادفة . وليس لها عندى سوى غريزة المرأة أى القانون الذى يدفعنا دون أن نقوى على مقاومته إلى حماية المخلوقة المولودة بين ضلوعنا. أنا لا أستحق المؤاخذة من الناحية الاجتماعية . ألم أضحّ بحياتى وسعادتى من أجلها ؟ وصياحها يثير شجن أحشائى ؟ وإذا وقعت فى الماء فسأجرى مسرعة كى آخذ بيدها ، ولكنها ليست فى قلبى . آه ! لقد جعلنى الحب أحلم بأمومة ضخمة معقدة ، وقد لامست برقة ذلك الطفل الذى انطوت عليه رغائبى قبل أن يولد ، أو تلك الزهرة الحلوة النابتة فى الروح قبل أن تخرج إلى الحياة فى أثناء حلم ضائع . وإنى بالنسبة إلى «هيلين» ما يجب أن تكون عليه أم نحو ذريتها فى النظام الطبيعى ، وسينتهى كل شىء حين تصبح بغير حاجة إلىّ : إذا انطفأ السبب انتهت آثاره ! وإذا رزقت المرأة بالمزية الرائعة التى تجعلها تمتد بأمومتها فتشمل كل حياة طفلها .. أفليس ينبغى إرجاع ذلك الاستمرار الإلهى العاطفى إلى إشعاعات مفهومها الأخلاقى ؟ وإذا لم يوهب الطفل روح أمه كعطاء أول : توقفت الأمومة بالتالى فى قلبها كما تتوقف عند الحيوانات . وهذا صحيح وأنا أشعر به . وكلما كبرت ابنتى تقلص قلبى . وأدت التضحيات التى قمت بها نحوها سلفاً إلى انفصالى عنها ،

فى حين كان يمكن أن يصير قلبى معيناً لا ينضب بالنسبة إلى طفل آخر وأنا أحس بذلك ، فبالنسبة إلى هذا الطفل الآخر كان كل شىء سيصبح متعة بدلا من أن يكون تضحية . وهنا ياسيدى يقف العقل والدين وكل شىء فىّ عاجزاً ضد عواطفى . أهى مخطئة تلك المرأة حين تطمع فى الموت وهى ليست أمًّا أو زوجة مع أنها استطاعت – وذلك لشقائها – أن تمتص رشفة حب فى مفاتنه غير المتناهية ، وأن تعيش لحظة أمومة فى مباهجها التى لا حدود لها ؟ ماذا تصبح تلك المرأة ؟ سأقول لك بنفسى ما سوف تعانيه ! رعدة تهز رأسى ، وقلبى ، وجسدى مائة مرة فى النهار ، ومثلها أثناء الليل ، كلما حملت إلى بعض الذكرى التى لم تخمد صور الهناء الذى أراه أكبر مما هو عليه . وتدفع هذه الأوهام القاسية عواطفى إلى الشحوب ، وأقول لنفسى : «ماذا كانت تصير حياتى لو ... ؟» وغطت وجهها بين يديها وسالت دموعها ثم استعادت كلامها : «هناك أعماق قلبى طفل منه كان يجعلنى أقبل أبشع النكد ! والهنا الذى مات محملا بجميع خطايا الأرض سيغفر لى هذه الفكرة الدنيوية القاتلة عندى . ولكننى أعرف أن المجتمع حقود، وأقوالى فى نظره تجديفات . وأنا ألعن قوانينه . آه ! كم وددت أن أقوم بحرب ضد هذا المجتمع كيما أحطمه ! ألم يجرح المجتمع كل أفكارى ، وكل وشائجى وكل عواطفى ، وكل رغباتى وآمالى فى المستقبل والحاضر والماضى ؟ فاليوم بالنسبة إلىّ مشحون بالظلمات ، والفكر نصل حادّ ، وقلبى

ندب عميق ، وطفلى لا شىء . نعم . عندما تخاطبنى « هيلين » أتمنى لها صوتاً غير صوتها ، وعندما تنظر إلى أتمنى أن تكون لها عيون أخرى إنها موجودة لكى تؤكد لى كل ما كان ينبغى أن يكون ، وكل مالا وجود له . إنها لا تُحتمل بالنسبة إلى! إننى أبتسم لها وأحاول أن أعوّضها العواطف التى تفوتها . إننى أتعذب أوه ! يا سيدى ، إننى أتعذب عذاباً أكبر مما يجب لكى أعيش . وسيعدُّنى الجميع امرأة فاضلة ! وأنا لم أرتكب أخطاء ! وسوف يشرفوننى ! فقد صارعت الحب غير الإرادى الذى لم يكن لى الحق فى الاستسلام له . ولكننى إذا كنت قد احتفظت بإعفائى الجسدى فهل حافظت على قلبى ؟ إنه لم يكن قط إلا لمخلوق واحد .

قالت ذلك وهى تسند يدها اليمنى إلى صدرها ، ثم استطردت :

« ولا تكاد ابنتى تخطئ ذلك . فهناك نظرات وصوت وحركات أم تعجن بقوتها روح الأطفال . وطفلتى المسكينة الصغيرة تشعر بذراعىّ تهتزان ، ولا بصوتى يرتعد أو بعينىّ تليِّنان عندما أتأملها وأكلمها وآخذها . فهى تلقى إلى نظرات اتهام لا أحمل أعباءه ! وأحياناً أرتعد لمرأى محكمة فى شخصها يحكم على فيها دون الإصغاء لأقوالى .. لتأمر السماء بأن يذهب الحقد فلا يقوم له مقام بيننا فى أحد الأيام . يا إلهى العظيم ! افتح لى قبرى ودعنى أقضى فى (سان لانج) ! أريد أن أذهب إلى العالم الذى أعثر فيه على روحى الأخرى والذى سأكون فيه أمًّا تماماً ! أوه ! اغفر لى ياسيدى فأنا مجنونة . هذه الألفاظ كانت

تخنقنى ، وقد قلتها . آه ! أنت أيضاً تبكى ! أنت لا تحتقرنى » .

وصاحت فى شىء من اليأس حين سمعت ابنتها وهى عائدة من النزهة « هيلين » ! « هيلين » ! تعالى يابنتى !

وجاءت الصغيرة ضاحكة باكية . فقد جاءت بفراشة أمسكتها ، ولكن عندما رأت أمها تبكى سكتت ، وجلست إلى جوارها ، وأعطتها جبينها لتقبلها .

قال القسيس : « ستكون جميلة تماماً » .

أجابت الماركيزة وهى تقبل ابنتها بتعبير حار كما لو كانت تسدد ديناً وتود أن تزيل تأنيب الضمير : « إنها تشبه أباها تماماً » .

— أنت محرورة يا ماما .

أجابت الماركيزة : « هيا . دعينا يا ملاكى » .

وانصرفت الطفلة غير نادمة ، ودون أن تنظر إلى والدتها . بل لعلها كانت سعيدة لتحاشيها ، وجهها الحزين ، كأنما أدركت سلفاً أن العواطف التى ارتسمت عليه كانت ضارة . فالابتسامة هى نصيب الأمومة ولسانها وتعبيرها ، ولم تكن الماركيزة تستطيع الابتسام . واحمرت خجلا وهى تنظر إلى القسيس . فقد شاءت أن تبدو أمًّا ولكنها لم تستطع ، كما لم تستطع ابنتها أن تكذب . الواقع أن قبلات المرأة المخلصة ذات عسل إلهى يبث الروح فى الملامسة والتربيت أو يخلق ناراً دقيقة تخترق القلب وإذا خلت قبلات من هذه الطلاوة الشهية ظلت مرة جافة . وأحس القسيس

بهذا الاختلاف ، فقد استطاع أن يستكشف الهوة التى تفصل أمومة البدن وأمومة القلب . وبعد أن ألقى نظرة فاحصة نحو تلك المرأة قال لها :

– «سيدتى .. إنك على حق ، فقد كان الأولى بالنسبة إليك أن تكونى ميتة ... »

آه أنت تفهم عذابى .. إنى أرى ذلك ، مادمت كقسيس مسيحى قد استطعت أن تستنتج وأن تؤيد القرارات المنكودة التى أوحت إلى بها الآلام . نعم. لقد أردت أن أنتحر . ولكن نقصتنى الشجاعة الضرورية كى أتمم خطتى ، وكان جسمى جباناً حين كانت روحى قوية ، وعندما كفت يدى عن الارتعاد تذبذت روحى . إنى لا أعرف شيئاً عن سر هذا الصراع وهذه النوبات . إنى لاشك امرأة – مع الأسف العميق – خالية من الثبات فى رغباتى ، وقادرة على الحب فقط . إنى أحتقر نفسى ! وفى المساء عندما كان الجميع فى البيت ينامون – كنت أذهب إلى دورة المياه بشجاعة . وبمجرد وصولى إلى أطرافها كانت طبيعتى الهشة تفزع من الفناء .. أنا أعترف لك بنواحى ضعفى ، وبمجرد وجودى فى السرير كنت أخجل من نفسى ، وأعود أشعر بالشجاعة . وفى إحدى هذه اللحظات تناولت «اللودانوم» غير أنى تألمت كثيراً دون أن أموت ، واعتقدت أننى تناولت كل ما كان موجوداً فى القنينة فى حين كنت قد توقفت عند منتصفها فى الحقيقة .

قال القسيس بصوت جهم تخنقه العبرات : «لقد ضعت يا سيدتى ،

إذ أنك تقدمين إلى الحياة ثم تخونينها ، وتبحثين فيها ثم تعثرين فيها على ما تنظرين إليه كتعويض عن شرورك ، ثم إنك ستحملين فى يوم من الأيام ألم للدائدك ... »

صاحت هى : «أنا سوف أذهب لأسلم آخر وأثمن ثروات قلبى إلى أول غشاش يعرف كيف يلعب الملهاة الخاصة بالأهواء، ثم أفسد حياتى ، من أجل لحظة لذة غير مؤكدة ؟ ! لا .. فسوف تضنى روحى شعلة نقية . سيدى ؛ كل الناس يملكون حواس الجنس عندهم ؛ أما من يملك روحه، ويرضى على هذا النحو كل مقتضيات طبيعتنا ذات الانسجام النغمى ، فلا ينفعل إطلاقاً إلا تحت ضغط العواطف، وهذا لا يلتقى به المرء مرتين فى الحياة . إن مستقبلى شنيع . . . أنا أعرف ذلك ؛ فالمرأة لا تساوى شيئاً بغير الحب؛ والجمال لا يساوى شيئاً بدون اللذة والمتعة. ولكن ألن يعيد المجتمع إثبات سعادتى إذا تقدم إلى مرة أخرى ؟ إن من واجبى نحو ابنتى أن تكون لها أم شريفة . آه ! لقد وقعت فى دائرة حديدية لن أخرج منها خالية من عار، وسوف تضايقنى واجبات الأسرة المؤداة بلا مثوبة ، وسألعن الحياة ، ولكن ابنتى ستحظى على الأقل بمظهر لائق للأم . وسأودعها كنوز الفضيلة كى تحل محل كنوز العاطفة التى حرمتها إياها ، ولا أريد حتى أن أعيش كى أتذ وق المتع التى تهبها سعادة الأولاد للأم . إذ أنى لا أعتقد فى السعادة . وماذا سيصبح مصير «هيلين»؟ نفس مصيرى بلاشك . فبأى الوسائل

تضمن الأمهات لبناتها أن يصبح الرجل الذى يستسلمن له زوجاً وفقاً لقلوبهن ؟ إنكم تفضحون المخلوقات المسكينة التى تبيع نفسها فى مقابل بعض الدراهم لرجل عابر ، فالجوع والحاجة تحللان هذه العشرة العابرة . هذا فى حين يغفر المجتمع ، ويشجع الزيجات المباشرة، برغم بشاعتها بين فتاة ساذجة ورجل لم تره أكثر من ثلاثة أشهر . فتباع طول حياتها . لاشك أن الثمن مرتفع . إذا كنتم عندما تسمحون لها بالمكافأة على آلامها تقومون بتشريفها . ولكن لا .. إذ أن المجتمع يفترى على أفضل الفاضلات من بيننا ! ذلك مصيرنا فى وضوح من كلا وجهيه : الدعارة العامة والخزى والفضيحة ، أو الدعارة الخفية والشقاء . أما البنات المسكينات اللاتى لا يملكن المهر فإنهن يصبحن محتقرات ، ويمتن .. لا شفقة بالنسبة إليهن.. وليس الجمال أو الفضائل قيماً فى سوق البشرية، وأنتم تسمون مجتمعنا ذلك العرين الخاص بالأنانية . على الأقل حرموا الميراث على المرأة ! على الأقل أتموا بذلك قانون الطبيعة باختيار رفيقاتكن، وبالزواج منهن بفضل أمنيات القلب . »

— سيدتى ؛ أحاديثك تثبت لى أن روح الدين وروح المجتمع لم يبلغاك ؛ وكذلك أنت لا ترددين بين الأنانية الاجتماعية التى تشينك، وأنانية المخلوق التى ستدفعك إلى تمنى المتع ..

— هل توجد الأسرة يا سيدى ؟ إننى أنكر الأسرة فى مجتمع يقسم الأملاك عند موت الأب أو الأم ، ويوصى كلا بالذهاب إلى حيث

يشاء . فالأسرة هيئة وقتية عرضية يحلها الموت بسرعة فائقة ... لقد هدمت قوانيننا البيوت والتركات وخلود النماذج والتقاليد . لاأرى سوى خرائب من حولى .

— سيدتى ؛ لن تعودى إلى الله إلا حين تلح عليك يده فى الأثقال ؛ وأتعشم أن تجدى الوقت الكافى كى تصلحى ما بينك وبينه . إنك تبحثين عن السلوى لنفسك . وأنت تخفضين عينيك نحو الأرض بدلا من رفعهما نحو السماء . ولقد أصاب قلبك التفلسف والنفع الشخصى ؛ بل إنك لم تعودى تسمعين صوت الدين على نحو ما يفعل الأطفال الخالون من العقيدة فى هذا القرن . ولا تولد لذائذ العيش إلا الآلام ؛ وسوف تستبدلين آلاماً بآلام ، وهذا هو كل ما فى الأمر.

قالت وهى تبتسم بمرارة: « سأكذب نبوءتك . سأكون مخلصة لذلك الذى مات من أجلى » .

أجاب القسيس: « الألم لايعيش إلا فى الأرواح التى أعدتها العقيدة الدينية » .

وخفض عينيه بإجلال كى لا يدع لنفسه فرصة يرى خلالها الشكوك التى ارتسمت فى نظرته ؛ إذ أحزنته طاقة الشكاوى الصادرة عن الماركيزة وبتعرفه على « الأنا » الإنسانية تحت آلاف الأشكال والصور يئس من أن يلين هذا القلب الذى كان الشر قد جففه بدلا من أن يرققه ، والذى لم يكن ثمة أمل فى أن تنبت فيه بذرة الباذر السماوى طالما كان صوتها الناعم قد خنقته فيه ضوضاء الأنانية الرهيبة . وبرغم ذلك

فقد بسط أمام عينيه مثابرة الحواريين والرسل ، وعاد مستأنفاً عدة مرات ، وهو دائم الأمل فى أن يدير تلك الروح النبيلة المزهوة نحو الله؛ ولكنه فقد الشجاعة يوم أدرك أن الماركيزة لم تكن تحبّ التحدث إليه إلا لكى تجد التملق فى الكلام عن ذلك الذى مات ، ولم يكن يحب أن يجعلها تبتلع من جديد وساطته وهو يقوم بدور الملاطف للأهواء ، فكفّ عن محاوراته ، وعاد شيئاً فشيئاً نحو قوالب العبارات المعتادة المألوفة ، والأماكن المشتركة فى المحادثة .

وجاء الربيع ووجدت الماركيزة بعض العزاء عن حزنها العميق ، وشغلت نفسها بحكم البطالة بأرضها ، وأدخلت على نفسها التسلية بتوزيع الأوامر الخاصة ببعض الأعمال . وفى شهر أكتوبر هجرت قصرها العتيق فى « سان لانج » حيث صارت ناضرة جميلة من جديد ، فى فراغ الألم الذى كان أول الأمر عنيفاً مثل الأسطوانة المقذوفة بشدة ثم صار يخفّ على صورة اكتئاب على نحو ما تتوقف الأسطوانة بعد ذبذبات أضعف فأضعف تدريجياً . ويتألف الاكتئاب من سلسلة من الذبذبات النفسية المتشابهة التى تلمس أولاها اليأس وأخيرتها اللذة ؛ فى الشباب يكون الاكتئاب فجر الصباح ويكون فى الشيخوخة الليل .

وعندما عبرت مركبتها القرية تلقت الماركيزة تحايا القسيس الذى كان عائداً من الكنيسة نحو بيته ، ولكن عندما ردت عليه التحية خفّضت عينيها ، وأدارت رأسها كيلا تراه مرة أخرى ؛ إذ كان القسيس على حق ضد هذه المسكينة « أرتيميز ديفيز »

٣

فى سن الثلاثين

كان فى حفل السيدة « فيرميانى » شاب من الشباب المتألق الذى ينتظر له مستقبل باهر وكان ينتمى إلى أحد البيوت التاريخية ذات الاسم المرتبط ارتباطاً وثيقاً بمجد فرنسا برغم القوانين نفسها ، وقد أعطته هذه السيدة بعض رسائل تزكية إلى صديقتين أو ثلاث من صديقاتها فى مدينة « نابولى » بإيطاليا ، وكان السيد « شارل ديفاندينيس » — وهذا اسم ذلك الشاب — قد حضر لكى يشكر لها ذلك ، ويستأذنها فى التغيب وبعد أن أدى « ديفاندينيس » جملة مهام باقتدار ، عينوه أخيرا ملحقاً مع أحد وزرائنا المفوضين المرسلين إلى مؤتمر « ليباخ » وأراد أن ينتهز فرصة رحلته لكى يدرس إيطاليا .

كان هذا الاحتفال إذن نوعاً من الوداع للمباهج الباريسية ، ولتلك الحياة السريعة ، ولذلك الإعصار من الأفكار والمتع التى تتجنى عليها غالباً ، ولكن كم يحلو الاستسلام لها ! وعلى الرغم من أن « شارل ديفاندينيس » قد اعتاد منذ ثلاث سنوات أن يزور العواصم الأوروبية ، وأن يهجرها بفضل نزوات مصيره الدبلوماسى ، كان يأسف لمغادرة « باريس »

بسبب بعض أشياء قليلة . ولم يعد للنساء تأثير عليه إطلاقاً ؛ إما لأنه نظر إلى العاطفة الصادقة كما لو كانت تحتل مكاناً أكثر مما ينبغى فى حياة رجل السياسة ، وإما لأن المشاغل الحقيرة خلال الغزل السطحى كانت تبدو فى نظره أفرغ مما ينبغى بالنسبة إلى الروح القوية . ولدينا جميعاً ادعاءات ضخمة فيا يتعلق بقوة الروح . إذ لا يوافق أى رجل فى فرنسا - مهما كان مستواه العادى - على أن يعد مجرد روحانى .

وهكذا كان « شارل » برغم صغر سنه يكاد يكون فى الثلاثين من عمره قد تعود سلفاً الفلسفة أعنى الأفكار والنتائج والوسائل فى حين كان الرجال فى مثل عمره يشغلون بالعواطف واللذائذ والأوهام . فكبح جماح الحرارة والهوس الطبيعيين لدى الشباب ، ودفعهما إلى أعماق روحه التى أسبغت عليها الطبيعة الكرم والأريحية . وكان يجتهد فى أن يكون مديراً رزيناً ، وفى أن يصب الثروات الأخلاقية التى كانت من نصيبه فى أنماط وفى أشكال محببة وفى حيل مغرية ، وهى المهمة الحقيقية للطموحين ، ومجرد دور بائس أو مشغولية بقصد بلوغ ما يطلق عليه اسم : المركز المرموق ؛ وأخذ يلقى نظرة أخيرة على صالونات الرقص . وقبل أن يغادر الحفل ، أراد بلا شك أن يحمل معه صورة ذهنية للمكان ، مثل أحد نظارة الأوبرا الذى لا يخرج من « اللوج » دون أن ينظر إلى اللوحة الأخيرة ولكن - بنوع من الخيال المتطرف الذى يسهل فهمه - كان السيد « ديفاندينيس » يدرس الحركة ذات الطابع الفرنسى البحت ، والوجوه المتألقة الضاحكة

فى ذلك الاحتفال الباريسى ، مع مقارنتها فى الفكر بالسحنات الجديدة والمناظر الرائعة التى تنتظره فى (نابولى) حيث عقد العزم على أن يمضى عدة أيام ، قبل أن يتسلم عمله . وبدا كأنه يقارن فرنسا المتغيرة ، التى تستغرق دراستها أمداً طويلاً ، ببلاد لم يكن يعرف عاداتها ومواقعها إلا عن طريق المعلومات السمعية المتناقضة ، أو عن طريق كتب معظمها سيئ الإعداد . ومرت حينئذ برأسه بعض الأفكار الشاعرية إلى حد ما ، من تلك الأفكار التى أصبحت اليوم عادية جداً ، وأجابت على غير علم منه عن تمنيات قلبه الخفية الذى كان شديد التقصى أكثر مما كان مدفوعاً بدافع الملل ، كما كان خالياً أكثر مما كان ذابلاً .

كان يقول لنفسه : « هناك أكثر السيدات أناقة وغنى ومكانة فى (باريس) ها هنا توجد شهيرات العصر ، وذائعات الصيت المرموقات وذوات السمعة الأرستقراطية والأدبية . . . ها هنا فنانون هاهنا رجال السلطة . وبرغم ذلك لا أرى سوى حيل صغيرة وألوان من الغرام الذى يولد ميتاً ، والابتسامات غير الناطقة ، وازدراء بلا مسوغ ونظرات خالية من اللهب ، وفكر ضخم يبعثر بلا هدف .. كل هذه الوجوه البيضاء والوردية تبحث عن السرور أقل مما تبحث عن التسرى ؛ إذ لا يوجد انفعال واحد صادق . وإذا شئت فقط الريشات الموضوعة وضعاً جيداً والكريشات الشفافة الناضرة ، والتزين الجميل ، والنساء النحيفة ،

إذا كانت الحياة في نظرك هي مجرد واجهة سطحية تمس مساً خفيفاً ، فهاك إذن عالمك . هل ترضى بهذه العبارات الخالية من المدلول ، وتلك التصنعات الساحرة ، ولا تعنيك عاطفة في القلوب ؟ عن نفسي أشعر بالاشمئزاز من كل هذه الحيل التافهة التي تنتهي بزواج ، ومنصب مساعد محافظ أو مدير محلي للضرائب ، وإذا كان ثمة حب فعن طريق الترتيبات السرية طالما كانت أمثال هذه العاطفة مصدر خجل . إنني لا أرى واحداً من هذه الوجوه الفصيحة يكشف عن روح تخلو إلى فكرة كما تخلو إلى تأنيب الضمير . فالندم والشقاء يختفيان في خجل وراء المداعبات والملح ؛ ولا أكاد ألحظ واحدة من تلك النساء اللائي كنت أحب نزالهن واللائي يسقن المرء إلى هاوية . وأين يجد المرء هذه الدفعة في باريس ؟ فالخنجر تحفة تعلق فيها على مسمار ذهبي ويزين بغلاف جميل ؛ وكل النساء والأفكار والعواطف تتشابه ، ولم تعد هناك أي ميول ، لأن الفرديات اختفت ، وتساوت كل الرتب والعقول والثروات ، ولبسنا جميعاً الملابس السوداء كأننا نلبس الحداد على فرنسا الميتة . إننا لا نحب الأقران . وبين عاشقين من العشاق لابد أن تكون ثمة فوارق تزال وأبعاد تغطى ؛ وسحر الحب ذاك قد اختنق منذ ١٧٨٩ ! وليس مللنا وعاداتنا الباهتة إلا نتيجة النظام السياسي . وفي إيطاليا كل شيء ، على الأقل مرسوم بشكل قاطع ، والنساء هناك لا تزال حيوانات مؤذية ، أو غانيات خطرة ، ليس لها من العقل أو المنطق إلا مايتصل بأذواقهن ورغباتهن ، وينبغي الحذر منهن كما يحذر المرء من النمور ..

وجاءت السيدة « فيرمياني » تقطع هذه المناجاة ذات الألف فكرة من الأفكار المتناقضة المضطربة غير المستوفاة ؛ وكل فضل الأحلام يتركز في غموضها .. .. أليست الأحلام ضرباً من البخار الذهني ؟

قالت وهي تأخذ بذراعه : « أريد أن أقدمك إلى السيدة التي ترغب رغبة كبيرة في التعرف عليك ، بعد كل ما سمعته عنك » .

وقادته إلى « صالون » مجاور ، حيث أشارت بإيماءة وبابتسامة ، وبنظرة باريسية محضة نحو امرأة جالسة عند ركن المدفأة .

سأل الكونت « ديفاند ينيس » بقوة : « من هي ؟ »

ـ هي امرأة من المؤكد أنك حاورت نفسك بشأنها أكثر من مرة ؛ لكي تثني عليها ، أو تلعنها .. امرأة تعيش في العزلة .. سر حقيقي .

ـ لو كنت رحيمة مرة واحدة في حياتك عن فضل فأخبريني باسمها ؟

ـ الماركيزة « ديجليمون » .

ـ سوف أذهب لآخذ درساً بالقرب منها ، فقد جعلت من زوج ضئيل القدر رجلا لا مثيل له في فرنسا . بل جعلت من رجل تافه كفاية سياسية . ولكن أخبريني .. هل تعتقدين أن لورد « جرينفيل » مات من أجلها . كما زعمت بعض النساء ؟

ـ من المحتمل ؛ فمنذ تلك المغامرة الصحيحة أو غير الصحيحة تغيرت المرأة المسكينة . لم تعد تدخل المجتمعات . لاشك أن هذا حدث

من أحداث باريس أن تبقى فيها أربع سنوات . وإذا كنت تراها هنا ..
وتوقفت السيدة « فيرمياني » ثم أضافت فى تعبير رقيق.. إننى أنسى أنه
ينبغى على أن أصمت . اذهب وتحدث إليها .

بقى « شارل » لحظة ساكناً ، وقد أسند ظهره إلى إفريز الباب وهو
مشغول تماماً بفحص امرأة صارت مشهورة ، دون أن يلم أى شخص
بالدواعى التى بنيت عليها شهرتها . والمجتمع يقدم عادة الكثير من هذه
النوادر الغريبة . ومن المؤكد أن شهرة السيدة « ديجليمون » لم تكن أكثر
غرابة من شهرة بعض الرجال العاملين دائماً فى عمل مجهول .. فرجال
الإحصاء يقال إنهم متعمقون فى الإيمان بالحساب الذى يحرصون على
إذاعته .. والسياسيون الذين يعيشون على مقال صحيفة .. والمؤلفون
أو الفنانون الذين يظل عملهم دائماً محصوراً فى الأوراق المالية ورجال
علماء مع أولئك الذين لا يعرفون شيئاً فى العلم ، كما كان « اسجانا
ريل » متخصصاً فى اللاتينية مع أولئك الذين لا يفقهون حرفاً فى اللاتينية
ورجال تعزى إليهم قدرات وكفايات متفقة فى نقطة واحدة سواء كانت
هذه النقطة هى إدارة الفنون أو مهمة ذات شأن كبير فهذه العبارة
الرائعة : « ذاك تخصص » يبدو أنها ابتكرت لهذه الأنواع من الحيوانات
عادمة الرأس فى السياسة والأدب .

وبقى « شارل » مدة أطول فى تأمل لم يكن يريده ، ولم يرض عن كونه قد
قد انشغل بامرأة إلى هذه الحد القوى . لكن حضور هذه المرأة أيضاً

دليل على مدى خطأ الأفكار التى كان الدبلوماسى الشاب قد اعتقدها
منذ لحظة سابقة عن مظهر الحفل .

وكانت الماركيزة حينذاك فى سن الثلاثين ، وكانت جميلة برغم
نحافة شكلها وبرغم رقتها المتناهية ، وكان أكبر عوامل جاذبيتها يتركز
فى سيماء وجهها الذى كان هدوءه ينم عن عمق عجيب فى الروح ، وكانت
عينها ممتلئة بالبريق ولكن كأنها محجوبة بفعل فكر دائم ، فتفصح عن
حياة محمومة وعن استسلام عريض . ونادراً ما كانت جفونها ترتفع
بعد أن انخفضت على الدوام ، نحو الأرض فى تعفف . وإذا كانت
تلقى بعض النظرات حولها فقد كانت تؤديها فى حركة حزينة ، لو
رأيتها لقلت إنها تحفظ نار عينيها من أجل تأملات غيبية ، كذلك كان
كل رجل متميز يشعر بأنه مجذوب جذباً غريباً نحو هذه المرأة
الرقيقة الصامتة .

وإذا كان يحلو للفكر أحياناً أن يستطلع أسرار رد الفعل المستمر
الذى كان يحدث بداخلها للحاضر نحو الماضى ، وللمجتمع إزاء عزلتها ،
فإن الروح أيضاً لم يكن اهتمامها أقل بالتعرف على أسرار قلب مغرور
بآلامه بشكل ما . وليس فيها فضلا عن ذلك ما يكذب الأفكار التى
كانت توحى بها فى مبدأ الأمر . وككل النساء تقريباً من ذوات الشعر الطويل
جداً ، كانت شاحبة اللون . كما كانت بيضاء بياضاً ناصعاً ..
وكانت بشرتها ذات النعومة العجيبة تنبئ بما لا يدع مجالا للخطأ عن حساسية

حقيقية تعززها طبيعة ملامحها التى تميزت بذلك الكمال الرائع الذى يسكبه المصورون الصينيون على أوجههم الوهمية . ولعل رقبتها كانت طويلة بعض الشىء . ولكن هذه الأنواع من الأعناق هى الأكثر رقة . وتهب رءوس النساء متشابهات غامضة مع تموجات الثعابين الجذابة . ولو لم توجد علامة واحدة من آلاف العاملات التى تتكشف بها أشد الطباع خفاء على الملاحظ لكان يكفيه أن يفحص بانتباه حركات الرأس والتواءات العنق الشديدة التنويع والشديدة التعبير معاً لكى يحكم على امرأة .

وكانت أناقة زىّ السيدة « ديجليمون » منسجمة مع الفكر المسيطر على شخصها ، وكانت ضفائر شعرها المعقوصة تنشئ « فوق رأسها تاجاً عالياً لا تداخله أى زينة لأنها كانت قد فارقت العمر الذى كانت تهتم فيه بدراسة زينة تجميلها وودعته إلى الأبد . كذلك لا يأخذ عليها المرء إطلاقاً تلك التدبيرات الصغيرة فى التدلل التى تشوّه نساء كثيرات. ولكن مهما كان تواضع الصديرى الذى كانت تلبسه فلم يكن يخفى تماماً رشاقة خصرها ، ثم كانت فخفخة « فستانها » الطويل تبدو فى تفصيلته الرفيعة الشأن . ولو كان مباحاً للمرء أن يبحث عن الأفكار فى تنسيق القماش لأمكن القول أن الثنايا العديدة البسيطة فى ردائها كانت تبلغ بها مصافّ أعلى النبلاء . وعلى الرغم من ذلك كانت تفتضح ضروب الضعف الثابتة عند المرأة من مدى العناية الدقيقة التى تبذلها

فى يدها وقدمها . ولكن إذا كانت تكشف يدها وقدمها فى بعض المتعة ، فقد كان يصعب على أشد المنافسات دهاء أن تكتشف فى حركاتها أثر عناية أكبر مما يلزم حيثما بدت عفوية أو كانت راجعة إلى عادات طفولية . وكانت هذه البقية من الدلال تغتفر مع شىء من التغاضى الرقيق .

ولا يستطيع المرء أن يعبر مارا بهذه الكومة من الملامح ، وهذه المجموعة من الأشياء الصغيرة التى تؤدى إلى جمال المرأة أو قبحها ، وإلى فتنتها أو عدم قبولها ، دون أن يأخذ فى بيانها ، وبخاصة عندما تكون الروح كما هو الحال عند السيدة « ديجليمون » واسطة العقد بين كل التفصيلات بحيث فرضت عليها وحدة شهية . كذلك كانت هيأتها متناسبة تماماً مع طابع وجهها ومع أناقة زيها . فى بعض السن فقط تعرف بعض النساء المنتقاة وحدها كيف تنسق لغتها مع وضعها ، فهل الحزن أو الهناء والسرور هو الذى يعير المرأة فى سن الثلاثين ـ المرأة السعيدة أو الشقية ـ سر ذلك المحيا الفصيح؟ سيظل ذلك دائماً لغزاً حيا يفسره كلٌّ وفقاً لرغباته أو أمانيه أو نظامه . وكان كل شىء ـ الطريقة التى تحفظ بها مرفقيها مستندين إلى ذراعى مقعدها ، وتصل أطراف أصابعها فى كل يد على طريقة اللاعب ، واستدارة رقبتها ، وعدم الاعتناء بجسدها الضعيف المرن فى وقت معاً الذى كان يبدو مكسوراً برشاقة فوق المقعد ، وتخلية ساقيها ، وعدم المبالاة بوضعها ، مع حركاتها

المليئة بالتعب ــ كل شيء كان يوحي بامرأة لا تجد أية متعة في الحياة، ولم تعرف أي لذائذ الحب ، ولكن عاشتها في الأحلام ، وتنحني تحت الأثقال التي تجثم بها الذاكرة فوقها .. امرأة يئست منذ وقت طويل في المستقبل ، وفي نفسها .. أو امرأة خالية من المشغوليات تأخذ الفراغ على أنه عدم .

وأعجب « شارل ديفانديتيس » بهذه اللوحة الرائعة ، ولكن بوصفها نتاج صنعة أكثر براعة من السيدات العاديات ، وكان يعرف « ديجليمون » . ومن أول نظرة يلقيها على تلك المرأة ـ التي لم يكن قد رآها من قبل ـ استطاع الدبلوماسي الشاب حينذاك أن يتعرف على اختلال النسب والتناقضات الشديدة إذا شئنا استخدام اللفظ القانوني بين الشخصين ، بحيث صار من المستحيل بالنسبة إلى الماركيزة أن تحب زوجها ، وبرغم ذلك تمسكت السيدة « ديجليمون » بسلوك لا لوم عليه ، ولا تثريب وبقيت فضيلتها مثار تقدير أعلى من كل الأسرار التي يستشعرها فيها من يلاحظها . وبمجرد انقضاء حركة الاندهاش الأولى بحث « ديفانديتيس » عن أفضل طريقة للاقتراب من السيدة « ديجليمون » وأراد بحيلة تافهة من حيل الدبلوماسية أن يربكها لكي يعرف كيف تستقبل إحدى البلاهات .

قال وهو يجلس بالقرب منها : سيدتي ، لقد علمت عن طريق فضول موفق أنني حصلت ـ لا أدري بأي صفة ـ على حظ التفاتك . إنني أدين

لك بتشكراتي بالقدر الذي يناسب ما لم أحظ به إطلاقاً من الفضل المماثل ؛ ولعلك تحصين علي أيضاً أحد أخطائي . وبرغم ذلك فلا أود أن أكون متواضعاً . .

قالت وهي تضحك : لاشك أنك مخطئ ياسيدي إذ يجب أن يترك الغرور لأولئك الذين لا يملكون سواه يضعونه على واجهتهم .

وبدأت محادثة حينذاك بين الماركيزة والشاب اللذين طرقا ــ وفقاً للعرف الجاري ــ في لحظة واحدة جملة من الموضوعات : التصوير والموسيقى والأدب والسياسة والناس والأحداث والأشياء . ثم أدركا في منحدر غير محسوس الموضوع الأبدي للمحادثات الفرنسية والأجنبية وهو موضوع الحب والعواطف والنساء .

ــ إننا عبيد .

ــ إنكن ملكات .

ومن الممكن أن تخلص العبارات المطيقة المتبادلة بين « شارل » والماركيزة إلى هذا التعبير البسيط عن كل الأحاديث الحاضرة والمستقبلة الجارية على هذا النحو . ألا تعني هاتان الجملتان دائماً أن تقولا في وقت واحد « اجعلي حبك لي .. سوف أحبك » .

صاح شارل « ديفانديتيس » برقة : سيدتي ، إنك تجعلينني أندم ندماً شديداً لمغادرة باريس ، فمن المؤكد أنني لن أجد في إيطاليا ساعات بمثل هذه الطاقة التي جرت الآن .

– من المحتمل أن تعثر على السعادة ياسيدى ، وهى أفضل بكثير من كل هذه الأفكار الذكية ، صادقة كانت أو كاذبة ، التى تقال كل ليلة فى باريس .

وحصل « شارل » – قبل أن يحيى الماركيزة – على الإذن بزيارتها من أجل تقديم تحيات الوداع . واعتبر نفسه سعيداً جداً لأنها أعطت رجاءه شكلا من أشكال الإخلاص عندما راح يغط فى نومه فى نفس الليلة أو فى أثناء النهار فى اليوم التالى ، إذ استحال عليه أن يطرد ذكرى تلك المرأة . فأحياناً كان يتساءل : فيم تمييز الماركيزة له ؟ ماذا كانت أغراضها عندما طلبت رؤيته ؟ وبنى على ذلك تعليقات لا تنفد . وأحياناً كان يعتقد أنه وجد الدوافع إلى هذا الفضول فينتشى عند ذاك بالأمل أو يبرد . وفقاً للتفسيرات التى كان يفسر لنفسه بها هذا التمنى المهذب الشائع فى باريس ، وأحيانا كان ذلك هو كل شىء وأحياناً لم يكن ثمة شىء . وفى النهاية أراد أن يقاوم ذلك الميل الذى كان يجذبه نحو السيدة « ديجايمون » ولكنه ذهب إليها . فإن هناك أفكاراً نطيعها دون أن نعرفها ، فهى توجد فينا دون أن نعلم . وبرغم أن تلك الفكرة كان يمكن أن تبدو متناقضة أكثر مما تبدو صحيحة فإن كل شخص ذى إيمان صادق يجد فيها ألف دليل فى حياته .

وعندما ذهب إلى بيت الماركيزة رضخ « شارل » لإحدى العبارات القائمة سلفاً ضمن تجربتنا ؛ وليست غزوات فكرنا فى النهاية إلا تطورات

حسية . « فالمرأة فى سن الثلاثين » تجد ميولاً لاتقاوم نحو شاب ، ولا شىء أكثر طبيعية وأشد نسيجاً وحبكة وأفضل فى التعيين سلفاً من الارتباطات العميقة التى تعرض نماذجها فى المجتمع بين امرأة مثل الماركيزة وشاب مثل « ديفاندينيس » . والواقع أن « الفتاة » تكون عادة ذات أوهام جمة وعديمة التجربة أكثر مما ينبغى ، وذات جنس يبالغ فى تحالفه مع حبها إلى درجة أن الشاب لا يمكن أن يرضى غروره بسببها فى حين تعرف « المرأة » عادة كل مدى التضحيات الضرورية . فهناك حيث تنقاد « إحداهما » للفضول والإغراءات الغريبة على إغراءات الحب تكون « الثانية » مطيعة لعاطفة واعية . « فالأولى » تستسلم و« الثانية » تختار أليس هذا الاختيار نفسه سلفاً تملقاً ضخماً ؟

وتكون « المرأة » المجربة فيما يبدو مزودة بمعرفة تكاد تكون دائماً قد دفعت ثمنها غالياً من تعاستها ، فتعطى أكثر حين تعطى من نفسها ، فى حين لا تستطيع « الفتاة » الجاهلة السريعة التصديق فى عدم علمها بشىء أن تقارن وتوازن ، أو أن تقدر شيئاً قدره . إذا أنها تتقبل الحب وتدرسه . فإحداهما تثقفنا وتنصحنا فى السن الذى نعشق فيه بأن نرخى أزمتنا للقياد ، حيث تكون الطاعة نفسها متعة ولذة ، على حين تريد الأخرى أن تتعلم كل شىء ، وتكشف سذاجتها حيثما أظهرت الأولى رقتها . وبينما لا تعطيك تلك فرصة الانتصار غير مرة واحدة ، ترغمك هذه على النزال المتصل . والأولى لا تملك سوى الدموع

والمتع ، فى حين تملك الثانية الشهوات وتأنيب الضمير .

ولكى تصبح فتاةٌ عشيقة لابد أن تكون فاسدة إلى حد كبير ، وعندئذ يفارقها المرء مشمئزاً . أما المرأة فتجد ألف وسيلة للاحتفاظ بقدرتها وكرامتها معاً فى وقت واحد. وبينما تكون الأولى خاضعة خضوعاً مطلقاً، وهى تبذل ضمانات الراحة التعيسة ، تتنازل الثانية عن الكثير من أجل ألا تتطلب من الحب آلاف التحولات الخاصة به . فالواحدة تتخلى عن شرفها بمحض إرادتها فى حين ترتكب الأخرى جناية قتل أسرة بأسرها لمصلحتك . ولا تملك الفتاة سوى دلالها ؛ وتعتقد أنها عبرت عن كل شىء حين تخلع ملابسها ، فى حين تملك المرأة العديد من التعبيرات والأقوال وتتخفى وراء آلاف الأقنعة ؛ فهى تتحسس وتربت على كل ألوان الزهو والغرور ؛ أما المستجدة فلا تتملق سوى لون واحد حسب من هذه الألوان .

ويجيش بانفعالات المرأة فى سن الثلاثين تردد ورعب وخوف واضطراب مما لا يلقاه المرء إطلاقاً فى حب الفتاة . وعند بلوغ هذه السن تسأل المرأة الشاب أن يرد إليها التقدير الذى ضحت به من أجله ؛ إذ أنها لا تحيا إلا من أجله ، وتشغل نفسها بمستقبله ، وتريد له حياة جميلة ، وتنظمها له على أروع صورة ، وتطيع وترجو وتأمر ، تضع من نفسها وتعلو بنفسها ، وتعرف كيف تواسى فى آلاف المناسبات ، حيث لا تعرف الفتاة سوى التأوه . وفى النهاية تستطيع المرأة

فى سنّ الثلاثين — بالإضافة إلى كل المحاسن التى يتميز بها وضعها — أن تجعل من نفسها فتاة ، وأن تلعب كل الأدوار ، وأن تتميز بالحياء والخفر، وتتحلى حتى بالشقاء . فبين كل منها ذلك الاختلاف الذى يصعب قياسه عادة بين ما يكون متوقعاً وما لا يُتوقع ؛ أو بين القوة والضعف . فترضى المرأة فى سن الثلاثين كل شىء وليس ضرورياً أن ترضى الفتاة شيئاً وإلا انحدرت بكيانها .

وتنمو هذه الأفكار فى قلب الشاب ، وتؤلف لديه أقوى العواطف والأهواء ، لأن هذه هى التى أوحدت لديه بين العواطف المصطنعة الصادرة عن العرف الأخلاقى وبين عواطف الطبيعة الحقيقية .

ويكون عادة الإجراء الرئيسى الحاسم فى حياة النساء على وجه الدقة هو الذى تنظر إليه المرأة دائماً بوصفه غير ذى دلالة ؛ فإذا تزوجت المرأة لم تعد تنتمى إلى أحد ، وإنما تصبح ملكة المسكن اليقى وعبّدته . ولا تتفق قداسة النساء مع واجبات المجتمع وحرياته ، وتحرير النساء إفساد لهن . وعند الموافقة على حق نفاذ غريب إلى محراب الأسرة ، أليس فى ذلك خضوع ونزول عند رغباته ، وعندما تجذبه المرأة إلى الداخل ، أليس ذلك خطأ ، أو بتعبير دقيق أليس ذلك ابتداء للخطأ ؟ لابد من قبول هذه النظرية فى كل صرامتها أو تبرئة الأهواء .

ولقد عرف المجتمع فى فرنسا حتى اليوم كيف تبقى فى وسط المسافة ؛ إذ لا يعبأ أهل فرنسا بالشقاء ، وكأنهم أهل (إسبارطة) الذين كانوا

يعاقبون عدم الحذق كما لو كان هو سبب السرقة . ولكن قد يكون هذا النظام حكيما جداً ؛ ذلك أن الاحتقار العام ينشئ أبشع العقوبات جميعاً فى أنه ينال من المرأة فى قلبها . وينبغى أن يتمسك النساء كلهن بأن يكنّ موضع تشريف ؛ لأنهن لا يستطعن العيش بدون الاحترام والتقدير . إنهن كذلك يطلبن من الحب أول عاطفة . فأشد النساء فساداً من بينهن يشترطن قبل كل شىء عفواً وغفراناً عن الماضى ويتبعن مستقبلهن ويسعين لإفهام العشيق الجديد أنهن يستبدلن التكريمات التى يأباها عليهن المجتمع بالهناء الذى لا يقاوم . وليست بامرأة تلك التى تستقبل شاباً لديها لأول مرة ، ولا تدرك بعض هذه الأفكار عندما تكون بمفردها معه ، وعلى الخصوص إذا كان ذلك الشاب مثل « شارل ديفاندينيس » تامّ التكوين ولطيفاً. وبالمثل قليل جداً من الشبان تنقصه إقامة بعض أمانيه الخفية فوق واحدة من ألف فكرة مما يسوّغ حبه الفطرى للنساء الجميلات اللطاف السخيات البائسات على نحو ما كانت السيدة « ديجليمون » .

كانت الماركيزة مضطربة ، وهى تنتظر الإخطار بوصول السيد « ديفاندينيس » وأوشك ذلك أن يكون مخجلا برغم التأكيد الذى يكاد يكون نوعاً من العادة لدى الدبلوماسيين ، غير أن الماركيزة لم تلبث أن أعطت نفسها تلك المسحة العاطفية التى تحتمى تحتها النساء ضد تفسيرات الغرور . وتستبعد هذه الهيئة كل فكرة خلقية ، وتجعل

الأمر من تصبب العاطفة ، إن صح هذا التعبير ، مع تلطيفه بأساليب من الآداب العامة . وتبقى النساء فى ذلك الوضع المبهم عندئذ أطول مدة يرغبن فيها كأنهن عند تقاطع الطريق الذى يؤدى إما إلى الاحترام أو إلى عدم المبالاة أو إلى الهوى الشديد .

وفى سن الثلاثين فقط تستطيع المرأة أن تعرف حيل هذا الموقف ، فهى تعرف كيف تضحك فيه ، وكيف تمزح ، وكيف تترقق دون أن تعرض نفسها لأية شبهة . وهى تملك عندئذ الكياسة اللازمة ؛ لكى تهاجم كل خيط الحساسية فى الرجل ، ولكى تدرس الأصوات التى تستخرجها منها. فصمتها على نفس مستوى خطورة أقوالها . ولا تستطيع إطلاقاً إذا كانت فى تلك السن أن تعمد إلى تخمين أصريحة هى أم زائفة ؟ أهى تسخر أم أنها ذات إيمان صادق فى أمانيها ؟ فبعد أن تكون الواحدة منهن قد أعطتك حق النزال أمامها ، تستطيع فجأة بكلمة أو بنظرة أو بإحدى الحركات التى يعرفن مدى قوتها، أن تنهى النزال ، وأن تهجرك ، وأن تبقى عشيقة سرك مع احتفاظها بحريتها فى أن تضحى بك فى دعابة ، وفى أن تنشغل بك محتمية بضعفها وبقوتك . وبرغم أن الماركيزة احتلت مكانها فى أثناء هذه الزيارة الأولى ، فوق تلك الأرض المحايدة ؛ عرفت كيف تحافظ هنالك على أعلى كرامة للمرأة . فقد كانت آلامها الخفية دائماً فوق مرحها المصطنع كسحابة خفيفة تحجب الشمس بطريقة ضعيفة وخرج «ديفاندينيس» بعد أن كان قد استعذب خلال تلك المحادثة لذات

مجهولة . ولكنه بقى مقتنعاً بأن الماركيزة كانت من تلك النساء اللاتى يكلف غزوهن غالياً إذا أراد المرء أن يشرع فى حبهن .

قال بعد خروجه : سوف تكون تلك عاطفة من العواطف الطويلة المدى ، أو تجاوباً يجهد « نائب رئيس» طموح مثلى ! وبرغم ذلك لوأننى أردت حقًّا .. إنه أمر مقدور .

لو أننى أردت حقًّا ! قد أطاحت أمثال هذه العواطف دواماً بأصحاب المزاج العنيد . وفى قرنسا يؤدى حب الذات إلى الهوى الشديد .

وعاد « شارل » مرة أخرى إلى السيدة « ديجليمون » وأدرك أنها تجد متعة فى محادثته . وبدلا من أن يستسلم عندئذ بسذاجة إلى هناء الحب ، أراد أن يلعب دوراً مزدوجاً ، فحاول الظهور بمظهر العاشق ، ثم حاول تحليل سير هذه الحيلة الماكرة ببرود ، أى أن يكون محبًّا ودبلوماسيًّا معاً . ولكنه كان كريماً وشابًّا ، وكان لابد أن يسوقه هذا الاختبار إلى حب بغير حدود ، وذلك لأن الماركيزة كانت سواء مصطنعة أم طبيعية أقوى منه دائماً . وفى كل مرة يخرج « شارل » من بيت السيدة « ديجليمون » كان يصر على حذره ، فيخضع مواقف التقدم التى كانت روحه تمرّ بها لتحليل صارم يؤدى إلى بَتْر انفعالاته الخاصة .

قال لنفسه فى الزيارة الثالثة : اليوم أدركت من كلامها أنها كانت شقية جدًّا ، ووحيدة فى الحياة ، ولولم تكن ابنتها لرغبت فى الموت بتلهف شديد . لقد كانت فى حالة إذعان كامل . والواقع أنى لست أخاً لها

ولا قسيس الاعتراف ... فلماذا أسرّت إلى بكل أحزانها ؟ إنها تحبنى .

وبعد يومين لعن الأخلاق الحديثة وهو فى الطريق إليها ، وجعل يحدث نفسه : « يأخذ الحب لون كل قرن ، فى ١٨٢٢ كان مذهبيًّا ؛ وبدلا من أن يثبت نفسه على نحو الزمن السالف بوقائع ، صار موضع نقاش ، وموضع تعليق ، وموضع خطب المنابر . وخلصت النساء بشأنه إلى ثلاث وسائل : فهن أولا يحاولن أن يضعن عاطفتنا موضع التساؤل ويرفضن أن يمتحننا القدرة على الحب بقدر ما يحببن ، دلال ! بل تحدٍّ حقيقٍ حملته لى الماركيزة هذه الليلة . ثم إنهن يظهرن بمظهر الشديدات التعاسة كى يثرن أريحيّاتنا الطبيعية أو حبنا الذاتى . ألا يدعو إلى ملق الشاب أن يجد نفسه يسرّى عن نكبة كبيرة ؟ وفى النهاية هن مصابات بهوس العذرية أو البكارة ! ولا بد أنها ظنت أننى أنظر إليها على أنها عذراء لم تمسّ . لاشك أن ثقتى الصادقة تستحق أن تصير نظرية رائعة » .

وفى يوم من الأيام بعد أن أجهد أفكاره عن التحدى تساءل : « إذا كانت الماركيزة مخلصة ، كانت كل هذه الآلام فى مقدور بشر ، فلماذا تظهر بهذا الإذعان ؟ لقد كانت تعيش فى عزلة عميقة ، وتقتات فى صمت أحزانها التى جعلته يستنتجها ويدركها بصعوبة ، من لهجة مقصورة فى الهتفات » .

ومنذ تلك اللحظة اهتم « شارل » اهتماماً حارًّا بالسيدة « ديجليمون »

وبرغم ذلك وجد « ديفانديبيس » – وهو فى طريقه إلى موعد لقاء معتاد صار بالنسبة إليهما ضروريًا كأنها ساعة محجوزة بغريزة متبادلة – وجد أن عشيقته لاتزال بارعة أكثر مما هي صادقة ، وكانت قولته الأخيرة هى : « هذه المرأة بالتأكيد ماهرة جداً » .

دخل ووجد الماركيزة فى وضعها المفضل ، وهو وضع ملىء بالاكتئاب ؛ ورفعت عينيها نحوه دون أن تبدر منها حركة . وألقت إليه واحدة من تلك النظرات المليئة التى تشبه الابتسامة ، وعبرت السيدة « ديجليمون » عن ثقة وصداقة حقيقية ، ولكن لم يصدر أى تعبير عن الحب . وجلس « شارل » ولم يستطع أن ينطق بكلمة . فقد كان منفعلا بأحد تلك الإحساسات التى يعوزها التعبير .

قالت بنبرة صوت عطوف : « ماذا بك ؟ »

– لا شىء . بلى .. أفكر فى شىء لم يشغلك إطلاقاً إلى الآن .

– وما هو ؟

– ولكن ... لقد انتهى المؤتمر .

– هيه ... هل يجب إذن أن تذهب إلى المؤتمر ؟

وكانت الإجابة المباشرة أكثر بلاغة وأشد رقة من كل التصريحات ؛ غير أن « شارل » لم يودها . وأبدت هيئة السيدة « ديجليمون » صراحة وسلامة نية فى صداقتها تحطم كل تدبيرات الغرور ، وكل الآمال فى الحب ، وكل التحديات الدبلوماسية . وكانت تجهل – أو تظهر بمظهر

من تجهل تماماً – أنها موضوع حب . وعندما رجع « شارل » إلى نفسه بارتباك تام اضطر إلى أن يعترف بأنه لم يأت بفعل ، ولم يتبجح بقول يسمح لتلك المرأة بأن تفكر فى ذلك . ووجد السيد « ديفانديبيس » الماركيزة فى أثناء تلك السهرة كما كانت دائماً : بسيطة ، عطوفاً صادقة فى ألمها ، سعيدة بأن يكون لها صديق ، فخور بأن تلقى روحاً استطاعت أن تصغى لروحها . لم تكن تذهب إلى أبعد مما هو موجود أمامها ، ولم تكن تفترض أن امرأة تستطيع أن تقع فى إغراء مرتين . ولكنها عرفت الحب واحتفظت به للآن ، وهو لا يزال يدمه فى قاع قلبها . ولم تكن تتخيل أن السعادة تستطيع أن تحمل إلى امرأة مرتين هذه النشوات ، لأنها لم تكن تعتقد فقط فى الفكر ، ولكن فى الروح أيضاً . ولم يكن الحب عندها ضرباً من الإغواء ، لأنه كان يطابق كل الإغراءات النبيلة .

وعندئذ عاد « شارل » شاباً وقهره رونق ذلك الطبع العظيم ، وودّ لو يتقدم فى معرفة كل هذه الأسرار الخاصة بهذا الوجود الذى أذبلته المصادفة أكثر مما أذبلته خطيئة ما . ولم تلق السيدة « ديجليمون » سوى نظرة إلى صديقها وهى تسمعه يستفسر عن تزايد الحزن الذى زوّد جمالها بكل تناسقات الشقاء ، ولكن كانت هذه النظرة العميقة كخاتم يُمهر به عقدٌ على .

– لا تسلنى مثل هذه الأسئلة بعد الآن ... منذ ثلاث سنوات ، وفى يوم مثل اليوم ، مات ذلك الذى كان يحبنى .. الرجل الوحيد الذى

كنت أزمع أن أضحى من أجل سعادته وهنائه، ولو كان ذلك على حساب قدرى وكرامتى ... مات لينقذ سمعتى وشرفى . ولقد انتهى ذلك الحب شاباً بريئاً مليئاً بالغرور . لقد جرفتنى الغواية بما يدفع بنات عديدات إلى الضياع .. برجل ذى أشكال مقبولة ولكنه لا يساوى شيئاً . قبل أن أستسلم لعاطفة مشبوبة دفعنى إليها قدر فريد . وقد جردنى الزواج من آمالى واحداً بعد الآخر . واليوم فقدت السعادة المشروعة ، كما خسرت السعادة التى تسميها إجرامية ، دون أن أعرف ما هى السعادة. ولم يبق لى شيء . وإذا كنت لم أعرف كيف أموت فعلىّ أن أظل على الأقل مخلصة لذكرياتى .

ولم تبك وهى تقول هذه الكلمات ، وخفضت عينيها ، ولفت أصابعها التى كانت قد شبكتها وفقاً لحركتها المعتادة لفاً خفيفاً ، وقالت ذلك ببساطة ، ولكن لهجة صوتها كانت لهجة يأس عميق بالدرجة التى تبدو فى عمق حبها ، ولم تدع أى أمل « لشارل » واستهوى « ديفانديس » ذلك الوجود الرهيب مترجماً فى ثلاث عبارات ، ومعلقاً عليه فى صورة لفة يد ، ثم ذلك الألم القوى فى امرأة ضعيفة ، وتلك الهوة السحيقة داخل رأس جميل ، وأخيراً الكآبات ودموع حداد ثلاث سنوات استهواه ذلك كله ، وبقى صامتاً فى تواضع إزاء تلك المرأة العظيمة النبيلة . ولم يعد يرى أىّ جمال مادى من ضروب الجمال اللذيذة الكاملة ، ولكنه صار يرى الروح الحساسة على هذا النحو من أعلى

درجات الكمال ولاقى فى النهاية ذلك الوجود المثالى الذى طالما حلم به وهماً، وطالما ناداه بشدة، كل أولئك الذين يبثون الحياة فى العشق، ويبحثون عنه فى حماس ، وشوق ، وغالباً ما يموتون قبل أن يستطيعوا التمتع بكل كنوزه التى حلموا بها .

ووجد « شارل » أن أفكاره كانت ضيقة الأفق وهو يسمع لغة كلامها، أمام ذلك الجمال الرفيع . وإزاء عدم قدرته ـ حيث كان ـ على قياس تلك الأقوال بالنسبة إلى سمو ذلك المشهد برغم كل ما فيه من بساطة ورفعة ، أجاب بأفكار مبتذلة حول مصير النساء .

ـ سيدتى . لابد من معرفة كيفية نسيان الآلام أو حفر مقبرة لصاحبها .

ولكن العقل ضئيل دائماً بالقياس إلى العاطفة . فالعقل محدود بطبيعة الحال ككل ماهو وضعى ، فى حين أن العاطفة غير نهائية . والتفكير العقلى ـ حينما وجب الإحساس ـ من أخص صفات الأرواح الخالية من الإدراك . وقد بقى « ديفانديس » صامتاً ، وظل يتأمل السيدة « ديجليمون » ثم انصرف . وكأنما وقع فريسة أفكار جديدة جعلت تُكبر من المرأة ، فصار أشبه ما يكون بالمصور الذى ظل يتعامل مع أنماط عادية كنماذج فى مرسمه إلى أن لقى فجأة « منيموزين »[1] أم عرائس المتحف ... أكثر التماثيل القديمة جلالا ، وأقلها من حيث

(١) أم العرائس فى اليونان القديمة وابنة أورانوس وآلهة الحلقة .

التقدير . وصار « شارل » مولهاً ولهاً عميقاً . وأحب السيدة «ديجليمون» بذلك الإيمان الصادق الذى يتميز به الشباب مع تلك الحمية التى تمنح العواطف الأولى سخاء لا يوصف ، وسلامة نية لا يستعيدها الرجل إلا وهى حطام ، عندما يحب مرة أخرى فيما بعد : عواطف لذيذة ، وتشهاها بلذة فى الغالب النساء اللائى يبتعثنها . لأنهن يستطعن فى سن الثلاثين الجميلة ، وقد بلغن ذروة الشاعرية فى حياتهن ، أن يحتضن كل خط السير ، وأن يرين أيضاً الماضى كالمستقبل . فتعرف النساء إذن كل قدر الحب ، ويستمتعن به خشية فقدانه ، عندئذ تكون روحهن لاتزال حلوة من الشباب الذى يشرع يهجرهن ، وتتقوى عواطفهن بالمستقبل الذى يخيفهن .

قال « ديفانديتيس » هذه المرة وهو يفارق الماركيزة : «إننى أحبّ ، ولسوء حظى أقع على امرأة مقيدة بذكرياتها ، ويصعب الصراع إذا كان ضد ميت لم يعد موجوداً ولا يستطيع أن تصدر عنه حماقات ، فلا يسىء إلى أحد إطلاقاً ، ولا نعود نرى منه إلا أنبل الصفات . أليس معنى ذلك الرغبة فى الهبوط بالكمال ، أكثر من محاولة قتل مفاتن الذاكرة والآمال التى تظل حية بعد عشيق ضائع ، لمجرد أنه لم يوقظ على التحديد سوى الرغبات ، وهى أجمل مافى الحب ، وأشد مافيه فتنة وإغراء ؟ »

وقد كانت هذه الفكرة الحزينة الناجمة عن التثبيط ، وعن تخوف

الفشل ، مما يبدأ به عادة حب صادق ، آخر تدبير لدبلوماسيته المختصرة ومنذ ذلك الوقت لم تعد لديه أية فكرة خلفية . وصار لعبة فى يد حبه ، وضاع فى تفاهات تلك العادة غير ذات ... التفسير التى تغتذى من كلمة ومن سكوت ومن عشم مبهم . وقد أراد أن يكون حبه « أفلاطونياً » وجاء كل يوم يستنشق الهواء الذى تستنشقه السيدة « ديجليمون » ، متخذاً من بيتها قشرة صدفية ومصاحباً لها فى كل مكان ، مأسوراً بطغيان عاطفة شديدة تمزج أنانيته بتفانيه المطلق . فللحب غريزته ، وهو يعرف كيف يجد طريقه إلى القلب كأضعف الحشرات عندما تمشى نحو زهرتها بإرادة لا تقاوم ولا يخيفها شىء .

كذلك ألا يكون المصير غير محدد عندما تصدق العاطفة ؟ أليس ثمة مسوغ لإلقاء المرأة فى كل مقلقات الفزع ، إذا صارت تظن أن حياتها تعتمد — على الأكثر أو على الأقل — على حقيقة أو طاقة أو ثبات مما يضعه عاشقها فى رغباته ؟ الواقع أنه من المستحيل على المرأة وعلى الزوجة أو الأم ، أن تصون نفسها ضد حب أحد الشبان . كل ما فى قدرتها أن تمتنع عن الاستمرار فى لقائه فى اللحظة التى تستخلص فيها سر القلب ، ذلك الذى تخمنه المرأة دائماً . غير أن ذلك الدور يبدو حاسما جداً كى تستطيع امرأة أن تقطع به فى سن يثقل فيه الزواج ، ويصير مصدر قلق وملل ، وتصبح فيه العلاقة الزوجية فى مرحلة أكبر من مرحلة الفتور : إذا لم يكن زوجها قد هجرها سلفاً .

فإذا كانت النساء قبيحات سرهن وأرضاهن حب يجعل منهن جميلات . وإذا كن شابات جذابات فلابد أن يكون الإغراء من نفس مستوى مفاتنهن، أى أن يكون الإغراء كبيراً. وإذا كن فاضلات فإن العاطفة الأرضية السامية الجليلة تحملهن على أن يجدن أى غفران ، فى عظمة التضحيات نفسها التى يقدمنها إلى عشاقهن. وفى مجد الدخول فى ذلك الصراع الشاق . وفى كل موضع شرك . كذلك مامن درس أشد مما ينبغى إذا قيس بمثل هذه الإغراءات القوية . والوقاية الوحيدة للأخلاق البيتية هى الحبس الذى كان مأخوذاً به قديماً إزاء المرأة فى اليونان وفى الشرق ، وصار شائعاً اليوم فى إنجلترا. ولكن تحت سيطرة هذا النظام تنعدم كل زخارف المجتمع : فلا تصير المجتمعات أو الآداب أو الأناقة فى الأخلاق ممكنة . وعلى الأمم أن تختار .

وعلى ذلك وجدت السيدة « ديجليمون » حياتها عقب بعض الشهور من لقائها الأول مرتبطة ارتباطاً شديداً بحياة « ديفاندينيس » فتعجبت بغير حيرة ، بل تكاد تكون بلذة خاصة ، فى أن تشاركه أذواقه وأفكاره . فهل استقت هى أفكار «ديفاندينيس» أم أن «ديفاندينيس» قد صار متعصباً لأصغر نزواتها ؟ وكانت تلك المرأة الرائعة التى تملكها تيار العاطفة سلفاً قد قالت لنفسها بالنية السليمة الرائقة عند الخوف : أوه ! سأكون مخلصة لذلك الذى مات من أجلى .

وكان « باسكال » قد قال : « إن الشك فى الله إيمان بوجوده » .

وعلى نفس الوتيرة لا تدخل المرأة فى عراك مع نفسها إلا حين تكون قد انشغلت . وظلت الماركيزة فى اليوم الذى اعترفت لنفسها فيه بأنها كانت معشوقة تطفو بين ألف من العواطف المتعارضة . وتكلمت الخرافات فى التجربة بلغتها . هل ستصبح سعيدة ؟ هل يمكنها أن تعثر على السعادة خارج القوانين التى أقام بها المجتمع أخلاقه بالحق أو بالباطل ؟ حتى اليوم لم تكن الحياة قد أعطتها سوى المرارة . هل كان ثمة نهاية سعيدة ممكنة للارتباطات التى توحد بين كائنين منفصلين بحكم اللياقات الاجتماعية ولكن هل تتكلف السعادة ثمناً باهظاً ؟ وهذه السعادة التى يطلبها الناس فى حماس ، والتى يعد البحث عنها طبيعياً ، قد تصادفها فى النهاية ! ومن شأن الفضول أن يدافع دائماً عن قضية العشاق .

ووصل « ديفاندينيس » وهى قائمة وسط هذه المناقشة السرية . وأخفى حضورها شبح العقل « الميتافيزيقى » (عقل فلسفة ما وراء الطبيعة) . وإذا كانت هذه التحولات المتتالية التى تقع فى سياقها عاطفة سريعة لدى الشاب أو لدى المرأة فى سن الثلاثين على هذا النحو ، فقد تأتى لحظة تلغى فيها الاستدلالات مع فكرة واحدة أخيرة تختلط بإحدى الرغبات وتقويها . وكلما طال أمد المقاومة كان صوت الحب عندئذ أقوى وأشد . وهنا يتوقف إذن هذا الدرس أو تلك الدراسة حول موضوع « المسلوخ» (أى تقديم حيوانات رفع عنها جلدها للدراسة فى الفنون الجميلة عامة) إذا كان من المسموح به استعارة أحد هذه التعبيرات

الشائقة من فن التصوير لأن هذه القصة تشرح مخاطر الحب وآلية
تطوره أكثر مما تصوره .

غير أنه منذ تلك اللحظة كانت تضفى بعض الألوان على هذا
الهيكل العظمى فتكسوه بنعماء الشباب ولطافته ، وتبعث الحياة فى
البدن ، وتبث الحب والقوة فى حركاته ، وترد إليه البريق والجمال
والإغراءات العاطفية وميول الحياة .

ووجد «شارل» السيدة «ديجليمون» مشغولة الفكر . وبمجرد أن قال
لها بهذه النغمة النفاذة التى ملأتها فتن القلب الرقيقة بقدرة أكبر على
الإقناع : « ماذا بك ؟ » تخبطت تماماً فى إجابتها ، إذ يبوح هذا السؤال
الحلو بتفاهم روحى كامل ، وفهمت الماركيزة بغريزة المرأة المدهشة أن
الشكاوى ، أو التعبير عن الشقاء الشخصى الباطنى ، سيكون بشكل
ما لوناً من ألوان المقدمات . وإذا كان لكل من هذه الأقوال دلالة
مفهومة من الطرفين فأية هوة لن تضع فيها قدميها ؟ وقرأت فى ذاتها بنظرة
واضحة مشرقة ثم سكتت وقلدها « ديفانديتيس » فى سكوتها .

قالت أخيراً وقد ذعرت من مدى الطاقة العالية التى تمثلت فى لحظة
حلت فيها لغة العيون تماماً محل العجز عن الحديث : «إننى مريضة» .

أجاب « شارل » بصوت حنون شديد الانفعال : « سيدتى ،
الجسد والروح كلاهما يمسك أحدهما بالآخر . ولو حظيت بالسعادة
لصرت شابة ناضرة لماذا ترفضين أن تطلبى من الحب كل ما حرمك

الحب إياه ؟ هل أتعتقدين أن الحياة قد انتهت فى اللحظة التى أوشكت
أن تبدأ فيها بالنسبة إليك ؟ ضعى ثقتك فى رعاية صديق . فكم يكون
حلواً أن يكون المرء محبوباً !

— لقد صرت عجوزاً سلفاً .. ولا شىء يغفرلى — إذن — ألا أستمر
فى الألم مثلما كنت فى الماضى . وفضلا عن ذلك يجب أن يحب المرء ،
أليس هذا ما تقوله ؟ هيه !! لا حق لى فى الحب ، ولا قدرة لى عليه
ولا يعجبنى شخص فيما عداك أنت ، بعد أن صارت صداقتك تفيض
بالوداعة على حياتى ، ولن يستطيع إنسان أن يمحو ذكرياتى . وقد
أقبل الصديق ، ولكنى أهرب من العاشق . وهل من الكرم فى شىء
أن أبادل قلباً ذاوياً بقلب شاب . وأن أتلقى غوايات الحب دون
أن أستطيع اقتسامها ، وأن أكون سبباً فى سعادة لا أعتقد فيها إطلاقاً
أو أرتعد إذا فقدتها ؟ قد أقابل تضحيته وإخلاصه بالأنانية وأظل
أحكم العقل عندما يكون هو غارقاً فى المشاعر والأحاسيس كما أننى
قد أسىء بذاكرتى إلى فورة لذائذه . لا ... كما ترى ... الحب الأول
لا يحل محله حب أبداً . ثم فى النهاية أى رجل يقبل قلبى بهذا الثمن ؟

وكانت هذه الأقوال التى انطبعت فى دلال شديد آخر جهد
حكيم . «فلو تراجع ووهن عزمه فسأظل وحيدة مخلصة» . وردت هذه
الفكرة على قلب تلك المرأة وكانت بالنسبة إليها بمثابة فرع الصفصاف
المتدلى فى تراخ شديد، والذى يمسك به من يسبح قبل أن يحمله التيار .

وعند الاستماع إلى هذا القرار أفلتت من « ديفاندينيس » اختلاجة غير إرادية كانت أقوى على قلب الماركيزة من كل ما حدث قبل ذلك من ملاحقاته الماضية فما يمس قلب النساء مساً قوياً هو ما تلقاه لدى الرجال من رقة لطيفة، ومن مشاعر لذيذة بقدر ما لديهن أنفسهن؛ لأنهن يعتقدن أن اللطف والرقة هما علامتا الصدق . وكانت حركة « شارل » تفصح عن حب حقيق . وعرفت السيدة « ديجليمون » قوة حب « ديفاندينيس » من قوة ألمها . فقال الشاب ببرود : لعلك على حق . فالحب الجديد حزن جديد .

وغير موضوع المحادثة، فأخذ يتبادل الكلام فى أشياء بلا غرض ، ولكنه كان واضح الانفعال ، وينظر إلى السيدة (ديجليمون) بانتباه مركز كأنه يراها لآخر مرة . وأخيراً فارقها وهو يقول لها فى انفعال :

— « وداعاً يا سيدتى » .

— « إلى اللقاء » .

قالت ذلك بتدلل ناعم لا يدرك سره سوى صفوة النساء . ولم يجب وخرج .

وأحست بألف ندم عندما لم يعد موجوداً وعندما صار مقعده الفارغ يتكلم بدلا منه ، وأخذت تحصى لنفسها الأخطاء . وتتقدم العاطفة تقدماً ضخماً لدى المرأة حين ترى أنها قد عملت عملا غير كريم ، أو أنها جرحت روحاً نبيلة إذ لا ينبغى إطلاقاً تحدى المشاعر

السيئة فى الحب ، لأنها تكون ملائمة تماماً . ولا تذعن المرأة إلا إذا وقعت تحت طائلة الفضيلة . وقول : « الجحيم معبد بالنيات الطيبة » ليس مجرد مفارقة من أحد الوعاظ .

وظل « ديفاندينيس » لا يحضر عدة أيام . وكانت الماركيزة تنتظره أثناء كل ليلة فى ساعة الموعد المعتاد بصبر نافد ملىء بتوبيخ الضمير . والكتابة اعتراف ، فضلا عن أن غريزتها كانت تقول لها إنه سوف يعود . وأخطر الخادم بقدومه فى اليوم السادس . ولعلها لم تسمع اسمه قط يمثل هذا السرور . وقد أرعبها أن تفرح إلى هذا الحد .

قالت له : « لقد عاقبتنى عقاباً حسناً ! »

ونظر إليها « ديفاندينيس » بتعبير أبله ، وقال :

— « عاقبتك ؟ ! ... ولكن علام ؟ ! »

وكان « شارل » يفهم الماركيزة فهماً تاماً . ولكنه شاء أن ينتقم لآلامه التى كان فريسة لها منذ اللحظة التى اشتبهت فيها .

سألته وهى تبتسم « لماذا لم تأت لزيارتى ؟ »

— لعلك لم ترى أحداً إذن ؟

قال ذلك لكى يتفادى السؤال المباشر .

— لقد بقى السيد « ديرونكيرول » والسيد « مارسيه أوديسجرينيون » الصغير ها هنا ، أحدهما بالأمس ، والآخر أثناء هذا الصباح قرابة

ساعتين . ورأيت أيضاً فيما أعتقد السيدة « فيرميانى» وأختك السيدة «دليستومبر »

ألم جديد ! ألم غير مفهوم عند أولئك الذى لا يحبون فى نوع من الطغيان المكتسح الضارى الذى تكون أبسط آثاره غيرة وحشية ورغبة متصلة من أجل اختلاس الكائن المحبوب بعيداً عن كل مؤثر غريب عن الحب .

قال « ديفانديتيس » لنفسه : « ماذا ؟ تستقبل وترى أشخاصاً راضين . وتحادثهم فى حين أبقى أنا وحيداً تعيساً ! »

ودفن حزنه ، وأبقى قلبه فى أعماق صدره كتابوت الموتى فى البحر . وكانت أفكاره من النوع الذى لايقال ، ومن النوع السريع الشبيه بالأحماض التى تقتل وهى تتبخر . وبرغم ذلك غطت السحب جبينه ، وأطاعت السيدة « ديجليمون » غريزة المرأة ، وهى تشاركه هذا الحزن دون أن تلحظ ذلك . ولم تكن متواطئة مع ذلك الألم الذى أحدثته ، وأدرك « ديفانديتيس » ذلك .

وتحدث عن موقفه ، وعن غيرته ، كما لو كان ذلك افتراضاً مما يسر العشاق مناقشته ، وفهمت الماركيزة كل شىء ووقع ذلك من قلبها موقعاً قوياً بحيث لم تستطع مقاومة دموعها . ومنذ تلك اللحظة نفذا خلال أعتاب فردوس الحب . والجنة والنار ليسا سوى قصيدتين طويلتين تمثلان صيغ وعبارات النقطتين الوحيدتين اللتين يدور حولهما

وجودنا : السرور والألم . أليست الجنة وستظل دائماً صورة من لانهائية مشاعرنا التى لن تصور إلا خلال تفصيلاتها طالما كانت السعادة واحدة ... ألا تمثل النار تعذيب آلامنا غير المتناهى ، التى نستطيع أن ننظمهـا فى عمل شعرى ، لمدى الاختلافات الكبيرة بين كل منها ؟

وكان العاشقان جالسين فى إحدى الليالى أحدهما إلى جوار الآخر صامتين مشغولين بتأمل مسحة من مسحات السماء ... هى مسحة السماء حين تكون صافية تلقى فيها أشعة الشمس الأخيرة أصباغاً ذهبية وأرجوانية خفيفة . وفى تلك اللحظة من اليوم يبدو انخفاض النور ببطء شيئاً فشيئاً كما لو كان يوقظ مشاعر رقيقة . فتتذبذب عواطفنا ورغباتنا بتراخ ، ونستعذب الاضطرابات ذات الطابع العنيف وسط السكون الهادئ . وحين ترينا الطبيعة السعادة خلال صور مبهمة فإنها تدعونا إلى أن نستمتع بهذه السعادة حين تكون دانية منا ، وتدفعنا إلى الندم من أجلها إذا هربت .

ومن الصعب فى تلك اللحظات الخصبة فى نشوتها تحت مظلة من ذلك الوهج الذى تتحد انسجاماته الرقيقة فى إغراءات قلبية . من الصعب عندئذ أن يقاوم المرء رغبات قلبه ذات الفتن العديدة ! وبذلك يتضاءل الحزن وينتشى الفرح ويجثم الألم . وأبهة الليل هى علامة الرغبات التى تشجعها . ويصبح الصمت أخطر من القول وهو يبلغ العيون بكل قوة

لا نهائية السموات التى تعكسها . فإذا تكلم المرء صارت الكلمة ذات قوة لا تقاوم . أليس ثمة نور فى الصوت وحمرة فى النظرة ؟ وكما لوكانت السماء فى باطننا نحن. أو كما لو لم يكن يبدو فى السماء ؟ وبرغم ذلك كانت « جولييت » و « فانديتيس » .. لأنها استسلمت لتسمية نفسها على هذا النحو المألوف على لسان ذلك الذى كان يسرها أن تناديه « بشارل » كانا إذن يتكلمان فى موضوع بدائى خلال محادثتهما ، بعيد كل البعد عنهما . وإذا لم يعودا يعرفان معنى أقوالهما فإنهما كانا يصغيان بالتذاذ للأفكار الخفية التى كانت تغطيها تلك الأقوال . وبقيت يد الماركيزة فى يد «ديفانديتيس» وتركتها له دون أن يكون فى اعتقادها أنها كانت متفضلة بذلك عليه .

وانعطفا معاً كى يريا أحد تلك المناظر المهيبة المليئة بالجليد ، وبأكوام الثلج ، وبالظلال الرمادية التى تخضب أضلع الجبال الغريبة . وكانت إحدى هذه اللوحات ملأى بمتقابلات مفاجئة بين اللهيب الأحمر وبعض اللمسات السوداء التى تزين السماء فى شاعرية عابرة لا مثيل لها ، وأحزمة رائعة تبدو فى وسطها الشمس كالأكفان الجميلة التى تحيط بها وهى تلفظ النفس الأخير .

فى تلك اللحظة هفهفت شعور «جولييت» على خدى « فانديتيس» وأحست هى بهذا الاحتكاك الخفيف ، وانتفضت بقوة بسببه، وأرضاها ذلك أيضاً ، لأن كلامنهما كان قد وصل شيئاً فشيئاً إلى إحدى هذه

الأزمات التى لا تفسر ، حيث يبلغ الهدوء الحواس أمام مشهد رقيق حتى إن أقل صدمة تؤدى إلى ذرف الدموع ، وإلى طفح الشقاء، إذا كان القلب ضائعاً بين هذه الكآبات ، أو يزودها بلذائذ لا توصف، إذا كان ضائعاً بين دوار الحب . وضغطت « جولييت » لا إرادياً تقريباً على يد صديقها ، وأعطى هذا الضغط المغرى خجل العاشق شجاعة . وانصهرت كل أفراح هذه اللحظة . وكل آمال المستقبل ، فى هذا الانفعال... انفعال التربيتة أو الملامسة الأولى ، وتلك القبلة البريئة البسيطة التى تركتها السيدة (« ديجايمون » تقع على خدها. وكلما كانت الملاطفات هادئة كان الخطر أكبر وأقوى . ولسوء حظهما معاً لم يكن ثمة ادعاء أو تزييف . لقد كان ذلك تفاهماً بين روحين حلوتين يفصلهما القانون ، ولكن يربطهما إغراء الطبيعة . وفى هذه اللحظة دخل اللواء « ديجايمون » يقول :

— لقد تغيرت الوزارة ... واشترك عمك فى مجلس الوزراء الجديد . وهكذا أمامك فرص كبيرة لتصبح سفيراً يا « فانديتيس » .

ونظرت « جولى » و « شارل » كل إلى الآخر فى حمرة الخجل . فكان لدى كليهما نفس الفكرة ونفس تأنيب الضمير . رباط عنيف وقوى جداً بين لصين قتلا رجلا ، كما هو تماماً بين عاشقين مذنبين بسبب قبلة . وكان لابد من رد على الماركيز .

قال شارل « فانديتيس » : لا أريد أن أغادر باريس بعد اليوم » .

عاد اللواء يقول متكلفاً رقة الرجل الذى يكتشف سرًّا : «نحن نعرف السبب ، إذ أنك لا تريد أن تبتعد عن عمك كى يعلنك وارثاً لإقطاعيته» .

وهربت الماركيزة إلى غرفتها وهى تقول عن زوجها هذه العبارة المخيفة : « إنه حقًّا لشديد الغباء ! » .

٤

أصبع الرب

بين « بوابة إيطاليا» وشارع « الصحة » ، وعلى « البولفار » الداخلى الذى يؤدى إلى حديقة النباتات ، منظور جدير بأن يسحر الفنان أو المسافر المتعب من كثرة مباهج الإبصار . فإذا وصلت إلى بروز خفيف ينحنى « البولفار» « المتنزه الكبير » من عنده فى رقة المشى القائم وسط الأحراش الخضراء الصامتة ، ويصبح مظللا بأشجار كبيرة مورقة . وجدت أمامك عند قدميك وادياً عميقاً تحشد فيه مصانع تصف ريفية ، تتناثر فيها الخضرة . وتسقيها مياه قاتمة من نهر (البيفر) أومن مصانع « الجوبلان» « للسجاد » . وكان يرى فوق السفح المقابل بعض آلاف من أسطح البيوت المتزاحمة كالرءوس فى الزحام . والتى تأوى فقراء ضاحية « سان مارسو» وتطل « قبة البانثيون » مقابر العظماء » والقبة الحزينة الأسيانة الخاصة « بفال دى جراس » (مدرسة الطب العسكرية ومستشفاها) فى زهو وخيلاء كمدينة بأكملها متدرجة العلو ذات مراقٍ (مصاطب) مرسومة بشكل غريب فى طرق متعرّجة .

ومن هنالك تبدو النسب بين معالم الأثرين التاريخيين ، هائلة فتسحق

البيوت الهشة وأعلى أشجار « الحور » العالية على الوادى الصغير ، ويظهر إلى ناحية اليسار « المرصد » خلال النوافذ والممرات التى ينفذ منها الضوء مكوناً خيالات متطرفة لا تفسير لها كأنه شبح أسود هزيل . وعن بعد كان يبرق المصباح الأنيق الخاص « بالأنفاليد » (مقبرة نابليون) بين كتلة مائلة إلى الزرقة فى حدائق « اللكسمبور » والأبراج الرمادية لكنيسة « سان سولبيس » وكانت هذه الخطوط الهندسية ترى من هنالك مختلطة بأوراق الأشجار وبالظلال ، وهى تخضع بلا توقف لنزوات سماء متغيرة الألوان أو الضوء أو المنظر . فعلى بعد منك تؤثث الأبنية الخضراء ، ومن حولك تتلوى أشجار متموجة وطرق ضيقة ريفية كالثعابين . إما إلى اليمين فيمكنك أن تلمح خلال قطاع كبير من هذا المنظر الفريد بركة ماء طويلة بيضاء هى قناة (سان مارتان) ذات الإطار الحجرى المائل إلى الحمرة والمزين بأشجار « الزيزفون » والذى تحف به أبنية رومانية حقيقية خاصة بشوانى الوفر . وهناك فى آخر المسطح تختلط تلال (بلفيل) المليئة بالأبخرة والمحملة بالبيوت والطواحين ، تخلط أحداثها بما يجرى فى السحب .

وبرغم ذلك توجد مدينة لا تراها بين صف الأسطح التى تحف الوادى الصغير وذلك الأفق الذى يشبه فى إبهامه ذكرى الأطفال ... مدينة ضخمة ضائعة كما لو كانت فى هوة بين أطراف قسم « لابيتيه » وذروة مدافن « ليست » .. أى بين الألم والموت . وتصاعد منها أصوات

هدير أصم شبيه بهدير المحيط الذى يزمجر وراء صخور عالية كما لو كان يقول : « إننى هنا » . وإذا كانت الشمس تلقى أمواج ضوئها على هذا الوجه من أوجه باريس وتنقيه وتذيب خطوطه ، وإذا كانت تضىء فيه بعض نوافذه . وتغسل حجارته وتشعل الصلبان الذهبية ، وتجعل لون الحوائط أبيض وتحيل الجو إلى حجاب شفاف من شاش الجراحة ... وإذا كانت الشمس تخلق شتى المتقابلات الفنية من الظلال الخيالية . وإذا كانت السماء صافية والأرض تصطفق : وإذا كانت الأجراس تنطق ، يمكنك إذن أن ترى من هنالك جمال واحدة من هذه الإبداعات الفنية البليغة المعبرة التى لايستطيع الخيال أن ينساها إطلاقاً ، والتى ستجعلك متيماً مجنوناً بها كأنها أحد مناظر « نابولى » أو « أسطمبول » أو « فلوريدا » الرائعة ؛ إذ لاينقص هذه المعزوفة أى ضرب من ضروب الانسجام ، فهنالك تهمس ضوضاء الناس وهدوء العزلة الشاعرى وصوت ملايين الكائنات وصوت الله . هنالك ترقد عاصمة نائمة تحت أشجار السرو الداكنة فى مدافن « بيرلاشيز » .

فى صباح أحد أيام الربيع ، وفى لحظة كانت الشمس تسبغ فيها بريقاً على كل جمالات المنظر ، وقفت أتأملها مستنداً إلى شجرة ضخمة من أشجار « الدردار » التى تسلم إلى الرياح زهورها الصفراء ، ثم فكرت بمرارة أمام مرأى هذه الثروات ، وهذه اللوحات الجليلة ، بشأن الازدراء الذى نبديه نحو بلادنا اليوم حتى خلال صفحات كتبنا ،

ولعنت هؤلاء الأثرياء المساكين الذين أصابهم القرف حيال بلادنا.. فرنسا الجميلة ، فيذهبون لشراء حق مهانة وطنهم بسعر الذهب حين يزورون خطفاً أو عدواً مواقع إيطاليا التى غدت عادية إلى حد بعيد ، وحين يفحصونها من خلال نظاراتهم .

وتأملتُ باريس الحديثة بحب . وذهبتُ فى أحلامى إلى أن دوّى فجأة صوت قبلة ، فأزعج وحدتى ، ودفع بفلسفتى إلى الهرب . وفى المدشى المقابل الذى يتوج المتحدر السريع الذى تهدر المياه عند أسفله ، وعند النظر إلى ما وراء جسر «جوبلان».. اكتشفت امرأة بدت لى كأنها لاتزال شابة ، وفى هندام بسيط من أعلى لون فى الأناقة . وكأنما كان محيّا وجهها الرقيق يعكس السعادة المرحة التى تتخلل المنظر .

وأنزل شاب وسيم إلى الأرض طفلا صغيراً من أجمل ما يمكن رؤيته من الأطفال . بحيث لم أكن أستطيع أن أعرف ما إذا كانت القبلة قد دوّت فوق خدّ الأم أم فوق خدّ الطفل . وكانت تلمع فى عينى الشاب وحركاته وابتسامته وابتسامة الشابة فكرة واحدة بعينها ، ناعمة حارة. وتشابكت أذرعهما فى خفة مرحة متزايدة . وكانا يقتربان أحدهما من الآخر بتفاهم رائع فى الحركة . بحيث انشغلا بنفسيهما ، ولم يلمحا وجودى إطلاقاً. ولكن طفلا آخر بدا غاضباً ظاهر الاستياء ، وأدار لهم ظهره بحيث ألقى نظراته نحوى وعليها انطباعات تعبير أخاذ . وقد ترك

هذا الطفل أخاه يجرى بمفرده . فأحياناً يتخلف وأحياناً يسبق والدته والشاب .. وبدا هذا الطفل فى ملبسه كالآخر فى رقة بالغة . ولكن الأشكال كانت أكثر طلاوة .. وكان صامتاً ساكناً وفى وضع التعبان المخدر . لقد كانت هذه فتاة . وكان ثمة ما يشبه آلية الأفعال الغريزية فى نزهة السيدة الجميلة ورفيقها . وقد سعدا من أجل اللهو بأن جابا أرجاء المكان البسيط الذى كان موجوداً بين الجسر الصغير وبين عربة واقفة عند منعطف الطريق . وكأنهما يبدآن من جديد دوماً أعوام حياتهما . فيتوقفان ويتأمل أحدهما الآخر ضاحكين تحت تأثير نزوات الحديث الذى كان يتبدل مرة بعد مرة . فيصير مليئاً بالحياة أو سقيماً أو مجنوناً أو وقوراً .

واختفيت وراء شجرة « الدردار » الغليظة أرقب فى إعجاب ذلك المشهد اللذيذ . وكنت جديراً بلاشك بأن أشعر باحترام نحو الأسرار ما لم أكن قد رأيت من وجه البنت الصغيرة الحالمة الصامتة آثار فكر أعمق كثيراً مما يجرى فى سلوك تلك السن . وعندما استدارت أمها والشاب ، بعد أن أصبحا بالقرب منها . أخذت تميل غالباً برأسها فى مداراة . وقذفتهما كما قذفت أخاها بنظرة متهربة شاذة حقيقة . ولكن ما كان شىء ، يستطيع أن يعبر عن الرقة النفاذة ، والسذاجة الخبيثة ، والانتباه الشرس ، الذى كان ينبض فى ذلك الوجه الطفولى ذى العينين المحاطتين بدائرة زرقاء حين تربّت السيدة الجميلة أو رفيقها

على خصلات الولد الصغير الشقراء ، وحين تضغطان برفق على رقبته الطرية ، أو على الحرملة البيضاء التى كان يلبسها ، وهو يحاول فى ذلك الوقت بصبيانية الطفولة أن يمشى بجوارهما . لاشك أنه كان ثمة عاطفة رجل على هيئة الوجه الحزين الذى كانت تتمتع به تلك الفتاة الصغيرة الغريبة . لقد كانت تعانى أو تفكر .

والواقع من ذا يتنبأ بتأكيد أكبر عن موت هذه المخلوقات المزهرة ؟ أعن المرض الكامن فى الجسد ينجم ذلك ،أم عن الفكر المبكر الذى يلتهم أرواحهم التى لم تكد تنبت ؟ من المحتمل أن تكون الأم على إلمام بتلك . أما أنا فلا أعرف الآن شيئاً أبشع من فكرة شيخ مسن مطبوعة فوق جبهة طفل . ولعل التجديف يكون أقل وحشية أيضاً على شفتى عذراء . ولعل كل شيء .. الموقف الذى يكاد يكون مليئاً بالحمق لتلك الفتاة المفكرة فى تلك السن وندرة حركاتها . كل شيء كان يهمنى فيها فأخذت أتأملها بغرابة . وجعلت بشيء من الخيال المتطرف الطبيعى عند «الملاحظ » عادة أقارن بينها وبين أخيها مع تعمد أن أواجه العلاقات والاختلافات التى كانت توجد بينهما . فالأولى كانت ذات شعر أسمر وعيون سوداء وقوة سابقة على الأوان مما كان ينشئ تعارضاً غنياً مع شعر الرأس الأشقر والعيون الخضراء بلون البحر والضعف المدلل لدى الأصغر وكانت سن الكبرى بين السابعة والثامنة فى حين أن الآخر يكاد يكون فى السادسة . وكانا يلبسان على نحو واحد ،وبرغم ذلك لاحظت — وعندما

نظرت إليهما بإمعان — فوق حرامل قمصانهما اختلافاً طفيفاً ، ولكنه كشف لى فيما بعد رواية طويلة فى الماضى ، ومأساة درامية عامرة للمستقبل . وقد كان ذلك قليلا جداً .

كانت تطرز حرملة الفتاة الصغيرة السمراء حاشية ثوب بسيطة فى حين دانت تزين حرملة الابن الأصغر تطريزات جميلة تفضح سراً قلبياً وهو التفضيل المضمر الذى يقرؤه الأطفال فى أرواح أمهاتهم كما لو كان عقل الله فيهم . وكان الابن الأشقر لامبالياً مرحاً وأشبه ما يكون ببنت صغيرة إذ كانت بشرته البيضاء ذات نضارة ، كما كانت حركاته ذات دلال ، وهيئة وجهه ذات رقة . فى حين كانت الكبرى أشبه ما تكون بغلام سقيم برغم قوتها وجمال ملامحها وبريق لون وجهها ، وبدت عيناها الحادتان المجردتان من ذلك البخار الرطب الذى يهب نظرات الأطفال قدراً من الجاذبية كما لو كانتا عينى واحد من حاشية الملوك ، جففتهما نار باطنة .

وفى النهاية كان لبياضها بعض الفروق الدقيقة فى عدم التألق مع الميل إلى اللون الزيتونى ، وهو عرض من أعراض الطابع الشخصى القوى الحازم . وجاء أخوها الأصغر مرة بعد مرة يقدم إليها فى دلال مؤثر ، وفى نظرة جميلة ، وبسحنة معبرة ، كانت تأسر فناناً «كشارليه » (١٧٩٢ — ١٨٤٥) بوق الصيد الصغير الذى كان ينفخ فيه بعض لحظات ، ولكنها فى كل مرة لم تكن تجيبه إلا بنظرة متوحشة على

عبارته : « خذى يا (هيلين) . . هل تريدينه ؟ » ينطقها بصوت حنون . وكانت البنت الصغيرة قائمة ومزعجة فى سحنتها اللامبالية فى المظهر ، فلا تلبث أن ترتعد ويحمر وجهها بقوة ملحوظة عندما كان أخوها يقترب . ولكن لم يكن الطفل الأصغر يبدو كمن أدرك المزاج السوداوى الذى تميزت به أخته . وعدم اهتمامها الممزوج بالمصلحة . فأجهز بذلك على معارضة طابع الطفولة الحقيقى بعلم الإنسان الدال على الاهتمام ، والذى كان مسجلا من قبل على وجه البنت الصغيرة بحيث دفعها إلى الغموض بسحنته القاتمة .

صاح الصغير وقد انتهز فرصة جلوس أمه والشاب صامتين على جسر « جوبلان » لكى يشتكى : ماما .. « هيلين » لا تريد أن تلعب .

– دعها « يا شارل » . أنت تعرف أنها دائماً متذمرة .

واستطاعت هذه الأقوال التى نطقتها الأم بالمصادفة . واستدارت بعدها فجأة نحو الرجل الشاب ، أن تنتزع من « هيلين » دموعها ، فابتلعتها فى سكون ، وقذفت أخاها بإحدى نظراتها العميقة التى بدت لى غير مفهومة ، ثم تأملت أولا بذكاء شرير المنحدر من فوق أعلى قمة حيث كان واقفاً ثم نحو نهر « البيفر » والجسر والمنظر ونحوى أنا .

وخشيت أن يلمحنى الثنائى السعيد الذى لاشك أننى كنت أعكر صفو الحديث بينهما فانسحبت بهدوء ، وذهبت آوى خلف صف من « البيلسان » الذى أخفتنى فروعه المشجرة تماماً عن كل النظرات .

وجلست فى اطمئنان عند رأس المنحدر ناظراً فى صمت ، ومرة بعد أخرى ، إما إلى مفاتن الموقع المتغيرة ، وإما إلى البنت الصغيرة المفترسة التى كان لايزال فى إمكانى أن ألحظها من خلال الفجوات الموجودة بين صف «البيلسان» ، وبين قاعدته حيث استند رأسى فى مستوى «البولفار» تقريباً .

وحينما لم تعد « هيلين » ترانى ظهر عليها القلق ، وظلت تبحث عنى بعينيها السوداوين على بعد الممشى خلف الأشجار بفضول غير محدد . ماذ صرت إذن بالنسبة إليها ؟ وفى تلك اللحظة دوت ضحكات « شارل » البريئة فى السكون كغناء عصفور . ذلك أن الشاب الوسيم الأشقر مثله جعله يتراقص بين ذراعيه وقبله وهو يسخو عليه بالكلمات الصغيرة غير المسلسلة والحائدة عن معناها الحقيقى مما نوجهه إلى الأطفال فى ود . وابتسمت الأم لهذه الألعاب ، وأخذت تقول من وقت لآخر وبصوت منخفض بلا شك أقوالا صادرة من القلب . لأن رفيقها كان يتوقف بسعادة تامة وينظر إليه بعين زرقاء مليئة بالضوء والهيام . وامتزج صوتهما بصوت الطفل فى حنان غريب . وكان ثلاثتهم فى غاية الروعة .

وأشاع هذا المشهد الجميل وسط ذلك المنظر الرائع فى كل ماحوله عذوبة لا يمكن تصورها . امرأة جميلة بيضاء ضحوك ، وطفل حبيب ، ورجل خلاب شاب وسماء صافية . بل كل انسجامات الطبيعة كانت متوافقة كى تبعث المتعة فى الروح . ووجدت نفسى أبتسم كما لو كانت تلك السعادة ملكى .

وسمع الشاب الجميل الساعة تدق التاسعة . وبعد أن قبل رفيقته بحنان تجهمت وكادت تصبح حزينة ، وعاد هو نحو « عربة يعظلة » كانت تتقدم ببطء ويقودها خادم عجوز . واختلطت بقبقة الطفل العزيز بآخر قبلات أعطاه الشاب إياها. ثم لم يكد هذا الشاب يصعد إلى عربته ، وتصغى المرأة الساكنة إلى صوتها تتحرك متتبعة الأثر الباقى فوق التراب الضبابى فى الممشى المخضر على « البولفار » حتى جرى « شارل » نحو أخته بالقرب من الجسر . وسمعته يقول لها فى صوت أشبه برنين الفضة : « لماذا إذن لم تحضرى لتودعى صديقى الطبيب ؟ »

وقذفت « هيلين » أخاها حين رأته فوق منحنى المنحدر بأقسى نظرة على الإطلاق ظهر بريقها فى عينى طفل ، ودفعته بحركة غضب وانزلق « شارل » فوق السفح السريع ، وصادف جذوراً ألقت به بقسوة فوق الحجارة الحادة التى بنى منها الحائط . وتكسرت جبهته فوقها ، ثم راح يهوى وهو مغطى بالدماء فى مياه النهر المليئة بالطمى ، وتناثرت الموجة فى ألف انبجاس مائى غامق اللون تحت رأسه الجميل الأشقر ؛ وسمعت صراخ الطفل المسكين الحاد ، ولكن لم تلبث أن اختفت نغماته مخنوقة فى الوحل حيث اختنق هو نفسه محدثاً صوتاً ثقيلا كصوت حجر غائر ، ولم يكن البرق أسرع مما كانت تلك السقطة .

وفجأة نهضتُ وهبطت بطريق ضيق . وصرخت « هيلين » مأخوذة صرخات نفاذة : «ماما ! ماما »! . وكانت الأم موجودة بالقرب منى ،

فطارت كعصفور ، ولكن لم تستطع عينا الأم أو عيناى أن تتعرف على المكان المحدد الذى دفن فيه الطفل . وكانت الفقاقيع تتصاعد فوق الماء الأسود فى مساحة واسعة ؛ وفى هذا المكان يوجد فى مجرى نهر « البيفر » عشر أقدام من الطمى ، ولابد أن الطفل قد لقى حتفه إذ كانت نجدته مستحيلة . وفى تلك الساعة من يوم الأحد كان كل شىء ساكناً ، ولم يكن فى نهر (البيفر) قارب أو صياد ، ولم أر أى قصبة أجس بها مدى عمق الماء الآسن أو أى شخص على البعد .

لماذا إذن تكلمت عن هذه الحادثة المشئومة ، أو قلت سر هذه المصيبة ؟ لعل « هيلين » انتقمت لأبيها ، وكانت غيرتها بلاشك سيف الله . وبرغم ذلك فقد ارتعدت وأنا أتأمل الأم . أى استجواب مخيف سوف تلقاه من زوجها .. قاضيها الأبدى ؟ وقد جرت معها شاهداً لا يُرشى ، فللطفولة جبين شفاف ولون وجه ينفذ منه الضوء ، والكذب عند الطفولة أشبه ما يكون بالضوء الذى يدفع به إلى الاحمرار من نظرة . ولم تكن المرأة الشقية تفكر بعد فى العذاب الذى ينتظرها بالبيت فقد كانت تنظر إلى نهر « البيفر » وكان على مثل تلك الحادثة أن تؤدى إلى أصداء مخيفة فى حياة امرأة وهذا واحد من أكثر أصدائها بشاعة مما كان يزعج غراميات « جولييت » من وقت لآخر .

بعد سنتين أو ثلاث من ذلك التاريخ وفى إحدى الليالى عقب العشاء فى بيت الماركيز « ديفانديتيس » الذى كان حينذاك فى حداد

على والده ويصدد ميراث يتطلب التنظيم ، كان يوجد أحد محررى العقود . ولم يكن محرر العقود هذا نفس الرجل القصير « دبستيرن » ، بل كان سميناً ضخماً من باريس . وكان أحد الرجال الأجلاء الذين لايعبثون إلا بقدر ، ويضعون قدمهم بصعوبة فوق أى سبب مجهول من أسباب الحزن أو الغم ، ويسألون لماذا الشكوى . وإذا علموا بالمصادفة سبب عبثهم القاتل يقولون : « يا إلهى لم أكن أعرف شيئاً » . على أى حال كان محرر عقود بسيطاً لا يرى فى الحياة سوى العقود .

وكانت السيدة « ديجليمون » على مقربة من الدبلوماسى . وكان اللواء قد انصرف من هناك أدباً قبل نهاية العشاء ، كى يصحب طفليه إلى عرض تمثيلى على المتنزه الكبير « البولڤار » فى مسرح « الأمبيجى كوميك » أو مسرح « لاجيتيه » . وبرغم أن الروايات المؤثرة تهيج المشاعر فإنها تجرى فى باريس لكى تكون فى متناول الطفولة وبدون خطر ، لأن البراءة تنتصر دائماً فيها . ولم ينتظر الوالد تناول الحلو بعد الأكل ، ورحل تحت إلحاح ابنته وابنه المقلق من أجل الوصول إلى العرض قبل رفع الستار .

ولم يستطع محرر العقود .. ذلك الرجل الرزين . . أن يستفسر لماذ أرسلت السيدة « ديجليمون » أولادها وزوجها إلى العرض دون أن تصحبهم إلى هنالك ... فبقى منذ العشاء كما لو كان قد ربط إلى مسمار لولبى فوق مقعده ، وجعلت المناقشة وقت الحلو يمتد طولا بحيث

توانى الخدم عن تقديم القهوة . وهذه الأحداث التى كانت تلتهم الوقت الثمين بلاشك أمكنها أن تنتزع حركات فراغ الصبر من المرأة الجميلة ، فكان فى المستطاع مقارنتها بأحد الخيول الأصيلة حين يكدف ويضرب الأرض بحوافره قبل السباق . ولم يكن محرر العقود يعرف طريقه فى ميدان الخيول أو فى ميدان النساء ، فاكتشف بطيبة قلب فى شخصية الماركيزة امرأة نشيطة قوية .

وقد انتشى بالتالى من وجوده فى رفقة امرأة على أحدث الطرز ورجل من أشهر رجال السياسة فأخذ محرر العقود هذا يتظرف ويروى النكت ، وفهم ابتسامة الماركيزة الرائقة على أنها رضى وتأييد برغم أنه كان يستنفد صبرها إلى حد كبير ويتباطأ تباطؤاً كبيراً . وأذن سيد البيت سلفاً بالاتفاق مع رفيقته بأن يلزما الصمت مرات عديدة حينما انتظر محرر العقود رداً من ردود الثناء والمديح . ولكن حتى أثناء هذه الفترات كان ذلك الرجل الخبيث ينظر إلى الموقد كمن يفتش عن فكاهات ونكت . وبعد ذلك لجأ الدبلوماسى إلى ساعته . وأخيراً كانت السيدة الجميلة قد أعادت وضع قبعتها على رأسها تأهباً للخروج دون أن تخرج . ولم يكن محرر العقود يرى أو يسمع ، بل كان معجباً بنفسه إعجاباً شديداً ومتأكداً من أنه يمتع الماركيزة إلى حد وقوفها كأنها مقيدة بمسمار هناك ، فقال فى نفسه : سوف تكون هذه المرأة بالتأكيد زبونة لى .

وقامت الماركيزة واقفة ، ولبست قفازات اليد ، ثم راحت تدير

فى أصابعها ، وجعلت تنظر بالتبادل إلى الماركيز « ديفانديتيس» الذى كان يقاسمها نفاد صبرها أو إلى محرر العقود الذى كان يحكم تكتيف كل واحد عن طريق اللطائف والنكت الفكاهية الخاصة به . وعند كل فترة سكون يقف عندها ذلك الرجل « المحترم » كان كلاهما يتنفس الصعداء ، وكأنما يقول أحدهما للآخر بالإشارة : « سوف يرحل إذن أخيراً ! » ولكن عبثاً .

لقد كان أشبه ما يكون بالكابوس النفسى الذى ينتهى بعد إثارة الشخصين الممتلئين شغفاً وعاطفة اللذين كان محرر العقود يؤثر عليهما حركة بحركة ونأمة بنأمة كما يفعل الثعبان بالطائر بحيث يضطرهما إلى شىء من التعجل . وفى وسط الحكاية تماماً التى كان محرر العقود الظريف ذاك يرويها عن الوسائل الخسيسة التى كان يتبعها « ديتييه » رجل الأعمال الذى كان ذا حظوة خلال تلك الفترة فى تكوين ثروته متتبعاً فضائحه فى تفصلاتها الدقيقة ، سمع الدبلوماسى الساعة الكبيرة تدق التاسعة ، ولحظ أن محرر عقوده كان سخيفاً بالتأكيد بحيث لزم ببساطة تامة صرفه ، فأوقفه بإحدى حركاته بإصرار .

فقال محرر العقود وهو يقدم (الماشة) إلى زبونه : لعلك تريد (الماشة) يا سيدى الماركيز؟

— لا ياسيدى ، إنى مضطر إلى أن أصرفك . فالسيدة تريد اللحاق بأولادها ، وسيشرفنى أن أرافقها .

قال محرر العقود الذى كان قد انفرد بالكلام منذ ساعة : سرعان ما صارت الساعة التاسعة ! إن الوقت يمضى كالظل فى صحبة الناس الظرفاء .

وبحث عن قبعته ، ثم جاء يزرزح نفسه أمام المدفأة وهو يقاوم بصعوبة صدور إحدى فواقاته ، وقال لزبونه دون أن يرى النظرات الشبيهة بالصواعق التى كان يقذفها نحوه الماركيز :

— فلنختصر الكلام ياسيدى الماركيز فالأعمال تأتى أولا . وسوف نبعث غداً إذن إلى السيد أخيك بإعلام قضائى بحيث يكون مكلفاً رسمياً ، ثم نتقدم إلى الجرد وبعد ذلك فيما أرى ..

قد فهم محرر العقود نيات زبونه فهماً سيئاً بحيث أخذ المسألة فى الاتجاه العكسى للتعليمات التى ألقاها إليه هذا الأخير منذ قليل . وكانت هذه الحادثة من الحساسية بحيث لم يشأ « ديفانديتيس » تعديل أفكار محرر العقود ذاك ، ثقيل الظل والفهم معاً ، بطريقة لا إرادية ، فاندفع الرجل فى مناقشة استغرقت وقتاً طويلا .

قال الدبلوماسى فى النهاية بإشارة من السيدة الشابة : اسمعنى إنك تشدخ رأسى . عد غداً فى الساعة التاسعة مع وكيلى فى الدعاوى .

— ولكننى سأتشرف بأن أدعوكم يا سيدى الماركيز إلى ملاحظة أننا لسنا متأكدين من مقابلة السيد « ديروش » غداً . وإذا لم يكن التكليف الرسمى قد أرسل قبل الظهر فإن المهلة تنقضى و ...

فى هذه اللحظة دخلت عربة إلى الفناء. واستدارت المرأة المسكينة بقوة لكى تخفى الدموع التى ملأت عينيها على أثر الجلبة التى أحدثتها. ودق الماركيز الجرس لكى يبلغ عن عدم وجوده بالمنزل . ولكن اللواء كان قد عاد فجأة من مسرح « لاجيتيه » فسبق الخادم وظهر ممسكاً ابنته بإحدى يديه وقد احمرت عيناها ، وممسكاً باليد الأخرى ابنه الصغير الذى كان عابس الوجه غاضباً .

سألت المرأة زوجها : ماذا حدث لكم إذن ؟

أجاب اللواء وهو يتجه نحو مخدع مجاور كان بابه مفتوحاً فلمح فيه بعض الصحف : سأخبرك بذلك فيما بعد .

وألقت الماركيزة بنفسها فى يأس فوق إحدى الأرائك نافدة الصبر .

ورأى محرر العقود أنه مضطر إلى أن يكون لطيفاً مع الأطفال ، فاتخذ صوتاً ظريفاً فى كلامه وهو يقول للولد : هيه ياصغيرى . ماذا يعرض مسرح (لاجيتيه) ؟

أجاب « جوستاف » فى تذمر : « وادى السيل » .

قال محرر العقود : أين عقيدة الرجال الشرفاء ... لقد أصبح مؤلفوا اليوم أنصاف مجانين . (وادى السيل) . ولماذا لا يكون (سيل الوادى) فمن الجائز أن يكون الوادى بلا سيل . وعندما يقولون (سيل الوادى) ؟ يكونون قد أبلغوا شيئاً واضحاً محدداً ذا طابع وذا مفهوم . ولكن فلندع

ذلك . الآن . كيف يمكن العثور على الدراما فى السيل وفى الوادى ؟ سوف تجيبنى أن الميل الرئيسى اليوم فى أمثال هذه الأنواع من العرض يكمن فى (الديكور) ، وهذا العنوان وحده يبين ذلك بطريقة مثلى . فهل استمتعتم يا صغيرى الماكر ؟ قال الرجل ذلك وهو يجلس أمام الطفل .

عندما سأل محرر العقود أى مأساة يمكن العثور عليها فى قاع السيل استدارت ابنة الماركيزة . ببطء وبكت . واغتاظت الأم بشدة كبيرة حتى لم تلحظ حركة ابنتها .

أجاب الطفل : أوه ! نعم ياسيدى . لقد استمتعت تماما ... لقد كان فى التمثيلية طفل صغير لطيف وحيد فى العالم لأن أباه لم يستطع أن يكون والده . وعندما يبلغ مرتقى الجسر فوق السيل يجىء رجل كبير قبيح ذو لحية فى ملابس سوداء ويقذف به إلى الماء . وعندئذ جعلت « هيلين » تبكى وتشهق شهيقاً عالياً حتى إن كل من فى القاعة صرخ فى وجهنا ، وعلى ذلك قادنا والدنا بسرعة إلى الخارج .. وبسرعة خرجنا ...

وبقى السيد « ديفانديتيس » والماركيزة معاً مذهولين ، وكأن سوءاً مسهما وجردهما من قوة الفكر والعمل .

صاح اللواء : «جوستاف .. اسكت إذن .. لقد منعتك من الكلام عما قد حدث فى أثناء العرض وها أنت ذا تنسى كل تعليماتى .

قال محرر العقود : فلتغفر له جنابكم ياسيدى الماركيز . . . لقد أخطأت بسؤاله ولكننى لم أكن أعرف خطورة ...

قال الأب وهو ينظر إلى ابنه ببرود : « لقد كان عليه ألا يجيب ... »

وبدا سبب عودة الأولاد وعودة والدهم المفاجئة واضحاً جداً لدى الديلوماسى والماركيزة . ونظرت الأم إلى ابنتها ورأتها تبكى ، فنهضت لتذهب نحوها ، ولكن فجأة تقطب وجهها بشدة وأظهر علامات سورة لم يكن يخففها شىء .

قالت لها : كفى يا « هيلين » هيا اذهبى جففى دموعك فى المخدع .

قال محرر العقود الذى أراد أن يهدئ كلا من غضب الأم وتحيب البنت : ماذا فعلت إذن هذه الصغيرة المسكينة ؟ إنها لمن الجمال بحيث لابد أن تكون أعقل مخلوقة فى العالم . وإننى لواثق ياسيدتى أنها ألا تمنحك سوى السرور والهناء . أليس كذلك ياصغيرتى ؟

ونظرت « هيلين » إلى أمها وهى ترتعد ، ومسحت دموعها ، وحاولت أن تجعل وجهها ذا تعبير هادئ ثم هربت إلى المخدع .

قال محرر العقود وهو يواصل باستمرار كلامه : « ومن المؤكد يا سيدتى أنك أم طيبة جداً حتى لتحبين كل أولادك بالتساوى ، وأنت على أى حال من الفضيلة بحيث لا يمكن أن يكون عندك تفضيلات تعيسة تتكشف آثارها المشئومة أمامنا نحن محررى العقود . فالمجتمع يمر بنا

فنرى فيه أيضاً الميول والرغبات فى صورتها البشعة ، وأعنى بها المصلحة . فها هنا امرأة تريد حرمان أولاد زوجها من الميراث لصالح الأولاد الذين تفضلهم . فى حين يريد الزوج أحياناً من جهته أن يحجز ثروته للابن الذى حاز كراهية الأم ، وعند ذاك تهب المنازعات والمخاوف والحجج والاتفاقيات المضادة للعقود والبيع الشكلى والودائع ، ثم فى النهاية بعثرات محزنة .. وشرفى ... محزنة ! فهناك من الآباء من يقضى حياته كلها فى عمليات حرمان وراثة لأبنائهم مع سرقة أملاك زوجاتهم نعم .. سرقة .. هذه هى اللفظة الصحيحة . نحن نتكلم عن المأساة . آه ! أؤكد لكم أننا لو استطعنا أن نتطرق إلى الأسرار الخاصة ببعض المنح لأمكن مؤلفينا أن يكتبوا عنها فواجع مأساوية « بورجوازية » . ولا أدرى بأى قدرة تستعين النساء كى يحققن ما يشأن . لأنه برغم كل المظاهر التى تدل على ضعفهن فإنهن يفزن دائما بذلك . آه ! مثلا إنهن لا يغررن بى أنا ، إذ أننى أخمن دائماً سبب حب التفضيل ذاك الذى يصفونه فى المجتمع أدباً بأنه لا يقبل التعريف ! غير أن الأزواج لا يخمنونه أبداً ، وهذه عدالة يجب أن ترد لهم . قد تجيبنى على ذلك بأنه توجد نعم وأفضال ..

عادت « هيلين » مع والدها من المخدع إلى (الصالون) وأصغت بانتباه إلى كلام محرر العقود ، وأدركته جيداً حتى إنها ألقت نظرة تخوف نحو أمها وهى تستشعر بغريزة سنها المبكرة أن هذا الظرف سوف

يضاعف من شراسة تأنيبها . واصفر وجه الماركيزة وهي تلوح للكونت
في حركة فزع نحو زوجها الذي كان يتأمل زهور السجاجيد في تفكير
عميق . وفي هذه اللحظة لم يعد الدبلوماسي – برغم كل خبرته بالحياة –
يمالك نفسه . وقذف محرر العقود بنظرة شبيهة بالصاعقة ، وقال له
وهو يتجه بقوة نحو الغرفة السابقة على (الصالون) : « تعال من هنا ياسيدي » .
وتبعه محرر العقود إلى هناك وهو يرتجف دون أن يكمل عبارته .

قال له الماركيز «ديفانديبس» في غضب مركز ، وهو يقفل بقوة باب
(الصالون) حيث ترك الزوجة والزوج : « سيدي منذ العشاء لم يصدر عنك
إلا السخافات . ولم تفه إلا بحماقات . بالله عليك انصرف من هنا ، فإنك
ستؤدي في النهاية إلى أكبر النكبات ، إذا كنت محرراً ممتازاً للعقود فابق
في مكتبك . أما إذا وجدت نفسك بالمصادفة وسط الناس في المجتمع
فحاول أن تكون أكثر حذراً . . . »

ثم عاد إلى (الصالون) بعد أن فارق محرر العقودَ دون أن يحييه .
وبقي محرر العقود بعض لحظة مذهولا تماماً ومشلولا دون أن يدري شيئاً من
أمره . وعندما كف الطنين الذي كان يدق بأذنيه تخيل أنه سمع عويلا
وحركة خطوات تروح وتجيء في (الصالون) ، حيث أخذت الأجراس ترنّ
بقوة . فأحس بالخوف من رؤية الماركيز مرة أخرى ، واستعاد قدرته على
استخدام ساقيه كي يفرّ ويبلغ السلم . ولكن عند أبواب الردهات كان
يصطدم بالخدم الذين أسرعوا لتلقي أوامر سيدهم .

قال لنفسه في النهاية عندما أصبح في الشارع يبحث عن عربة :
هاك حال كل هؤلاء الأسياد الكبار .. إنهم يلزمونك بالكلام ،
ويدعونك إلى الاستمرار فيه بكل ما يطرونك به . فتظن أنك تسرهم ،
وإذا الأمر ليس كذلك بالمرة ! فيعتدون عليك بوقاحة ، ويبعدونك
ثم يلقون بك إلى الباب دون أي حرج . لقد كنت لطيفاً جداً معهم
ولم أقل شيئاً دون أن يكون معقولا متزناً ملائماً . ثم إنهم يوصونني
بزيادة الحذر برغم أنه لا ينقصني . هيه ! يالشيطان ! إنني محرر عقود
وعضو الغرفة . آه ! إنها لنزوة سفير . فلا شيء مقدس عند هؤلاء
الناس . وغداً سيشرح لي كيف لم أعمل عنده إلا حماقات . وسأسأله
الأسباب ، أي أنني سأسأله عن سبب ذلك . وفي الجملة قد أكون
مخطئاً . والله لقد كنت طيباً في تكسير رأسي بالحكايات ! ولكن ماذا
أجدى ذلك لي ؟

وعاد محرر العقود إلى بيته ووضع لغزه بين يدي زوجته وهو يروي
لها كل أحداث السهرة نقطة بنقطة .

— عزيزي « كروتاه » إن صاحب السعادة على حق تماماً ،
وهو يخبرك أنك لم تفعل إلا سخافات ولم تقل إلا حماقات .

— لماذا ؟

— ياعزيزي سأقوله لك ، ولكن علي ألا يمنعك ذلك من أن
تبدأ من جديد ، في مكان آخر غداً . وكل ما أوصيك به أيضاً هو

ألا تتكلم إطلاقاً إلا فى الأعمال حين تكون فى مجتمع .

– إذا لم تريدى أن تخبرينى أنت به فسوف أسأل عنه غداً . ..

– يا إلهى ! إن أتفه الناس يتدارسون كيفية إخفاء هذه الأشياء ، وأنت تعتقد أن سفيراً سيخبرك به ! ولكن يا « كروتاه » إننى لم أرك قط مجرداً من العقل على هذا النحو ...

– شكراً ياعزيزتى .

٥

اللقاءان

كان قد جاء إلى (فرساى) ضابط ياوران لنابليون ، نطلق عليه فقط اسم الماركيز أو اللواء ، وصاحب الثروة الضخمة التى كونها فى عهد العودة ، ليقضى بعض الأيام الجميلة ، فسكن بيتاً ريفياً قائماً بين الكنيسة وسور (مونترى) على الطريق المؤدى إلى شارع (سان كلو) ولم تكن خدمته فى البلاط تسمح له بأن يبتعد عن (باريس).

وكان هذا البيت قد بنى قديماً ليكون مأوى للفتيات العابرات من أجل نزوات الحب لأحد الأشراف الكبار ، ولذلك كان هذا البيت القائم وسط بستان يضم ملحقات شاسعة ، وكانت الحدائق التى يقوم فى وسطها تباعد بالتساوى إلى يمينه وإلى يساره بينه وبين أوائل منازل (مونترى) والأكواخ المسقوفة بالتبن والمبنية بالقرب من السور . وهكذا كان أسياد البيت لا يعزلون كثيراً فيه ، كما أنهم كانوا يستمتعون على بعد خطوتين من المدينة بكل لذائذ العزلة . ومن نقائضه الغريبة أن واجهة وباب مدخل البيت كانا يطلان مباشرة على الطريق الذى يحتمل أنه كان فى الماضى قليل العمار . ويبدو هذا الافتراض

صحيحاً إذا فكرنا أن هذا البيت يقود إلى البيت الجميل الريفي الطراز الذى بناه « لويس الخامس » من أجل الآنسة « دى رومان » . وقبل أن تصل إليه كان الفضوليون يتعرفون هنا وهناك على أكثر من ملهى (كازينو) يكشف كل مابداخله و(ديكور) زينته عن المجون والخلاعة اللطيفة عند أسلافنا الذين كانوا يبحثون ، على الرغم من الشذوذ الذى اتهموا به ، عن بعض الظلال والغموض .

وفى إحدى ليالى الشتاء وجد الماركيز وزوجته وأولاده أنفسهم بمفردهم داخل هذا البيت المعزول ، وكان الخدم قد حصلوا على الإذن بالذهاب إلى (فرساى) لحضور احتفال عرس واحد منهم ، وخمنوا أن احتفالات التبجيل فى عيد الميلاد قد اقترنت بهذا الظرف ، فمنحهم ذلك عذراً معقولاً لدى أسيادهم . ولم يكن يخامرهم أى قلق عندما استغلوا وقتاً أطول قليلاً للاحتفال مما كانت قد أنعمت عليهم به الأحكام البيتية ، وبرغم ذلك فإن اللواء كان معروفاً كرجل لا يقصر إطلاقاً فى إنجاز كلمته فى نزاهة لا تلين ، ولذلك لم يعد العاصون للأوامر البيتية يرقصون دون بعض وخز الضمير عندما انقضى الموعد المحدد لعودتهم .

ودقت الساعة الحادية عشرة منذ قليل ، ولم يكن واحد من الخدم قد عاد وكان الصمت العميق الذى يسيطر على الريف يسمح بسماع صفير النسمة العابرة خلال أغصان الشجر السوداء من حين لآخر ، وهى تهدر حول البيت ، أو وهى تغوص بين الممرات . وكان الصقيع قد نقى

الهواء تماماً وجمد الأرض واعترى ملاط الشوارع بحيث صار لكل شىء ذلك الرنين الجاف الذى تباغتنا دائماً ظاهراته ، وكانت خطوات سير أحد السكارى المتأخرين الثقيلة ، أو ضوضاء مركبة عائدة إلى (باريس) تحدث دوياً أقوى من المعتاد ، وتسمع على مسافة أبعد من المعتاد ، وكانت أوراق الشجر المتناثرة تقوم راقصة تحت تأثير بعض الزوابع المفاجئة ، فترتعش وتتذبذب فوق حجارة الفناء بشكل يمنح الليل صوتاً كلما أراد أن يكون كالأبكم .

لقد كانت ــ فى النهاية ــ إحدى تلك الليالى الشرسة التى تنتزع من أنانيتنا شكوى جدباء لصالح الفقير أو المسافر ، وتحيل ركن المدفأة إلى ركن شهوانى جداً . فى هذه اللحظة لم تكن الأسرة المجتمعة فى « الصالون » تقلق فى شىء لغياب الخدم ، أو للقوم الذين لا مأوى لهم أو للأشعار التى تتلألأ بها سهرة الشتاء . وبدون فلسفة خارجة عن القصد وثقة فى الرجل العسكرى القديم ، استسلم الأولاد والنساء للمتع التى ولدتها الحياة الداخلية طالما لم تجد الإحساسات أى حرج فى الأمر ، وطالما كانت العاطفة والصراحة تحمران الكلام والنظرات والألعاب .

وكان اللواء جالساً أو على الأصح مدفوناً فى كرسى واسع بوسادة عال وفسيح فى ركن بقرب المدفأة ، حيث كانت النار المتتابعة تلمع وتنشر حرارة لاذعة كعلامة على وجود زمهرير خارج البيت . وكان هذا الأب الهمام مستنداً إلى ظهر الكرسى فى وضع مائل ميلا

خفيفاً فى حين بقى رأسه فى وضع يصور تراخيه هدوءاً كاملا وانشراحاً حلواً من المتعة ؛ وأتم ذلك التعبير عن فكرة السعادة ذراعاه المخدرتين نصف تخدير والملقاتين بفتور خارج الكرسى . وجعل يتأمل أصغر أطفاله .. ولد يكاد يبلغ سن الخامسة .. نصف عار ، ويرفض أن يدع أمه تخلع ملابسه . وأخذ الطفل يهرب من القميص أو من غطاء الرأس الليلى الذى اعتادت الماركيزة أحياناً أن تهدده به . واحتفظ بجرملته المطرزة ، وضحك لأمه عندما أخذت تناديه ، وهى تدرك أنها هى نفسها تضحك من هذا التمرد الطفولى . وجعل يلاعب حينذاك أخته التى كانت فى مثل سذاجته ، ولكن أكثر خبثاً ، وتتكلم سلفاً بتميز أكبر منه . إذ أنه كان مبهم الأقوال مختلط الأفكار بحيث يفهمه أبواه بصعوبة شديدة .

« وموينا » الصغيرة كانت تكبره بسنتين ، وتثير بدلالها الأنثى المبكر ضحكاً لا ينتهى ، يصدر مثل الطلقات ، ويبدو غير متعلق بسبب . ولكن كانت تكفى رؤيتهما معاً يتدحرجان أمام النار ، ويكشفان بلا خجل جسميهما ، الجميلين الممتلئين بشكليهما الأبيضين الرقيقين ، عامدين خلط خصلات شعر رأسيهما الأسود بالأشقر متضاربين بوجهيهما الورديين حيث كانت الفرحة قد خططت نغزات بسيطة ، لكى يفهم الأب وبخاصة الأم بالتأكيد هذه الأرواح الصغيرة التى كانت بالنسبة إليهم محددة الطباع وعاطفية سلفاً . وكان هذان الملاكان

من شدة ألوان عيونهما المبللة وخدودهما المتألقة وبشرتهما البيضاء يظهران ألوان زهور السجاجيد اللينة الناعمة بمظهر الباهتة الضعيفة حيث قام مسرح لهوهما الذى كانا يسقطان عليه وينقلبان ويتصارعان ويتدحرجان فوقه بلا خطر .

وكانت الأم جالسة فوق تخت لجلوس شخصين فى الركن الآخر بجوار المدفأة وجهاً لوجه أمام زوجها ، وقد تجمعت حولها الملابس المتناثرة وظلت وهى ممسكة بحذاء أحمر فى يدها فى موقف مليء بالتغاضى ؛ ومانت قسوتها المترددة فى ابتسامة عذبة حفرت فوق شفتيها . وكانت فى قرابة سن الثلاثين لاتزال تحتفظ بجمال مرجعه إلى الكمال النادر فى خطوط وجهها الذى أعارته الحرارة والضوء والسعادة فى تلك اللحظة بريقاً فوق الطبيعى . وغالباً ما كانت تتوقف عن النظر إلى أولادها كيما تعود بعينيها كأنما تربت بهما فوق وجه زوجها الوقور . وعندما كانت عينا الزوجين تتلاقيان أحياناً كانتا تتبادلان متعاً صامتة وأفكاراً عميقة . وكان للواء وجه أسمر سمرة قوية ، وكانت جبهته العريضة الصافية مخططة ببعض خصلات الشعر التى وخطها الشيب ، وأخذت ومضات الحزم فى عينيه الزرقاوين ، والهدة البادية فى تجاعيد خديه الذابلين ، تكشف عن أنه قد نال الشريط الأحمر الذى كان يزين عروة ملابسه بعد أن بذل من أجله أعمالا شاقة .

وعندئذ كانت المتع البريئة التى عبر عنها والداه تعكس على هيئة

وجهه الجهم الجامد الذى تخللته بساطة ساذجة وسلامة نية . لقد عاد هذا الضابط القديم طفلا من جديد دون عناء كبير . أليس يتوافر للضباط دائماً قليل من الحب للطفولة بعد أن جربوا شقاوات الحياة بما فيه الكفاية وعرفوا بؤس القوة وامتيازات الضعف ؟

وعن بعد كان يجلس صبى صغير فى سن الثالثة عشرة يقلب صفحات كتاب كبير فى سرعة أمام منضدة مستديرة تضيئها مصابيح على هيئة نجوم . فكأنما تنافس أنوارها القوية ذلك الوهج المصفر الصادر عن الشموع الموضوعة فوق المدفأة . ولم تكن صرخات أخيه وأخته تلهيه إطلاقاً . كما كان وجهه يفشى فضول الصغار . وكان يسوغ هذه المشغولية العميقة روائع كتاب ألف ليلة وليلة المحببة ورحلة « الليسيه » أو المدرسة . وبقى بلا حراك فى وضع متأمل يسند كوعاً إلى المنضدة ، ويسند رأسه بيده الأخرى ، بحيث كانت أصابعه البيضاء تشطر وسط شعر رأسه الأسود . وكان الضوء يسقط عمودياً على وجهه ، وظل باقى جسمه فى الظلام . فكان يشبه وهو على ذلك النحو اللوحات السوداء التى كان « رافائيل » يمثل نفسه فيها منتبهاً مائلا مفكراً فى المستقبل .

وبين هذه المنضدة والماركيزة كانت فتاة شابة طويلة تعمل وهى جالسة أمام نول سجاد تميل فوقه رأسها تارة وتارة تباعده على التعاقب ، فصارت شعورها الحالكة السواد الملساء فى تفنن تعكس الضوء . وكانت

« هيلين » وحدها فى حد ذاتها مشهداً من المشاهد ، وتميز جمالها بطابع نادر للقوة والأناقة . وبرغم أن شعر رأسها رفع بطريقة تبرز الملامح الباهرة حول الرأس كان كثيفاً إلى حد أنه كان يستعصى على أسنان المشط ويشرع فى التجعد الشديد ابتداء من الرقبة . وكان حاجباها الكثان المنسقات الأطراف يشطران بياض جبهتها النقية ، وكان لديها على شفتها العليا بعض علامات الشجاعة التى تمثل تلويناً خفيفاً كالصدأ تحت أنف يونانى ذى استدارة فى كمال لطيف . أما الأشكال الدائرة الآسرة ، والتعبير البرىء الواضح فى الملامح الأخرى ، وشفافية لون بشرتها الرقيق الناعم ، وطراوة الشفاه الشهوانية ، وحدود الشكل البيضى الذى يرسمه الوجه ، وبخاصة تلك القداسة فى نظرتها العذراء - كل ذلك كان يطبع على هذا الجمال الصارم عذوبة الأنوثة مع التواضع الفتان الذى نتطلبه فى ملائكة السلام والحب هذه ، باستثناء أنه لم يكن ثمة شىء ضعيف فى هذه الفتاة الشابة . ومن المؤكد أن قلبها أيضاً كان رقيقاً . وأن روحها كانت تمتاز بقوة معادلة لنسبها التى كانت رائعة ، ولشكلها الذى كان ساحراً جذاباً . وكانت تقلد أخاها طالب الليسيه فى صمته ، وتبدو فريسة واحدة من تأملات البنت الشابة المحترمة التى يتعذر النفاذ إليها غالباً مهما تكن دقة ملاحظة الأب أو فراسة الأمهات . حتى إنه كان من المستحيل أن تعرف ما إذا كانت الظلال الهوائية المدللة التى كانت تعبر وجهها مثل السحب الضعيفة

فى سماء صافية مرجعها إلى تلاعب الضوء أم إلى آلام خفية .

وكان الزوج والزوجة قد شغلا تماماً فى تلك اللحظة عن الولدين الكبيرين . وبرغم ذلك أحاطت نظرة الأبوين – المستفسرة غالباً – بالمشهد الأصم الذى كان يقدم فى المرتبة الثانية تحقيقاً لطيفاً للآمال المكتوبة فى هذا الشغب الطفولى الظاهر فى مقدمة هذه الصور المنزلية . إذ أننا إذا حاولنا تفسير الحياة الإنسانية بدرجات الأشياء العادمة الشعور كانت هذه النماذج تؤلف نوعاً من القصيدة الحية . فزرف القطع الملحقة التى تزين « الصالون » وتنوع أوضاعها وتقاباتها المعزو إلى اختلاف ألوان الملابس الشديد . والتعارض بين الوجوه من حيث طابع أعمارها المختلفة ومن حيث استدارتها التى تبرزها الأضواء . كانت تشبع فوق هذه الصفحات الإنسانية كل الثروات المطلوبة فى النحت ولدى المصورين والكتاب . وفى النهاية أعار السكون والشتاء والعزلة والليل جلالهم هذا التكوين الرفيع الساذج الأشبه ما يكون بأثر جميل من آثار الطبيعة . والحياة الزوجية ملأى بهذه الساعات المهيبة التى قد يعزى سحرها غير المحدد إلى بعض تذكارات لعالم أفضل . ولاشك فى أن أشعة سماوية تتفجر على مثل هذه المشاهد التى تهدف إلى مجازاة الإنسان عن جزء كبير من أحزانه ، وإلى دفعه إلى قبول الوجود ويبدو كأن الكون هنالك أمامنا فى صورة فتانة ، وكأنه يبسط أفكاره النظامية العظيمة وكأن الحياة الاجتماعية تزكى وتطرى قوانينه حين تتحدث عن المستقبل .

وعلى الرغم من ذلك ، وبرغم النظرة الحنون التى ألقتها « هيلين » نحو « آبل » و « موينا » عندما انفجرا فى إحدى مباهجهما .. وبرغم السعادة المرسومة فوق وجه « هيلين » الواضح عندما تأملت والدها خفية كانت ثمة عاطفة اكتئاب عميقة مطبوعة على حركاتها وفى عزلتها ، وبخاصة فى عينيها المحجبتين وراء أجفان طويلة . وكانت يداها .. هاتان اليدان البيضاوان القويتان اللتان كان الضوء يمر فيكسبهما حمرة شفافة تكاد تكون سائلة – هاتان اليدان كانتا ترتعدان .

وفى إحدى المرات فقط تصادمت عيناها وعينا المركيزة دون أن تشرع إحداهما فى الكلام مع الأخرى . كانت هاتان المرأتان تفهم كل منهما الأخرى بنظرة حزينة باردة مليئة بالاحترام لدى « هيلين » وبنظرة قاتمة منذرة لدى الأم . وخفضت « هيلين » نظرها بسرعة فوق التول . وجاذبت الإبرة فى رشاقة وسرعة حركة . وظلت مدة طويلة لا ترفع رأسها الذى بدا لها كأنه صار أثقل من أن يحمل . هل كانت الأم قاسية على ابنتها ؟ وهل كانت تعد هذه القسوة ضرورية ؟ هل كانت تغير من جمال « هيلين » التى كانت لاتزال قادرة على أن تنافسها ولكن مع بسط كل تأثير أصباغ الوجه (التواليت) وسحرها ؟ أو هل استطاعت الفتاة أن تحصل – كأغلب البنات حين يصبحن راشدات بصيرات على بعض الأسرار التى اعتقدت هذه المرأة التى كانت فى المظهر شديدة الإخلاص دينياً أنها قد دفنتها فى قلبها بعمق كما لو كانت قد دفنتها فى قبر ؟

كانت « هيلين » قد بلغت السن التى تدفع فيها نقاوة الروح وصفاؤها إلى تصرفات قاسية تتخطى نطاق الاعتدال المتوسط الذى يجب أن تبقى العواطف عنده . وتأخذ الأخطاء فى بعض العقول نسباً تعادل نسب الجريمة ، ويرتد فعل الخيال عندئذ إلى الضمير ، وغالباً ما تبالغ البنات الشابات فى العقوبة بسبب المدى الواسع الذى يعطينه للذنوب . وبدت « هيلين » كأنها لا تعتقد أنها أهل لأحد ، فقد كان ثمة سر سابق قديم . لعله يكون حادثة غير مفهومة فى أول الأمر ، ثم تطور مع حساسية ذكائها المرهف الذى خضع لتأثير الأفكار الدينية حتى استحالت منذ وقت قصير إلى شبه ذليلة روائياً أو خيالياً فى عينيها الخاصتين . وقد بدأ هذا التغير فى سلوكها منذ اليوم الذى قرأت فيه بين دفتى ترجمة حديثة للمسرحيات الأجنبية مأساة « وليام تل » (جيوم تل) الجميلة التى ألفها « شيلر » فبعد أن وبخت الأم ابنتها لأنها تركت المجلد يسقط منها لاحظت أن التلف الناتج عن هذه القراءة فى روح « هيلين » نشأ عن المشهد الذى أقام الشاعر فيه نوعاً من الأخوة بين « وليام تل » الذى أسال دم أحد الرجال من أجل إنقاذ شعب بأكمله وبين « جان لوباريسيد » ولم تعد « هيلين » بعد أن صارت متواضعة ورعة متبتلة تتمنى الذهاب إلى الحفلات الراقصة . ولم تكن إطلاقاً على مثل هذه الملاطفة الناعمة إزاء والدها ، وبخاصة عندما لا تكون الماركيزة موجودة لتشهد ملاطفاتها كفتاة شابة .

وعلى الرغم من ذلك كان ثمة برود فى عاطفة « هيلين » نحو أمها كان يظهر على نحو رقيق . بحيث لم يكن اللواء يلحظه مهما كانت درجة غيرته على الاتحاد الذى كان يسود أسرته . ولم يكن للرجل العين النفاذة التى يستطيع أن يجس بها أغوار هذين القلبين النسائيين : فالأول شاب كريم . والآخر حساس مغرور .. الأول كنز من السماحة والثانى ملىء بالرقة والعشق . وإذا كانت الأم تحزن ابنتها بطغيان المرأة الحاذق فإن أحداً لم يكن يحس به سوى الضحية نفسها . على أى حال الحادثة وحدها هى التى أظهرت هذه التخمينات التى لا حل لها . ولم يكن حتى تلك الليلة قد بدر أى ضوء فاضح بين هاتين الروحين ولكن كان قد برز فيما بينهن وبين الله بعض السر المشئوم .

صاحت الماركيزة منتهزة فرصة تعب أو سكون : هيا يا « أبيل » لكن « موينا » بقيت هى وأخوها ساكتين . قالت الماركيزة « هيا ، هلم يابنى ، يجب أن تذهب لتنام ... » ونظرت إليه نظرة آمرة ثم أخذته بقوة فوق ركبتيها .

قال اللواء : كيف هذا ؟ الساعة العاشرة والنصف ، ولم يعد إلى البيت أى واحد من الخدم ؟ آه ! هؤلاء المحتالون .

ثم التفت نحو ابنه وقال : « جوستاف » ، لم أعطك هذا الكتاب إلا على شرط أن تغادرنا الساعة العاشرة ، وكان عليك أن تقفله بيدك

أنت فى الساعة المحددة ، وأن تذهب إلى النوم كما وعدتنى . إذا شئت أن تكون رجلا ملحوظاً فلابد أن تجعل من وعدك ديناً ثانياً ، وأن تتمسك به كما تتمسك بشرفك . وكان « فوكس » أحد كبار الخطباء فى إنجلترا مشهوراً على الخصوص بجمال طباعه ، وكان الإخلاص نحو الالتزامات المعقودة إحدى صفاته الرئيسية . وقد أعطاه أبوه وهو إنجليزى من الأشراف القدماء فى طفولته — درساً قاسياً حتى يطبع عقل الطفل الصغير بطابع أبدى . وفى مثل سنك كان « فوكس » يحضر فى أثناء الإجازات فى بيت والده الذى كان يملك — ككل الإنجليز الأثرياء حديقة ذات شأن حول قصره ، وكان فى تلك الحديقة كوخ قديم يتطلب هدمه وتشييده من جديد فى مكان متميز بمنظر رائع ويحب الأطفال كثيراً رؤية مشاهد الهدم . فأراد « فوكس » الصغير أن يحصل على بعض أيام إجازة أكثر من المعتاد ، كى يشهد سقوط البيت الريفى ، ولكن والده أصر أن يعود إلى المدرسة فى اليوم الموعود فى افتتاح الدراسة . ومن هنا تخاصم الوالد وابنه . وأيدت الأم مثل كل الأمهات « فوكس » الصغير ، فوعد الأب ابنه عندئذ فى مهابة أنه سينتظر الإجازات القادمة كى يهدم الكوخ ، فعاد « فوكس » إلى المدرسة . واعتقد الأب أن صبياً صغيراً لاهياً فى دراساته سوف ينسى ذلك الظرف ، فهدم الكوخ وأعاد بناءه فى المكان الآخر . وتركز عناد الصبى فى التفكير فى ذلك الكوخ ، وعندما عاد إلى

بيت والده كان أول اهتمام له هو الذهاب لرؤية المبنى القديم . ولكنه عاد محزوناً جداً فى ساعة الغداء وقال لوالده : « لقد خدعتنى » . فقال النبيل الإنجليزى العجوز فى ارتباك ملىء بالكرامة : « هذا صحيح يا ولدى ، ولكننى سأصحح غلطتى . لابد من التمسك بالكلمة أكثر من التمسك بالثروة . لأن التمسك بالكلمة يؤدى إلى الثراء ، ولا تمحو أعظم الثروات العيب الذى يصيب الضمير بسبب عدم الوفاء بالكلمة » فأعاد الأب بناء الكوخ القديم على نحو ما كان . ثم بعد أن تم بناؤه أمر بأن يهدم أمام ابنه . ولعل هذا « ياجوستاف » يكون لك درساً .

وأقفل « جوستاف » الكتاب فى الحال ، بعد أن أصغى بانتباه إلى والده . وجاءت فترة صمت أخذ اللواء « موينا » فى أثنائها قسراً . وقد كانت تغالب النعاس ، ووضعها برقة فوقه ، وتركت الصغيرة رأسها غير الثابت ينحدر على صدر أبيها ، ونامت عليه تماماً فى الحال مغطاة بحلقات شعر رأسها الجميل الذهبية . وفى تلك اللحظة دقت أصوات خطوات مسرعة على الطريق فوق الأرض . وفجأة دقت ثلاث طرقات على الباب أيقظت أصداؤها كل البيت ، وتواصلت هذه الطرقات فى لهجة يسهل فهمها ، كما يسهل فهم صيحة رجل فى خطر الموت ، ونبح كلب الحراسة فى صوت مخيف ، وارتعدت « هيلين » و « جوستاف » واللواء وزوجته .. ارتعدوا جميعاً بقوة . ولكن « أبيل » الذى انتهت أمه من تمشيط شعره ، و « موينا » لم يستيقظا .

صاح الرجل العسكرى وهو يضع ابنته فوق المقعد المبطن بوسادة : إنه متلهف هذا الطارق .

وخرج مندفعاً من « الصالون » دون أن يصغى لرجاء زوجته : يا صديقى لا تذهب ...

ومرّ الماركيز بغرفة نومه ، والتقط من هناك مسدسين ، وأضاء مصباحاً مكتوم الضوء ، واندفع نحو السلم ، وهبط بسرعة البرق ، فوجد نفسه بسرعة إزاء باب البيت الذى تبعه ابنه إليه بشجاعة .

سأل : من هناك ؟

أجاب صوت مختنق تقريباً فى تنفس لاهث : افتح .

– هل أنت صديق ؟

– نعم صديق .

– هل أنت بمفردك ؟

– نعم ، افتح لأنهم قادمون !

وانزلق رجل إلى الرواق بسرعة خيالية أشبه ما تكون بسرعة الظل بمجرد أن فتح اللواء الباب قليلا . ودون أن يتمكن من مقاومة ذلك المجهول اضطره هذا إلى أن يتخلى عن الباب دافعاً إياه بضربة قدم عنيفة ، واستند خلفه بعزم كمن يحول دون فتحه . وفجأة رفع اللواء مسدسه والمصباح نحو صدر هذا الغريب كى يفرض عليه الاحترام ، فرأى رجلا متوسط الطول يلبس معطفاً ذا بطانة من الفراء ، وملابس كبار السن الواسعة

المسترسلة التى لايبدو أنها أعدت من أجله . وكان اللاجئ – سواء بدافع الفطنة أم بالمصادفة – يغطى جبهته تماماً بقبعة تنخفض إلى مستوى عينيه .

قال الرجل للواء : سيدى ، اخفض فوهة مسدسك . لا أزعم أننى سأبقى فى بيتك بغير موافقتك . ولكننى إذا خرجت فالموت ينتظرنى عند السور . وأى موت ! وسوف يسألك الله عنه . أرجوك أن تستضيفنى مدة ساعتين . فكر فى الأمر جيداً ياسيدى . مهما كان تضرعى فلابد من أن أطلب حسب ضغط الحاجة . أريد ضيافة « عربية » أى أن أكون ذا قداسة فى نظرك ، وإلا فافتح لى الباب كى أذهب وأموت لابد لى من أمانة السر والمأوى والماء ... وأعاد بصوت محشرج : أوه! الماء !

سأل اللواء وهو مأخوذ بهذا الاشتهاء المحسوم الذى كان يتحدث به المجهول : من أنت ؟

أجاب الرجل فى لهجة جهنمية ساخرة : آه ! من أنا ؟ هيه افتح لى إذن . سوف أولى من هنا

وبرغم مهارة الماركيز فى المرور بأشعة مصباحه لم يستطع أن يرى سوى أسفل هذا الوجه ، ولم يكن به شىء يزكى هذه الضيافة المطلوبة على نحو فريد من نوعه . فقد كان الفكان يرتعدان ، وكان لونهما شاحباً ، كما كانت الملامح مقطبة ببشاعة ، وكانت عيناه ترتسمان فى الظل الذى تسقطه حافة القبعة مثل وهجين يضعف أمامهما

ضوء الشمعة الخافت . وبرغم ذلك كان لابد من إجابة .

قال اللواء : سيدى ، إن لغتك غريبة جداً . وفى مكانى ...

صاح الغريب فى رنة صوت مخيفة ، وهو يقاطع مضيفه : إنك تتصرف فى حياتى .

قال الماركيز : ساعتان ؟

أعاد الرجل : ساعتان .

وفجأة رد قبعته إلى الوراء فى حركة يأس ، وكشف عن جبهته ، وأرسل نظرة ذات وضوح قوى نفذت إلى روح اللواء كما لو كان يريد أن يقوم بمحاولة أخيرة . وأشبهت هذه الرمية من الذكاء والإرادة ومضة برق ، وكانت ساحقة مثل الصاعقة ، إذ توجد لحظات يكون الرجال فيها مزودين بقدرة غير قابلة للتفسير .

قال رب البيت بتجهم وقد اعتقد أنه أطاع واحدة من تلك الحركات الغريزية التى لا يستطيع الإنسان دائماً أن يفسرها : هلم . مهما تكن فستكون فى أمان تحت سقف بيتى .

استطرد المجهول وقد أفلت منه تنهد عميق : فليكافئك الله على ذلك .

سأله اللواء : هل معك سلاح ؟

وبالإجابة عن ذلك أعطى الغريب اللواء وقتاً لا يكاد يكفى لإلقاء نظرة على معطفه وملقحته ثم أعاد طيه بحذق . ولم يكن معه سلاح ظاهر وكان يلبس بدلة شاب عائد من حفل راقص : ومهما كان مقدار

سرعة الفحص الذى قام به الرجل العسكرى المتشكك فقد كان ما رآه كافياً لأن يصيح : بحق الشيطان أين استطعت أن تذهب فى هذا البرد القارس لتلطخ نفسك بالطين ؟

— أجابه فى تعبير متعال : وأسئلة ثانية !

وفى هذه اللحظة رمق الماركيز ابنه . وتذكر الدرس الذى لقنه إياه منذ قليل عن التنفيذ الصارم للوعد المأخوذ ، فأحس بكدر قوى فى هذا الظرف ، بحيث قال له فى نغمة غضب :

— كيف يا أيها الصغير العجيب ، تكون هنا بدلا من أن تكون فى سريرك ؟

أجاب « جوستاف » : لأننى اعتقدت أننى أستطيع أن أنفعك فى الخطر .

أجاب الوالد بشكل أرق تحت تأثير رد ابنه عليه : هيا . اصعد إلى غرفتك .

وقال وهو يواجه المجهول ، : وأنت اتبعنى .

وصارا صامتين كلاعبين يحذر أحدهما الآخر . وبدأ اللواء يحس مشاعر مشئومة ، وصار المجهول يجثم سلفاً فوق قلبه مثل الكابوس ، ولكنه قاده وقد سيطر عليه التسليم بالعهد خلال الدهاليز وسلالم البيت إلى أن أدخله فى حجرة كبيرة فى الطابق الثانى فوق الصالون على وجه التحديد . وكانت هذه الحجرة غير المأهولة تستخدم كمنشر للملابس

شتاء . ولم تكن توصل إلى أى مكان فى السكن . ولم يكن بها من الديكور فوق حوائطها الأربعة سوى مرآة قطة مهجورة فوق المدفأة منذ وجود صاحب البيت القديم ، ومرآة كبيرة لم تكن مستخدمة فى أثناء نقل متاع الماركيز ، فوضعت فى واجهة المدفأة مؤقتاً ، ولم تكن أرضية تلك الغرفة الموجودة تحت السطح مباشرة قد نظفت عن طريق الكنس إطلاقاً . كما كان الهواء فيها بارداً كالثلج . فضلا عن كرسيين قديمين نزع عنهما القش وهما كل أثاث الغرفة .

وبعد أن وضع اللواء مصباحه فوق مسند المدفأة قال للمجهول :

استلزم أمانك أن تكون هذه الغرفة تحت سطح البيت ملجأك . ولما كنت قد وعدتك بحفظ السر فستعدنى بأن تحفظ بابها مقفلا عليك .

وخفض الرجل رأسه كعلامة على الموافقة . وأضاف : لم أطلب سوى الملاذ والسر والماء .

أجاب الماركيز الذى أغلق الباب بعناية وهبط متحسساً طريقه إلى الصالون ، كى يبحث عن مصباح ليحضر بنفسه دورق ماء من المطبخ : سوف أحضره إليك .

سألت الماركيزة زوجها بقوة : هيه ! ياسيدى ماذا هناك ؟

أجاب بتعبير بارد : لا شئ ياعزيزتى .

ولكننا استمعنا برغم ذلك ، فقد صحبت شخصاً ما إلى أعلى البيت

قال اللواء وهو ينظر إلى ابنته وقد رفعت رأسها نحوه : هيلين افهمى أن شرف أبيك متوقف على كتمانك للسر ، وينبغى ألا تكونى قد سمعت شيئاً .

وأجابت الفتاة بحركة رأس معبرة . وبقيت الماركيزة محرومة من كل شيء ، ومغيظة فى قلبها من الطريقة التى اتبعها زوجها كى يفرض عليها الكتمان . وذهب اللواء بأخذ دورق ماء وكوباً وصعد إلى الغرفة التى كان فيها السجين . فوجده واقفاًمستنداً إلى الحائط بالقرب من المدفأة ورأسه عار ، فقد ألقى بقبعته فوق أحد الكرسيين ، ولم يتوقع الغريب بلا شك أن يلقى عليه النور بقوة ، فقد تغضن جبينه ، وصار وجهه قلقاً عندما التقت عيناه بعينى اللواء النافذتين . ولكنه صار رقيق الحاشية وأخذ هيئة لطيفة وهو يشكر حاميه . وعندما وضع هذا الأخير الكوب والدورق فوق مسند المدفأة قطع المجهول الصمت ، بعد أن قذفه أيضاً بنظرة مشتعلة . قال بصوت رقيق لم تعد فيه أى تقلصات حلقية كما كان من قبل ، ولكنه كان لايزال يفصح عن ارتعاد داخلى : سيدى سوف أبدو لك غريباً ، ولكن اغفر هذه النزوات الوقتية الضرورية . إذا بقيت هنا فإنى أرجوك ألا تنظر إلى عندما أشرب .

فاستدار اللواء فجأة متكدراً من أن يطيع دائماً رجلا يستقبحه . وانتزع الغريب من جيبه منديلا أبيض لفه حول يده اليمنى . ثم أمسك الدورق وشرب ماحواه من الماء دفعة واحدة ، وبغير أن يفكر الماركيز

فى أن ينكث عهده الضمنى نظر آلياً فى المرآة ، وعندئذ سمح تناظر المرآتين لأن يحيط المجهول بنظره تماماً ، ورأى المنديل يحمر فجأة بتلامس يديه الممتلئتين دماً .

صاح الرجل عندما انتهى من الشرب ولبس المعطف وفحص اللواء بنظرات شك : آه ! لقد رأيتنى . . . لقد ضعت إنهم قادمون . ها هم أولاء .

قال الماركيز : أنا لا أسمع شيئاً .

— أنت لا يهمك شىء بقدر ما يهمنى للاستماع فى الفضاء .

«لقد تشاجرت إذن فى مبارزة حتى تصبح مغطى بالدم على هذا النحو؟»

قال اللواء هذا وهو منفعل إلى حد ما عند مشاهدته بوضوح لون البقع الكبيرة التى بللت ملابس ضيفه .

— نعم . مبارزة كما تقول .

وجعل الغريب يردد هذا وقد ترك ابتسامة مريرة تجول بشفتيه .

فى هذه اللحظة دوى صوت خيول عديدة تعدو فى أقصى سرعتها عن بعد ؛ لكن هذه الضوضاء كانت ضعيفة كأول أضواء الصباح ؛ وتعرفت آذان اللواء ذات المران الطويل على خطوات خيول مدربة فى نظام السوارى ، وقال : إنهم عساكر « البوليس » .

وألقى على سجينه نظرة تنزع نحو تبديد الشكوك التى ساورته بسبب كتمانه غير الإرادى ، وحمل المصباح وعاد إلى « الصالون» .

ولم يكد يضع مفتاح الغرفة العالية فوق المدفأة حتى زادت الضوضاء التى أحدثها الفرسان وأخذت تقترب من البيت الريفى بسرعة جعلت بدنه يقشعر . وفعلا توقفت الخيول أمام باب البيت ؛ وهبط أحد الفرسان من فوق حصانه . وأخذ يتبادل بعض العبارات مع زملائه ، ثم دق الباب بشدة ،وأجبر اللواء على الذهاب لفتح الباب . ولم يتمالك اللواء انفعاله الخفى أمام مرأى ستة جنود من جنود الدرك ذوى القبعات المطرزة بالفضة اللامعة تحت ضوء القمر .

قال له أحد الأونباشية : ياسيادة الشريف ، ألم تسمع منذ قليل رجلا يعدو نحو السور ؟

نحو السور ؟ لا . .

— ألم تفتح بابك لأحد ؟

— وهل لى العادة فى أن أفتح أنا بنفسى الباب ؟ ...

— ولكن مع الاعتذار ياسيدى اللواء فى هذه اللحظة يبدو لى أن ...

صاح الماركيز بلهجة الغضب : آه ! يا للأمر ! هل تحاول أن تداعبنى ؟ هل لك الحق . .

عاد الأونباشى يقول برقة : لا .. لا .. يا سيادة الشريف . لاشك أنك تغفر اجتهادنا فى البحث . نحن نعرف جيداً أن أحد الأمراء الفرنسيين لن يعرض نفسه لاستقبال قاتل فى هذه الساعة من الليل ،

غير أن رغبتنا فى الحصول على بعض المعلومات ..

صاح اللواء : قاتل ! ومن كان إذن ...

قال العسكرى : السيد البارون دى مونى قتل منذ لحظة بضربة فأس ، غير أن القاتل قد أصبحت خطواته تحت متابعة دقيقة ، ونحن متأكدون من أنه فى هذه الأماكن القريبة . وسوف نمسك به . اغفر لنا ياسيدى اللواء .

قال العسكرى ذلك وهو يقفز فوق فرسه حتى إنه لم يتمكن لحسن الحظ أن يشهد وجه اللواء . وقد اعتاد « الأونباشى » أن يفترض كل شيء ولعله كان يستطيع أن يلمح الشكوك فى مرأى هذا الوجه المكشوف حيث كانت تموج بإخلاص شديد كل حركات الروح .

سأل اللوا ء : هل تعرف اسم القاتل ؟

أجاب الفارس: لا .. لقد غادر المكتب مملوءاً بالذهب وبالأوراق المالية دون أن يلمسها .

قال الماركيز : إنه أخذ بالثأر .

— هوه ! من رجل عجوز ؟ ... لا ... لا . لم يتمكن ذاك السفيه من أن يقوم بمهمته .

ولحق الشرطى برفاقه الذين كانوا يعدون على مبعدة . وبقى اللواء لحظة فريسة حيرة من السهل فهمها . وسرعان ما سمع صوت خدمه

الذين كانوا عائدين وهم يتناقشون فى حرارة مما جعل أصواتهم تدوّى عند ناصية (مونترى) .

وعندما وصلوا صبّ غضبته التى كان لابد لها من مسوغ كى تظهر بهذه الحدة عليهم مثل وقع الصاعقة ، وأرعد صوته مواقع الأصداء بالبيت ، ثم خفض صوته فجأة عندما اعتذر أكثرهم جرأة ومهارة . وهو خادمه الخاص، عن تأخرهم بإبلاغه أن الشرطة ورجال البوليس قد استوقفوهم عند مدخل (مونترى) للتحقيق بشأن قاتل . وفجأة صمت اللواء . ثم تذكر بهذه الكلمة وضعه الفريد ، فأمر هؤلاء الخدم جميعاً بلهجة جافة أن يذهبوا ليناموا فى الحال، وهم مستغربون لسهولة تصديقه أكذوبة الخادم .

ولكن عندما كانت هذه الأحداث تمر بالفناء وقعت حادثة خفيفة إلى حد ما من حيث المظهر بدلت من موقف الشخصيات الأخرى الممثلة فى هذه القصة . فلم يكد الماركيز يخرج حتى قالت زوجته، بعد أن ألقت نظرات متبادلة بين مفتاح غرفة تحت السطح و بين « هيلين » — قالت بصوت منخفض وهى تميل نحو ابنتها : « هيلين ، لقد ترك والدك المفتاح فوق المدفأة .

فذهلت الفتاة الشابة ، ورفعت رأسها ، ونظرت فى خجل نحو أمها التى كانت عيناها محتدمتين فضولا .

أجابت بصوت مضطرب : هيه يا ماما ؟

إننى أريد أن أعرف ما يدور فى أعلى البيت . . إذا كان ثمة شخص فلاشك أنه لم يمض بعد . اذهبي إذن إلى هناك ..

قالت الفتاة بشيء من الفزع : أنا ؟

– هل تخافين ؟

– لا ياسيدتى ؛ ولكننى أعتقد أننى تبينت خطوات رجل .

قالت الأم بنغمة الاحترام البارد : لو كنت أستطيع أن أذهب بنفسى لمارجوتك أن تصعدى يا « هيلين » إذا عاد والدك ولم يجدنى فمن المحتمل أن يبحث عنى . فى حين أنه لن يلتفت إلى غيابك .

أجابت « هيلين » : سيدتى ؛ إذا كنت توصيننى بذلك فسأقوم به ، ولكننى سأفقد تقدير والدى ...

قالت الماركيزة بلهجة ساخرة : كيف ؟ ولكن مادمت تأخذين مأخذ الجد ما لم يكن سوى دعابة ، فالآن آمرك بأن تذهبى لترى ما يجرى فى الطابق الأعلى . هاك المفتاح يابنتى ! إذا كان والدك قد أوصاك بالتزام الصمت فيما يتعلق بما يدور الآن ببيته فإنه لم يحرم عليك أن تصعدى إلى تلك الغرفة . هيا اذهبى واعرفى أنه لا ينبغى إطلاقاً أن تكون الأم موضع سوء ظن من ابنتها ...

وبعد أن نطقت الماركيزة هذه الأقوال الأخيرة بقسوة الأم المهانة إهانة كاملة ، أخذت المفتاح وأودعته يد « هيلين » التى هبت دون أن تنطق بكلمة وغادرت « الصالون » .

« أمى تعرف دائماً كيف تحصل على عفوه ؛ ولكننى سأفقد مكانتى لديه ؛ فهل تريد أن تحرمنى من الحنان الذى يحفظه لى ، وأن تطردنى من البيت ؟ أخذت هذه الأفكار تختمر فى خيالها فجأة أثناء سيرها بغير ضوء على طول الرواق الذى كان باب الغرفة السرية فى نهايته . وعندما وصلت عندها كان اضطراب أفكارها ذا طابع محتوم ، وأدى هذا النوع من التأمل المضطرب إلى طفح آلاف المشاعر التى كانت حتى ذلك الوقت كامنة فى قلبها . ولعلها لم تعد تتوقع سلفاً مستقبلا سعيداً ، فصارت الآن فى هذه اللحظة الرهيبة مكتملة اليأس من الحياة . وارتعدت بتشنج وهى تدنو بالمفتاح من القفل ، وصار انفعالها من القوة بحيث وقفت لحظة لتضع يدها على قلبها كأنها تستطيع بذلك أن تهدئ من ضرباته العميقة الرنانة .

وفى النهاية فتحت الباب . وعبثاً بلغ صرير المفتاح فى القفل آذان القاتل ، إذ برغم أن سمعه كان مرهفاً جداً بقى ملتصقاً بالحائط تقريباً بلاحراك كما لو كان ضائعاً مع أفكاره . واستطاعت دائرة الضوء التى أسقطها المصباح أن تنيره بعض الشيء . فكان يشبه فى منطقة الوسط بين الضوء والظلمة تلك التماثيل المعتمة الخاصة بالأشراف القدماء الواقفة دائماً عند زاوية بعض المقابر السوداء فى الكنائس القوطية الصغيرة ، وكانت بعض قطرات من العرق البارد تخطط جبهته العريضة الصفراء ، وكانت تلمع فوق هذا الوجه الشديد التقطيب جرأة لا يتصورها العقل ،

وكانت عيناه محتدمتين ثابتتين جافتين تبدوان كأنه يتأمل صراعاً فى قلب الظلام الماثل أمامه . ومرت فوق وجهه أفكار عاصفة بسرعة ، وكان تعبير وجهه الثابت المحدد يشير إلى روح عالية . أما بدنه ووضعه والأبعاد المتمثلة فيه فكانت ملائمة لعبقريته غير الآدمية . إذ كان هذا الرجل قوة محضة ، وقدرة محضة . وكان يواجه الظلمات كصورة مرئية لمستقبله .

ولما كان اللواء قد اعتاد رؤية النماذج النشطة من العمالقة التى كانت تتعجل الخطو حول « نابليون » وكان مشغول الذهن آنئذ ببعض الفضول الأدبى ، فإنه لم يعط صفات هذا الرجل الشاذ الجسمية الفريدة أى انتباه . ولكن حين خضعت «هيلين» ككل النساء للانطباعات الخارجية أخذت بهذا الخليط من الضوء والظل ومن العظمة والعاطفة وبهذا العماء الشعرى الذى أظهر الرجل المجهول فى مظهر « لوسيفر» أو الشيطان حين هبّ من سقطته .

وفجأة هبطت السَّوْرة المرسومة على وجهه كما لو كان ذلك بفعل السحر ، وانتشرت السيطرة غير المحددة التى كان ذلك الغريب على غير علمه مبدأها ونتيجتها فى آن معاً، فى كل ما حوله بسرعة تقدم الطوفان . وصدر سيل من الأفكار عن جبهته عندما عادت ملامحه تأخذ أشكالها الطبيعية .

وكأنما أسرت الفتاة ، سواء بغرابة هذه المواجهة أم بالسر الذى نفذت

إليه ، فأمكنها عندئذ أن تعجب بهيئة وجه رقيقة مليئة بالخير . وبقيت بعض الوقت فى صمت ساحر ، وفريسة لاضطرابات لم تعهدها روحها الشابة حتى ذلك الوقت . ولكن سرعان ماحدث أن «هيلين» إما أن تكون قد أصدرت صيحة استغراب وقامت بحركة ، أو أن يكون القاتل ، وقد عاد من دنيا المثال إلى دنيا الواقع قد سمع صوت تنفس غير تنفسه فالتفت برأسه نحو بنت مضيفه. ولمح بغير وضوح وجهها الجليل ، والأشكال المهيبة . لمخلوقة كان يمكن أن يحسبها ملاكاً بمجرد رؤيتها ساكنة ومبهمة مثل (الرؤية العلوية) .

قالت فى صوت خافت : « سيدى » .

وارتعد القاتل .

صاح برقة : امرأة ؟ هل هذا ممكن . ابتعدى

وعاد يقول : أنا لا أعطى أحداً الحق فى أن أشكو إليه وأن يحكم لى أو علىّ . يجب أن أعيش وحيداً . اذهبى يا طفلتى . ثم أضاف بحركة من حركات العظماء : سوف أكون خائناً للخدمة التى أداها لىّ رب هذا البيت إذا تركت شخصاً واحداً من الأشخاص الذين يسكنون هنا يشاركنى فى تنفس نفس الهواء . لابد أن أخضع نفسى لقوانين المجتمع .

نطق بهذه العبارة الأخيرة فى صوت منخفض ، وبعد أن انتهى بحدسه العميق من الإلمام بالشقاء الذى توحى به هذه الفكرة الحزينة

ألقى نظرة ثعبان نحو « هيلين » وأهاج فى خاطر هذه الشابة الفريدة عالماً من الأفكار التى كانت لاتزال نائمة لديها . لقد كان ذلك شبيهاً بالضوء الذى أنار لها آفاقاً كانت لاتزال مجهولة ، وغلبت روحها وقهرت دون أن تجد القوة للدفاع عن نفسها ضد هذه القوة المغناطيسية فى تلك النظرة، على الرغم من أنه لم يلقها عن عمد . وخرجت فى خجل وارتعاد، وعادت إلى « الصالون » قبل عودة والدها بلحظة حتى إنها لم تكد تملك أن تقول شيئاً لوالدتها .

وأخذ اللواء يتمشى مشغولا بهدوء ، وذراعاه متشابكتان ذاهباً آيباً فى خطوات موحدة الهيئة بين النوافذ المطلة على الشارع والنوافذ المطلة على البستان . وكانت زوجته تحتفظ « بأبيل » وهو نائم . ونامت « موينا » غير مبالية فوق المقعد المبطن كعصفور فى عشه . وأمسكت الأخت الكبرى بكرة من الحرير فى إحدى يديها وبإبرة فى اليد الأخرى وأخذت تتأمل النار . ولم يكن يقطع الصمت العميق السائد فى «الصالون» وفى الخارج وفى بقية أنحاء البيت سوى خطوات الخدم الزاحفة ،وهم فى طريقهم إلى النوم ، واحداً بعد الآخر وكذلك بعض ضحكاتهم المكتومة كصدى أخير لمرحهم وللاحتفال بالزواج ثم أيضاً أبواب غرفهم، كلا بمفرده ، عندما كانوا يفتحونها أو يقفلونها ، وهم لايزالون يتبادلون الحديث . كذلك كانت تتصاعد بعض الجلبة الصماء . من الأسرة، وسقط كرسى ،ودوى سعال سائق عربة بضعف ثم خبا الصوت .

ولكن لم تلبث الظلمة الرهيبة التى فاضت على الطبيعة الناعسة فى منتصف الليل أن سيطرت على كل شىء وظلت النجوم وحدها تتلألأ وأمسك البرد بالأرض ، ولم يكن أحد يتكلم أو يتحرك، النار فقط كانت تحس حسيساً مستمراً كأنما تريد أن تكشف مدى عمق الصمت . ودقت ساعة (مونتربى) الواحدة .

فى هذه اللحظة دوى صوت خطوات خفيفة جداً دوياً ضعيفاً فى الطابق الأعلى ؛ وكان الماركيز وابنته متأكدين من إغلاق باب قاتل السيد « دى موفى » فعزوا هذه الحركة إلى إحدى النساء ، ولم يستغربا سماع صوت فتح الأبواب الخاصة بالغرفة السابقة على (الصالون) وفجأة ظهر القاتل وسطهم . وسمحت له الدهشة الكبيرة التى غرق فيها الماركيز وفضول الأم الشديد واستغراب الابنة بأن يتقدم حتى كاد يصبح فى وسط (الصالون) وبأن يقول للواء فى صوت منغم هادئ فريد : سيادة الشريف ، ستنتهى الساعتان عما قليل .

صاح اللواء أنت هنا ؟ . . . بأى قدرة ؟ !

وبنظرة مفزعة سأل الرجل العسكرى زوجته وأولاده ، وصارت « هيلين » فى حمرة النار . وعاد يقول بنغمة نفاذة : أنت ؟ أنت فى وسطنا هنا ؟ قاتل مغطى بالدم هنا ؟ إنك توسخ المنظر ! وأضاف بلهجة حانقة : اخرج ! اخرج !

أمام لفظة قاتل أصدرت الماركيزة صرخة . أما « هيلين » فقد بدت

هذه اللفظة كما لو كانت تقرر كل شيء في حياتها ، فلم يفصح وجهها عن أقل استغراب . إذ بدت كما لوكانت قد انتظرت هذا الرجل . وكان لأفكارها الممتدة إلى ذلك الحد معنى . فقد أشرقت العقوبة التي احتفظت لها بها السماء على ما اقترفته من أخطاء . ولما كانت تعتقد أنها هي الأخرى صاحبة جريمة على نحو ما كان ذلك الرجل ، فقد نظرت إليه الفتاة بعين بشوش .. لقد كانت رفيقته وأخته . وفي نظرها تكشفت وصية من وصايا الله في هذا الظرف . وكان العقل قادراً على أن يبرز هذه الوخزات بعد ذلك بسنوات ، أما في تلك اللحظة فقد جعلها عديمة الإحساس .

بقي الغريب بارداً بلاحراك . وعلت ملامحه وشفتيه الحمراوين الكبيرتين ابتسامة استخفاف .

— إنك تجازيني مجازاة سيئة على نبل إجراءاتي حيالك .

قال ببطء : لم أشأ أن ألمس بيدي الكوب الذي أعطيتني فيه الماء من غلة عطشي ، بل لم أفكر في أن أغسل يدي الملطختين بالدم تحت سقف بيتك ، وأخرج منه دون أن أدع فيه من جريمتي (انضغطت شفتاه عند النطق بهذه اللفظة) سوى الفكرة عندما أحاول العبور هنا دون أن أترك آثاراً . وأخيراً لم أسمح لابنتك قط أن ...

صاح اللواء وهو ينظر إلى «هيلين» نظرة رعب : ابنتي ! آه ! يا لمصيبتك ! اخرج وإلا قتلتك .

— لم تنقض الساعتان بعد ، ولن تستطيع أن تقتلني أو أن تسلمني دون أن تفقد تقديرك الخاص . وكذلك تقديري .

وقد ذهل الرجل العسكري لسماع هذه الكلمة الأخيرة ، فحاول أن يتفرس في صاحب الجريمة . ولكنه اضطر إلى خفض نظراته ، لأنه أحس بأنه غير قادر على أن يقاوم بريق نظرته الذي لا يحتمل ، والذي استطاع للمرة الثانية أن يشيع الاضطراب في روحه، وحتى أن تضعف قواه أيضاً عندما يعترف بأن إرادته قد وهنت سلفاً .

— تقتل شيخاً مسناً ؟ ! لم يكن لديك إذن أسرة أبداً ؟

قال ذلك وهو يشير بحركة أبوية نحو زوجته وأولاده .

وأعاد المجهول قوله الذي تقطب بسببه جبينه تقطيباً خفيفاً : نعم ، شيخ مسن .

صاح اللواء دون أن يجرؤ على النظر إلى ضيفه : اهرب ... لقد نقض العهد بيننا . ولن أقتلك . لا! فلن أجعل من نفسي إطلاقاً مدبراً لتموين المقصلة . ولكن اخرج .. إنك تفزعنا .

أجاب صاحب الجريمة باستعفاء : أنا أعرف ذلك .. لا يوجد مكان في فرنسا أستطيع أن أضع فيه قدمي في أمان . ولكن لو عرفت العدالة مثل الله الحكم على الخصوصيات ... لو تنازلت بأن تحقق: من الوحش ؟ أهو القاتل أم الضحية ؟ ...لبقيت باعتزاز وافتخار بين الرجال . ألا تخمنون أن الرجل المقتول بالفأس منذ قليل كان هو نفسه

ذا جرائم سابقة ؟ لقد جعلت من نفسى الحكم والجلاد معاً ، وحللت محلّ العدالة الإنسانية العاجزة المشلولة . هاك جريمتى . وداعاً ياسيدى وبرغم كل المرارة التى جعلتها تشوب ضيافتك سأحتفظ بذكراها ، وستبقى فى روحى مشاعر اعتراف إزاء رجل فى العالم . وهذا الرجل هو أنت .. ولكن كم وددت أن تكون أكرم من ذلك .

واتجه نحو الباب . وفى هذه اللحظة مالت الفتاة على أمها وقالت لها كلمة فى أذنها .

— آه ! ...

أفلتت هذه الصيحة من زوجة اللواء حتى جعلته هو نفسه يجفل كما لو كان قد شهد « موريتا » ميتة . وكانت « هيلين » واقفة : واستدار القاتل غريزياً مبدياً نوعاً من القلق على وجهه نحو هذه الأسرة ...

سأل الماركيز : ماذا بك .. يا عزيزتى ؟

— « هيلين » تريد أن تتبعه .

واحمر وجه القاتل .

قالت « هيلين » بصوت منخفض : مادامت أمى تترجم على هذا النحو السيئ تعجباً لا إرادياً تقريباً فسوف أحقق أمنياتها .

وبعد أن ألقت نظرة زهو وحشى تقريباً حولها أخفضت الفتاة عينيها وظلت فى وضع رائع من التواضع .

قال اللواء : « هيلين . . . » لقد صعدت إلى أعلى البيت فى الغرفة التى استبقيت ..

— نعم يا أبى .

— فليس طبيعياً إذن أن تهدف إلى ...

إذا لم يكن طبيعياً فهو على الأقل صحيح يا والدى .

قالت الماركيزة بصوت منخفض ولكن بحيث يسمعها زوجها : آه ! يا بنتى ؟ .. « هيلين » ، أنت تفترين على كل مبادئ الشرف والتواضع والفضيلة التى حاولت تنميتها فى قلبك . إذا لم تكونى سوى أكذوبة حتى هذه الساعة المقدورة فإنه لا يؤسف عليك إطلاقاً . هل الكمال الأخلاقى لدى هذا المجهول هو الذى يغريك ؟ وهل هذا هو نوع القدرة الضرورية لدى الناس الذين يرتكبون جريمة ؟ ... إنى أقدرك تقديراً أكبر من أن أفترض ...

أجابت « هيلين » بنغمة باردة : أوه ! افترضى كل شىء يا سيدتى .

ولكن برغم قوة الطباع التى أثبتتها فى تلك اللحظة جفف احتدام عينيها بصعوبة الدموع التى ترقرقت فيهما . وخمن الغريب لغة الأم من بكاء الشابة ، وألقى نظرة (نسر) نحو الماركيزة التى اضطرت بقوة لا تقاوم أن تنظر نحو هذا الغاوى الرجيم . والواقع أنه عندما تقابلت عينا تلك المرأة بعينى هذا الرجل الصافيتين المضيئتين أحست فى روحها برعشة

شبيهة بالهياج الذى يصيبنا عند مرأى الحية أو عندما نلمس زجاجة من الخمر المعتق !

صاحت هى نحو زوجها : يازوجى ... إنه الشيطان ! فهو يستثنى بكل شيء ...

وهب اللواء كى يمسك بحبل الجرس .

قالت « هيلين » للقاتل : سوف يهلكك .

فابتسم المجهول ، وتقدم خطوة ، ووقف ذراع الماركيز ، وأرغمه على أن يتحمل نظرة ملأته بالذهول ونزعت منه قوته .

قال : سوف أدفع لك ثمن ضيافتك وبهذا تصبح بريئى الذمة . وسوف أوفر عليك العار فأقوم بتسليم نفسى . إذ ما الذى سوف أعمله الآن فى الحياة بعد كل ذلك ؟

أجابت « هيلين » وهى توجه إليه أحد الآمال التى لا تلمع إلا فى عينى فتاة : تستطيع أن تندم .

قال القاتل فى صوت جهير ، وهو يرفع رأسه فى خيلاء : لن أندم على الإطلاق .

قال الوالد لابنته : إن يديه ملطختان بالدم .

أجابت : سوف أجففهما .

عاد اللواء إلى كلامه دون أن يجسر على الإشارة إلى المجهول : ولكن . . . هل تعرفين فقط ما إذا كان هو يريدك ؟

فتقدم القاتل نحوه هيلين ، التى بدا جمالها برغم براءته وتهورته كما لو كان يضىء بنور داخلى استطاعت أشعته أن تطلى وأن تبرز أصغر ملامحها وأرق خطوطها إن صح هذا التعبير . وبعد أن ألقى على هذه المخلوقة الساحرة نظرة عذبة لايزال شررها عنيفاً ، قال وهو يحاول أن يخفى انفعالا حاراً : أليس فى حبى لك ، من أجلك أنت ذاتك ، وفى تبرئة ذمتى من ساعتى الحياة اللتين باعهما لى والدك رفض لتضحيتك وإخلاصك ؟

صاحت « هيلين » فى لهجة مزقت القلوب : وأنت أيضاً ترفضنى ؟ وداعاً إذن للجميع سوف أذهب لأموت .

قال الأب والأم معاً : مامعنى ذلك ؟

فبقيت صامتة ، وخفضت عينيها بعد أن استجوبت الماركيزة بنظرة عين بليغة . منذ اللحظة التى حاول اللواء وزوجته فيها الصراع بالأقوال وبالأفعال ضد الامتياز الغريب الذى انتحله المجهول بالبقاء وسطهم والتى حاول هذا الأخير ابتداء منها أن يقذف بالضوء الذى يسبب الدوار النابع من عينيه ، بقى اللواء وزوجته خاضعين لفتور لا تفسير له ، وعاونهما عقلهما المسترخى معاونة غير مجدية لقهر القدرة العلوية التى وقعا تحتها .

وصار الهواء ثقيلا بالنسبة إليهما ، وأخذا يتنفسان بصعوبة دون أن يستطيعا إبداء أى اتهام نحو ذلك الذى طغى عليهما بهذه الطريقة ، برغم أن صوتاً داخلياً جعلهما يدركان أن ذلك الرجل السحرى هو مصدر عجزهما . وفى وسط هذا الاحتضار المعنوى خمن اللواء أن جهوده يجب

أن تهدف إلى التأثير على عقل ابنته المزعزع . فأمسك بها من وسطها ، ونقلها إلى شباك بعيد عن القاتل .

وقال لها بصوت منخفض : ابنتى العزيزة . إذا كان قد ظهر حب غريب فجأة فى قلبك فإن حياتك المليئة بالبراءة وروحك النقية التقية . قد أعطيانى أدلة عديدة على طباعك كيلا أفترض أنك بحاجة إلى طاقة من أجل التغلب على حركة جنونية . وإلا فإن سلوكك يخفى سراً إذن وعلى كل حال فإن قلبى ملىء بالتسامح ، وتستطيعين أن تعترفى لى بكل شىء ، ولو مزقت قلبى فسأعرف يابنتى إسكات آلامى والاحتفاظ لاعترا لك بصمت مخلص. هيا.. هل أنت تغيرين من عاطفتنا نحو إخوتك أو نحو أختك الصغيرة ؟ هل يوجد فى روحك حزن غرامى ؟ تكلمى . اشرحى لى الأسباب التى تدفعك إلى هجر أسرتك واعتزالها وحرمانها من أكبر مفاتنها ومفارقة أمك وإخوتك وأختك الصغيرة .

أجابت : يا أبى ، إنى لست غيوراً من أحد ، ولا عاشقة أحداً ولا حتى صديقك الدبلوماسى السيد « ديفانديتيس » .

واصفر وجه الماركيزة وتوقفت ابنتها وهى تتأملها .

— أليس من واجبى إن عاجلا أو آجلا أن أذهب لأعيش فى حماية رجل؟

— هذا صحيح .

— وهل نستطيع أبداً أن نعرف بأى إنسان نربط مصيرنا ؟

إنى أعتقد فى هذا الرجل .

قال اللواء وهو يرفع صوته : ياطفلة ؛ ألا تفكرين فى كل المصاعب والآلام التى سوف تلاحقك .

— إننى أفكر فى مصاعبه وآلامه ...

قال الأب : أى حياة !

أجابت الابنة وهى تتمتم : حياة امرأة .

صاحت الماركيزة وقد استردت الكلام : إنك لاشك عاقلة .

— سيدتى . إن الأسئلة تملى على الأجوبة. ولكن إذا شئت فسأتكلم بوضوح أكبر .

— قولى كل شىء يابنتى . فأنا أم .

هنا نظرت البنت إلى الأم ، وأدت هذه النظرة إلى سكوت الماركيزة بعض الوقت .

— « هيلين » سأتحمل انتقاداتك ومؤاخذاتك إذا كان لديك شئ منها نحوى ، على أن أراك تتبعين رجلا يتحاشاه الجميع فزعا .

— (ها أنت ذى) ترين يا سيدتى أنه بدونى سيكون وحيداً .

قال اللواء : كفى ياسيدتى فلم يعد لدينا سوى ابنة واحدة !

ونظر إلى « موينا » التى كانت نائمة باستمرار . ثم أضاف وهو يلتفت نحو « هيلين » وسوف أحبسك فى : أحد الأديرة .

أجابت بهدوء مؤنس : لكن يا أبي ... وسأموت فيه . لست مسئولا عن حياتي أو عن روحها إلا أمام الله .

وتبع هذه الأقوال فجأة صمت عميق . ولم يجرؤ شهود هذا المشهد الذى كان كل شيء فيه يمس الإحساسات العادية فى الحياة الاجتماعية على أن ينظر أحدهم إلى الآخر . وفجأة لمح الماركيز مسدساته ، فأمسك بواحد منها وعمره بخفة ووجهه نحو الغريب ، وعند سماع الرجل الصوت الصادر عن القرقعة استدار ، وألقى نظرته الهادئة النفاذة نحو اللواء الذى استرخت ذراعه بطراوة لا تقهر ، وسقط فى ثقل بحيث تدحرج المسدس فوق السجادة ...

قال الأب مخذولا عندئذ فى هذا الصراع المخيف : ابنتى أنت حرة . قبلى أمك إذا كانت تريد أن تقبلك ، أما أنا فلا أريد أن أراك أو أن أسمعك ..

قالت الأم إلى ابنتها : «هيلين» ، إذن فكرى أنك ستعيشين فى شقاء ؛

وخرجت زفرة أو فواقة من صدر القاتل العريض جذبت إليه الأنظار ، وكان وجهه مصبوغاً بتعبير ازدراء .

صاح اللواء ناهضاً : ها هى ذى ضيافتى لك تكلفنى ثمناً باهظاً! لقد قتلت منذ قليل شيخا مسناً ، وها هنا تعتدى بالقتل على أسرة بأكلها . مهما يحدث فسيكون ثمة شقاء بهذا البيت .

سأل القاتل وهو ينظر إلى الرجل العسكرى بثبات : وإذا كانت ابنتك سعيدة ؟

أجاب الأب بمجهود مذهل : إذا كانت سعيدة معك ، فلن أندم عليها .

وهبطت «هيلين» على ركبتيها فى حياء أمام أبيها ، وقالت له بصوت عطوف : أى أبت ، إننى أحبك وأحترمك سواء بذلت لى كنوز طيبتك أو جفاوات حرمانك لى من حظوتك ورضاك . ولكننى أتوسل إليك ألا تكون آخر أقوالك لى أقوال غضب .

ولم يجرؤ اللواء على أن يتأمل ابنته . فى هذه اللحظة تقدم الغريب ملقياً نحو «هيلين» ابتسامة محملة بشيء من الجحيم وبشيء من الفردوس معاً ، وقال :

— أنت يا من لا يخيفك قاتل ... ياملاك الرحمة . هلمى . تعالى ما دمت مصرّة على أن تكلى إلىّ مقاليد مصيرك .

صاح الأب : شيء لا يتصور .

وألقت الماركيزة نحو ابنتها نظرة غريبة ، وفتحت لها ذراعيها ، فهرعت إليها «هيلين» باكية .

— وداعاً . وداعاً يا أماه !

وأعطت «هيلين» الغريب إشارة بجسارة أطربته ؛ وبعد أن قبلت

يد والدها وقبلت « مويناه » و« أبيل » الصغير بسرعة ، ولكن بغير متعة ، ولت الأدبار مع القاتل .

صاح اللواء وهو يصغى لخطوات الهاربين : من أى جهة يذهبون ؟

وعاد يقول وهو يوجه الكلام إلى زوجته : سيدتى ، أعتقد أننى فى حلم : تخفى هذه المغامرة عنى سراً ما ، لابد أنك تعرفينه .

وارتجفت الماركيزة ، وأجابت :

— لقد صارت ابنتك .. منذ بعض الوقت ذات خيال روائى غريب ومتهوس هوساً فريداً . وبرغم اهتماماتى بالقضاء على تلك النزعة فى خصالها ...

— ليس هذا واضحاً ...

ولكن خيل إليه أنه سمع فى الحديقة خطوات ابنته والرجل الغريب فقطع اللواء كلامه كى يفتح الشباك بسرعة ، وصاح : « هيلين » .

وضاع هذا الصوت فى الليل البهيم كنبوءة غير مجدية . وعند نطقه بهذا الاسم الذى لم يعد يعادله شيء فى الوجود ، أفاق اللواء كما لوكان بفعل رقية سحر من الافتتان الذى جعلته قدرة رجيمة أسيراً له ، وكما لوكان قد تخلل وجهه ضرب من الإلهام الإلهى . فرأى المشهد الذى جرى منذ هنيهة فى وضوح ، ولعن ضعفه الذى لم يفهمه . وصعدت قشعريرة حارة من قلبه إلى رأسه وإلى قدميه . وعاد هو نفسه مخيفاً متعطشاً إلى الانتقام وصاح صيحة مريعة : النجدة ! النجدة !

وجرى نحو حبال الأجراس وشدها كما لوكان يريد أن يحطمها بعد أن جعلها ترن رنيناً عجيباً . وهب كل الخدم قفزاً من نومهم ؛ أما هو فظل دائم الصياح ، وفتح نوافذ الطريق ، ونادى الشرطة ، وأحضر مسدساته وأطلقها كى يتعجل سير « السوارى » واستيقاظ خدمه ومجىء جيرانه . وتعرف الكلاب على صوت سيدهم عندئذ وتبحث ، كما أخذت الخيول تصهل وتنكث الأرض بأقدامها . وتحول المشهد إلى زوبعة ضارية وسط تلك الليلة الهادئة . ورأى اللواء وهو يهبط السلالم عدواً وراء ابنته خدمه مذعورين وقد تجمعوا من كل صوب .

— ابنتى ؟ « هيلين » اختطفت . اذهبوا إلى الحديقة ! راقبوا الشارع ! افتحوا للشرطة ! بالقاتل !

وفى الحال حطم السلسلة التى تعوق كلب الصيد الكبير بقوة الغضب .

— « هيلين » ! « هيلين » !

ووثب الكلب وثبة أسد ، ونبح مسعوراً ، واندفع فى الحديقة بسرعة حتى لم يعد اللواء يستطيع أن يتبعه . ودوت فى هذه اللحظة أصوات عدو الخيول فى الشارع ، وذهب اللواء مهرولاً يفتح الباب بنفسه .

يا « أومباشى » . اذهب اقطع طريق انسحاب قاتل السيد « دى موتى » . لقد ولى مخترقاً بساتينى . بسرعة حاصروا الطريق إلى (تل بيكاردى) وسوف أقوم بحملة مطاردة فى كل الأراضى والحدائق والبيوت. أما أنتم — قال للخدم — فاسهروا لمراقبة الطريق وحاصروا المسافة من عند



السور حتى (فرساى) إلى الأمام جميعاً !

ولم يمسك إلا ببندقية أحضرها له خادمه ، واندفع فى البساتين وهو ينادى الكلب : « ابحث ! » فكان الكلب يردّ عليه بنباح مريع عن بعد ، واتجه فى الاتجاه الذى بدا له أن شهيق الكلب كان يأتى منه .

وفى السابعة صباحاً لم تكن أبحاث الشرطة أو اللواء أو خدمه أوجيرانه ذات جدوى . ولم يعد الكلب . وأعيا اللواء التعب ، وقد شاخ سلفاً بفعل الحزن، فعاد إلى (الصالون) منفرداً إلى نفسه برغم وجود أولاده فيه.

قال وهو ينظر إلى زوجته : لقد كان لديك برود إزاء ابنتك... هاك ما تبقى لنا منها ! وأضاف وهو يشير إلى التول حيث رأى وردة مشغولة مبدوءة: لقد كانت هنا منذ هنيهة . والآن ضاعت . ضاعت !

وصار ينحب وهو يخفى رأسه بين يديه ، وبقى صامتاً لحظة دون أن يجرؤ على تأمل (الصالون) الذى كان فيما مضى يمنحه أعذب لوحة فى السعادة البيتية . وأخذ شروق الفجر يصارع المصابيح الذاوية ، وحرقت الشموع نقوشها المزهرة من الورق . وكان كل شئ يتلاءم مع يأس الوالد .

قال بعد لحظة صمت وهو يشير إلى التول : لابد من تحطيم ذلك ... لن أستطيع أن أرى شيئاً مما يذكرنا بها . . .

* * *

كانت ليلة عيد الميلاد البشعة التى أصيب الماركيز وزوجته فيها بفقد ابنتهما الكبرى ، دون أن يقويا على معارضة السيطرة الغريبة التى

أنقذها فيهم الرجل الذى أغواها عن غير قصد ، بمثابة إعلان بحث إذ أدى إفلاس أحد وكلاء النقد إلى خراب الماركيز ، فرهن عقار كل أملاك زوجته لكى يحاول القيام بمضاربة تؤدى فوائدها إلى إعادة ثروة أسرته الأولى إليها . ولكن أتى هذا المشروع على كل شىء ، وانتهى بإفلاسه واندفع اللواء بدافع يأسه إلى محاولة كل شىء ، فتغرب وهجر وطنه . ومضى على رحيله ست سنوات . وبرغم أن أسرته نادراً ما تلقت أخباره أعلن إليها عودته قبل اعتراف أسبانيا باستقلال الجمهوريات الأمريكية بأيام قلائل .

وفى صباح أحد الأيام الجميلة وجد بعض البحارة الفرنسيين الذين نفد صبرهم من أجل العودة إلى وطنهم محملين بثروات حصلوا عليها مقابل الأعمال الطويلة ، والقيام برحلات خطرة سواء إلى (المكسيك) أو إلى (كولومبيا) ، وجد هؤلاء البحارة أنفسهم فوق مركب أسبانى شراعى ذى صاريين على بعد بعض فراسخ من (بوردوه) . وكان ثمة رجل ، عجوز من جراء المتاعب ، أو بدافع الحزن ، أكثر مما كان عجوزاً بمقتضى سنوات عمره ، يستند إلى (منرسة) المركب ، ويظهر غير واع مشهد المسافرين المجتمعين فوق السطح .

وكانوا قد أفلتوا من أخطار الملاحة ، واحتفلوا بجمال اليوم ، فصعدوا جميعاً فوق الجسر كما لو كانوا يؤدون التحية لأرض موطنهم . وشاء أغلبهم بإصرار أن يروا عن بُعد المنارات وعمائر (الجاسكونى) وبرج

هضبة (الكوردوان) ممزوجة باختلاقات الخيال المتطرف عن بعض السحب البيضاء المرتفعة عند الأفق . ولولا الشراشيب البيضاء المفضضة التى كانت تتلاعب فى مقدمة المركب ، ولولا الخط الطويل الذى كان سرعان ما يختفى من ورائها ، لاعتقد المسافرون أنها كانت بلا حراك وسط المحيط من شدة سكون البحر هنالك . وكانت السماء ذات صفاء ساحر . وكانت صبغة أركانها الداكنة تصل بدرجات هابطة غير محسوسة إلى حد اختلاطها بلون المياه المائل إلى الزرقة مع تخطيط نقطة التقائهما بخط كان ضوءه يتلألأ بشدة على نحو ما تتلألأ الكواكب . وكانت الشمس تدفع بملايين الواجهات إلى اللمعان على امتداد البحر الهائل ، بحيث كانت سطوح الماء الشاسعة تبدو أكثر بريقاً تقريباً من حقول قبة السماء .

وكانت أشرعة المركب كلها منتفخة برياح ذات رقة عجيبة . وكانت ملاءاتها بيضاء ناصعة كالجليد . كما كانت خيامها الصفراء ترفرف وترتسم متاهات حبالها بدقة صارمة فوق أرضية لامعة من الهواء والسماء والمحيط دون أن تتقبل أى صبغات أخرى سوى صبغات الظلال التى تسقطها تلك الأشرعة الندية . يوم جميل .. ريح رطبة .. رؤية الوطن .. بحر هادئ .. حفيف أسيان .. مركب شراعى بصاريين .. يمضى وحيداً أو ينزلق فوق المحيط كامرأة تطير نحو موعد لقاء .. لقد كان ذلك لوحة مليئة بالانسجام والتناسب .. مشهد تحيط فيه الروح الإنسانية بفضاءات

لا تتغير ابتداء من نقطة كان كل شيء فيها حركة . كان ثمة تعارض مدهش بين الوحدة والحياة ... بين السكون والضوضاء ... دون أن تمكن معرفة أين كانت الضوضاء والحياة أو العدم والصمت . كذلك لم يكن يقطع حبل ذلك السحر السماوى صوت إنسانى واحد .

وبقى القبطان الأسبانى وبحارته وجميع الفرنسيين جالسين أو واقفين وقد استغرقوا جميعاً فى وجد دينى ملىء بالذكريات . وكان هناك بعض التكامل فى الهواء . وكشفت الوجوه المزدهرة عن نسيان تام للمساوئ المنقضية . وأخذ هؤلاء الرجال يتمايلون فوق هذه السفينة الحلوة كما لو كانوا فى حلم ذهبى .

وبرغم ذلك كان المسافر العجوز المستند إلى (مترسة) السفينة ينظر من حين لآخر فى نوع من القلق ، كان ثمة تحد للمصير الممزوج بكل ملامح وجهه فى وضوح . وكان يبدو كأنه متخوف من ألا يلمس بسرعة إلى حد ما أرض فرنسا . وكان ذلك الرجل هو الماركيز ؛ إذ لم يكن الحظ أصم أمام صرخاته وجهوده النابعة من يأسه . وبعد خمس سنوات من المحاولات والأشغال الشاقة رأى نفسه مالكاً ثروة ذات شأن وكان مشوقاً شوقاً شديداً لرؤية بلده ، وليحمل الحظ إلى أسرته ، فنسج على منوال بعض التجار الفرنسيين من (هافانا) فى إبحارهم فوق ظهر سفينة أسبانية ذات شحنة فى اتجاه (بوردوه) .

وبرغم ذلك أنهكه توقع الشر حتى صار خياله يرسم له أحلى الصور

الذهبية عن سعادته الماضية . وعندما شهد عن بعد الخط الأسمر الذى ترسمه حافة الساحل الأرضى اعتقد أنه يرى زوجته وأولاده ، وصار فى بيته وفى مسكنه ، وأحس هنالك بأنه فى زحمة وتلامس وتربيت ، وتخيل « موينا » جميلة كبيرة موقرة كفتاة شابة ، وعندما صارت هذه اللوحة الخيالية قريبة من الحقيقة انسكبت الدموع من عينيه . وعندئذ — كأنه يخفى اضطرابه — نظر إلى الأفق الرطيب المقابل للخط الضبابى الذى أشار إلى الأرض .

قال : إنه هو إنه يتبعنا .

صاح القبطان الأسبانى : ما هذا ؟

عاد اللواء يقول بصوت خفيض : مركب

أجاب القبطان « جوميز » : لقد شهدته بالأمس سلفاً . ثم نظر إلى الفرنسى كأنه يريد أن يستجوبه وقال عندئذ فى أذن اللواء : لقد طاردنا دائماً ولا أدرى لماذا لم يلحق بنا أبداً .

عاد الرجل العسكرى العجوز يقول : مع أنه ذو قلوع أفضل من قلوع سفينتكم اللعينة (سان فيرديناند) .

— سوف يصاب بعطب .. ثمة ثقب فى السفينة .

صاح الفرنسى : إنه يلحق بنا .

قال له القبطان فى أذنه : إنه أحد القراصنة (الكولومبيين) نحن لا نزال على بعد ستة فراسخ من الساحل . وقد هدأت الريح .

— إنه لا يسير . إنه يطير كأنه يعرف أن فريسته ستفلت منه فى غضون ساعتين . صاح القبطان : هو ! آه ! إنه لا يسمى (عطيل) عبثاً . لقد أغرق أخيراً مركباً حربياً إسبانياً وليس مزوداً برغم ذلك إلا بثلاثين مدفعاً . ولم أكن أخشى سواه ، لأننى كنت أجهل أنه كان يباشر قرصنته فى جزائر (الأنتيل) ... آه ! آه !

وعاد يقول بعد فترة سكون نظر فى أثنائها إلى قلوع سفينته : الريح تنشط . سوف نصل . لابد من ذلك (فالباريسى) لا يرحم .

أجاب الماركيز : هو أيضاً يصل .

لم يعد (عطيل) أبعد من ثلاثة فراسخ . وبرغم أن (طقم) البحارة لم يسمع محادثة الماركيز والقبطان « جوميز » فقد دفع ظهور تلك السفينة الشراعية أغلب البحارة والمسافرين إلى المكان الذى كان فيه المتخاطبان ، ولكن جميعهم كانوا يرونه مسرعاً عن اهتمام . لعلمه أن المركب الشراعى ذى الصاريين سفينة تجارية ، وصاح فجأة أحد الملاحين فى لغة قوية :

— باسم « سان جاك » لقد اشتعلنا .. هاك القبطان (الباريسى) .

وبذكر هذا الاسم المخيف انتشر الرعب فى السفينة الشراعية ذات الصاريين . وساد هرج يعجز التعبير عن وصفه ، وبثّ القبطان الأسبانى بأقواله طاقة وقتية فى بحارته ، وحاول — وهو فى هذا الخطر تحت تأثير رغبته فى بلوغ الساحل بأى ثمن كان — أن يضع بسرعة قلوعه الإضافية

العالية والسفلى وقلوع الميمنة وقلوع الميسرة كى يعطى الرياح أكبر مسطح من الأشرعة التى يزود بها عوارض الصاريين ، ولكن هذه المناورات لم تتم إلا بعد صعوبات شديدة ، إذ كان ينقصها بطبيعة الحال هذا التناسق الجمعى الرائع الذى يبهر النظر إلى حد كبير فى المراكب الحربية .

ورغم أن (عطيلا) كانت تطير كطائر (السنونو) بفضل توجيه قلوعها ، فإنها لم تقطع كثيراً من المسافة فى مظهرها . حتى إن الفرنسيين التعساء جعلوا يتوهمون بعض الوهم الرقيق . وفجأة وفى اللحظة التى أخذت فيها (سان فيرديناند) انطلاقاً جديداً بعد جهود لا يصدقها العقل ، وبفعل مناورات قديرة ساعد فيها « جوميز » بنفسه بالعمل والحركة وبالصوت . حدثت حركة خاطئة فى الدفة ، مقصودة بلا أدنى شك ، أنفذها مدير الدفة . فجعل المركب . يسير عرضاً . وأصيبت القلوع بضربات الريح الجانبية . فصارت فجأة مكشوفة أمام الريح بدلا من أن تتلقاها بوسعها ، وتكسرت الأطراف الخارجية حتى صارت السفينة بأكملها تامة التوقف .

وتملك القبطان غضب لا يمكن التعبير عنه بجعله أشد بياضاً من قلوعه . وفى طفرة واحدة قفز فوق مدير الدفة فأدركه بخنجره وهو فى أشد الغضب . ولكنه أفلت من الخنجر فدفعه بسرعة إلى البحر ، ثم أمسك هو نفسه بالدفة وحاول أن يعالج الاضطراب المخيف الذى أثار

سفينته الجسور الشجاعة . وتدحرجت دموع اليأس من عينيه، لأننا نحس بالحزن من الخيانة التي تزيف النتائج التي تحققها مواهبنا أكثر مما ينشأ عن الموت المتوقع . ولكن كلما أقسم القبطان أكثر كان العمل يتم بدرجة أقل . وسحب بنفسه مدفع الإنذار على أمل أن يصير مسموعاً على الشاطئ . في هذه اللحظة أجاب القرصان الذي كان في طريقه إلى الوصول في سرعة مونسة بضربة مدفع سقطت قذيفته على بعد ستين قدما من (سان فيرديناند) .

صاح اللواء : صاعقة للتصويب ! إنهم يملكون مدافع مصبوبة صنعت خصيصاً .

أجاب أحد البحارة : أوه ! هذا الرجل كما ترى .. عندما يتكلم لابد من السكوت .. (فالباريسي) لن يخاف مركباً إنجليزياً ...

صاح القبطان في لهجة يأس بعد أن صوب منظاره ولم يستطع أن يميز شيئاً من ناحية الساحل... : انتهى كل شيء... إننا لانزال أبعد من فرنسا أكثر مما كنت أعتقد .

عاد اللواء يقول : ولماذا تكدر نفسك ؟ إن ركابك جميعاً من الفرنسيين . وقد استأجروا مركبك . وهذا القرصان (باريسي) كما تقولون . فارفع العلم الأبيض و ...

أجاب القبطان : ثم يحرق مركبنا أليس ذلك هو كل ما يجب أن يكون وفقاً للظروف عندما يريد أن يضع يده على فريسة ثمينة ؟

– آه ! إذا كان قرصاناً !

قال الملاح بتعبير نافر : قرصان ! آه ! إنه يسوى أموره دائماً حسب الأصول أو يعرف كيف يكون كذلك .

صاح اللواء وهو يرفع عينيه إلى السماء : على أي حال فلنستسلم .

وكانت لاتزال لديه القوة ليحبس دموعه . وعندما انتهى من هذه الكلمات حملت ضربة مدفع ثانية قذيفة مصوبة تصويباً أدق إلى جدران السفينة (سان فيرديناند) فاخترقتها .

قال القبطان وهو في حالة حزن : أوقف كل حركة .

وعاون الملاح الذي دافع عن أمانة (الباريسي) بذكاء بالغ في هذه المناورة اليائسة ، وانتظر النوتية خلال نصف ساعة قاتلة فريسة لارتياع عميق . كانت (سان فيرديناند) تحمل أربعة ملايين من القروش التي تؤلف ثروة خمسة مسافرين ، وثروة اللواء التي تبلغ أحد عشر ألفاً من الفرنكات .

وأخيراً عندما وجدت السفينة (عطيل) نفسها على بعد عشر مرات من مرمى البندقية أشهرت بوضوح فوهات الاثنى عشر مدفعاً المبشرة بالخطر والمستعدة لإطلاق النار . وكأنما حملتها ريح نفخها الشيطان خصيصاً من أجلها ، ولكن عين الملاح الماهر كانت تفطن بسهولة إلى سر هذه السرعة . وكان يكفي تأمل وثوب السفينة ذات الصواري وشكلها المسحوب بالطول ، وضيق عرضها ، وارتفاع مجموع صواريها .

وتفصيل أشرعتها، وخفة جهازها الرائع، والسهولة التي كان يتصرف بها مجتمع ملاحيها المتحدين كرجل واحد من أجل تمام توجيه صفحتها البيضاء الممثلة في القلوع — كل شيء كان ينم عن ضمانات القدرة في هذه المخلوقة الخشبية الممشوقة القد التي كانت في سرعة وذكاء فرس حربي أو بعض الطيور الجارحة.

وكان طاقم نوتية القرصان صامتين، وعلى أهبة الاستعداد في حالات المقاومة لأن يلتهموا المركب التجاري المسكين الذي بقي لحسن حظه مطرقاً كتلميذ مخطئ أمام أستاذه.

صاح اللواء وهو يضغط على يد القبطان الأسباني: توجد مدافع عندنا!

فألقى هذا الأخير نظرة مليئة بالشجاعة واليأس معاً نحو الرجل العسكري القديم وهو يقول له: ورجال!

ونظر اللواء إلى بحارة (سان فير دينان) ثم أجفل. وكان التجار الأربعة مصفري الوجوه كما كانوا يرتعدن. في حين كان الملاحون قد تجمعوا حول واحد منهم كما لو كانوا يشنقون أنفسهم ليقفوا في صف (عطيل): فأخذوا ينظرون إلى القرصان باستغراب جشع. وظل رئيس العمل والقبطان والماركيز يتبادلون وحدهم أفكاراً شديدة السخاء، وهم يفحصون أنفسهم بالنظر.

— آه! يا قبطان «جوميز» لقد ودعت منذ زمن بعيد وطني وأسرتي،

وكان القلب ميتاً من الحسرة واللوعة. فهل على أن أفارقهما ثانياً في اللحظة التي أجلب فيها الفرح والسعادة إلى أولادي؟

واستدار اللواء كي يقذف إلى البحر بدمعة غضب وكمد، ولحظ مدير الدفة وهو يسبح فيه نحو القرصان.

أجاب القبطان: في هذه المرة لاشك أنك ستقول له وداعاً إلى الأبد.

وأفزع الفرنسي الأسباني بالنظرة البلهاء التي وجهها إليه. وفي هذه اللحظة كانت السفينتان تقريباً بحذاء بعضهما البعض. وآمن اللواء من مرأى طاقم ملاحي العدو بنبوءة «جوميز» المحتومة.

كان ثلاثة رجال واقفين حول كل مدفع. وبمجرد رؤية حالتهم العضلية القوية وملامحهم المقرنة وأذرعهم العارية العصبية كان يمكن اعتبارهم تماثيل من البرنز، بل لو حانت ساعة موتهم لقتلوا دون أن يطرحهم الموت. وبقي الملاحون المدججون بالسلاح، وقد ظهر عليهم النشاط والسرعة والشدة بغير حراك، وكانت كل هذه الوجوه القوية قد سمرتها الشمس سمرة شديدة وجعدتها الأشغال، وكانت عيونهم تلمع على نحو ما تبدو ذرات النار وتشير إلى مدى ذكائهم الحيوي ومتعهم الجهنمية.

وساد صمت عميق فوق ظهر السفينة، وكأنما صار لونه أسود من ازدحام الرجال والقبعات. وهذا يكشف عن النظام الذي لا يخمد والذي يمثل إرادة صلبة استطاعت أن تحني هامات هؤلاء الأبالسة

الآدميين . وكان الرئيس واقفاً عند أسفل الصارى الكبير بذراعين متشابكتين وبدون سلاح . ولكن كانت توجد فأس عند قدميه فقط ، وكان على رأسه قبعة من اللباد ذات أطراف كبيرة كى تقيه الشمس، فكان ظلها يحجب وجهه ، وكان رجال المدفعية والجنود والملاحون أشبه ما يكونون بالكلاب الراقدة أمام أسيادها ، ويديرون أعينهم على قبطانهم وعلى السفينة التجارية . وعندما تلامست السفينتان ، جذبت الهزة القرصان من أحلامه ، وقال كلمتين فى أذن ضابط شاب كان واقفاً على بعد خطوتين منه .

صاح الملازم : كلاب المهاجمة !

واشتبكت السفينة (عطيل) بالسفينة (سان فيرديناند) فى سرعة خارقة . ووفقاً للأوامر التى لقنها القرصان فى صوت خفيض وأعادها الملازم ، ذهب الرجال المختصون بكل فرع من فروع الخدمة كرهبان الدير فى سيرهم نحو الصلاة إلى السطح ، حيث شرعوا فى تقييد أيادى الملاحين والركاب ووضعوا الأيدى على الكنوز . وفى لحظة كانت الأطنان مليئة بالقروش والمؤن الغذائية كما كان بحارة (سان فيرديناند) منقولين فوق جسر (عطيل) .

واعتقد اللواء نفسه تحت تأثير حلم عندما وجد يديه موثقتين ، ووجد نفسه ملقى فوق بالة صغيرة كما لو كان هو نفسه سلعة . وحصل اجتماع بين القرصان والملازم وأحد الملاحين الذى ظهر أنه يشغل وظيفة رئيس

العمل . وعندما انتهت المناقشة التى لم تدم طويلا صفر الملاح إلى رجاله ، وبكلمة الأمر الذى أملاه عليهم قفزوا جميعاً فوق ظهر (سان فرديناند) وزحفوا داخل الحبال ، وأخذوا ينزعون عوارض الصوارى والأشرعة والعتاد من السفينة فى مهارة شبيهة بمهارة الجندى الذى يخلع فى ميدان القتال ملابس زميل له استشهد وصارت أحذيته وكساؤه موضع طمعه .

قال القبطان الأسبانى بيرود إلى الماركيز : « لقد ضعنا » .

وكان القبطان قد راقب بالعين حركات الرؤساء الثلاثة فى أثناء التداول وأثناء حركات البحارة الذين قاموا بإجراءات النهب المنتظم لمركبه .

سأل اللواء بيرود : كيف ؟

أجاب الأسبانى: ماذا تريد أن يفعل بنا ؟.. لقد اكتشفوا بلا شك أنهم سوف يبيعون (سان فرديناند) بصعوبة فى موانئ فرنسا وأسبانيا ، وسوف يحرقونها كى لا يشغلوا أنفسهم بها . أما عن أنفسنا فهل تعتقد أنهم يستطيعون أن يتحملوا غذاءنا وهم لا يعرفون فى أى ميناء يطلقوننا ؟

ولم يكد ينتهى القبطان من كلامه حتى سمع اللواء صياحاً مروعاً تبعه ضجيج أصم نتيجة سقوط أجسام عديدة هابطة فى الماء . فاستدار ولم يعد يرى التجار الأربعة . وكان ثمانية من رجال المدفعية ذوى الوجوه المتوحشة لا يزالون بأذرعهم مرفوعة فى الهواء فى اللحظة التى كان الرجل العسكرى ينظر إليهم فى رعب .

قال له القبطان الأسبانى ببرود : حينما كنت أقيلها لك .

ونهض الماركيز فجأة . كان البحر قد استعاد سطحه الهادئ سلفاً ، ولم يتمكن من رؤية المكان الذى ابتلع منذ هنيهة رفاقه التعساء ، وكانوا فى تلك اللحظة يتدهورون بأقدامهم . وقبضات أيديهم مشدودة الوثاق تحت الأمواج مالم تكن الأسماك قد سارعت إلى التهامهم . وعلى بعد خطوات منه كان يوجد مدير الدفة وملاح (سان فيرديناند) اللذان كانا يمتدحان سابقاً قدرة القبطان (الباريسى) . وقد أخذا يصادقان القراصنة ويتآخيان معهم . فيرشدانهم بالأصبع إلى أولئك الذين كانوا يحلونهم جديرين من بينهم بالانضمام إلى طاقم (عطيل) أما الآخرون فقد كانت أقدام كل منهم مقيدة بطحلبتين برغم أيمانهم المغلظة .

وانتهت عملية الانتقاء، فوضع المدفعيون الثمانية أيديهم على المحكوم عليهم ، وقذفوا بهم دون أى شعائر إلى البحر . وجعل القراصنة يتأملون بفضول خبيث الأساليب المتنوعة التى كان الرجال يتساقطون بها وطرائقهم فى تغضن الأوجه، وكذلك آخر أوضاع عذابهم ؛ ولكن وجوههم لم تكن تظهر أى سخرية أو اندهاش أو شفقة . لقد كان ذلك بالنسبة إليهم مجرد حدث بسيط جداً يبدو أنهم تعودوه . أما كبار السن فكانوا يفضلون تأمل الأطنان المليئة بالقروش الموضوعة عند أسفل الصارى الكبير بابتسامة حزينة مقتضبة .

وأخذ اللواء والقبطان « جوميز » يتشاوران فى صمت بنظرة كمد وهما جالسان فوق إحدى البالات . وسرعان ما وجدا أنهما الوحيدان اللذان بقيا أحياء من طاقم (سان فيرديناند) وتحول الملاحون السبعة الذين اختارهم الجاسوس من بين البحارة الإسبانيين تحولا ظاهر المرح والسرور إلى قوم من (بيرو) .

وفجأة صاح اللواء الذى أسكت السخط الوقتى الكريم عنده كلا من الألم والنظر فى العواقب : يا للأنذال القساة !

أجاب « جوميز » فى برود : للضرورة أحكام ، وهم يطيعون الضرورة... إذا عثرت مرة أخرى على واحد من هؤلاء الرجال أفلا تدفع بسيفك خلال بدنه ؟

قال الملازم وهو يلتفت نحو الأسبانى : ياقبطان ، لقد سمع (الباريسى) عنك ، فأنت كما يقول الرجل الأوحد الذى يعرف جيداً كل المضايق فى جزر (الأنتيل) وسواحل (البرازيل) ، فهل تحب . .

فقاطع القبطان الملازم الشاب بتعجب الاحتقار وأجابه : سوف أموت كبحار وكأسبانى مخلص وكمسيحى ، هل تسمع ؟

صاح الشاب : إلى البحر .

وبمجرد صدور هذا الأمر أمسك اثنان من المدفعيين « بجوميز » صاح اللواء وهو يوقف القرصانين : إنكم جبناء .

قال له الملازم : يا شيخى ... لا تتحامل كثيراً . إذا كان شريطك

الأحمر يؤثر على قبطاننا فإننى لا أعبأ به شخصياً ... وسوف يكون لنا أيضاً بعد هنيهة طرف قصير من محادثة ...

وفى تلك اللحظة أدرك اللواء عند سماعه ضوضاء صماء لم تمتزج بأى شكوى أن الشجاع « جوميز » قد مات كبحار ، وصاح فى نوبة غضب مخيف : ثروتى أو الموت !

أجابه القرصان وهو يضحك متهكماً: آه! إنك معقول. فالآن . . . أنت واثق من أن تنال منا شيئاً ...

ثم بإشارة من الملازم اندفع اثنان من الملاحين يقيدون قدمى الرجل الفرنسى . ولكن هذا الأخير ضربهما فى جرأة غير متوقعة ، وسحب بحركة لم يكن ينتظرها أحد ، سيفاً متدلياً إلى جانب الملازم ، وبدأ يلعب به برشاقة كلواء قديم من الفرسان يعرف مهنته .

— آه ! يا قطاع الطريق . لن تلقوا إلى الماء محارباً قديماً من رفاق « نابليون » كما تلقون بالحمار .

وانطلقت رصاصات مسدس أو شكت أن تلامس الرجل الفرنسى أثناء مقاومته ، فاسترعت هذه الطلقات انتباه (الباريسى) الذى كان حينذاك مشغولا بمراقبة نقل العتاد وأدوات السفن التى كان قد أمر بالاستيلاء عليها من سفينة (سان فيرديناند) .

وبدون انفعال جاء وأمسك من الخلف بتلابيب اللواء الشجاع ، ورفعه بسرعة وسحبه نحو الحافة ، وتحفز لإلقائه إلى الماء كقصبة حقيرة ؛ وفى هذه

اللحظة التقت نظرات اللواء بعين الرجل الذى أغوى ابنته التى تشبه عين الوحش ، وفى لمحة تعرف الأب ونسيبه ، فضغط القبطان دفعته بحركة مضادة لتلك التى كان قد أتمها من قبل ، كما لو كان الماركيز منعدم الوزن ، وبدلا من أن يعجل به إلى البحر وضعه واقفاً تحت الصارى الكبير ، وتعالت الهمسات فوق سطح السفينة ، وعندئذ ألقى القرصان بنظرة إلى رجاله ، فساد أعمق الصمت فجاة .

قال القبطان بصوت ثابت واضح: إنه والد « هيلين » . . . والويل لمن لايؤدى له الاحترام .

فدوى تهليل الحناجر المليء بالفرح فوق سطح السفينة ، وتصاعد فى السماء كصلاة فى الكنيسة وكأول نداء فى قداس « الملك » . وأخذت الطحالب تتراقص فوق الحبال ، وألقى الملاحون طاقياتهم فى الهواء ، وجعل المدفعيون يدبدبون بأقدامهم ، وظل كل شخص يتحرك ويصرخ ويصفر ويقسم بأغلظ الأيمان . وأدى هذا التعبير المتعصب فى هذه البهجة إلى أن اللواء صار قلقاً كئيباً . وعزا هذه العاطفة إلى سر مفزع . فلم يكد يستعيد الكلام حتى صاح صيحته الأولى : ابنتى ! لكن أين هى ؟

فألقى القرصان إحدى نظراته العميقة نحو اللواء ، وهى نظرة لم يملك أحد استنتاج تفسير لتأثيرها الذى يؤدى دائماً إلى انقلاب فى أشد الأرواح إقداماً وبأساً ، فأسكته مثيراً بذلك رضى كبيراً لدى الملاحين بسعادة

جمة بين الجميع ،حين رأوا قوة رئيسهم تطبق على كل الناس. وقاده أمام باب إحدى القمرات ، ودفعه بقوة وهو يقول : ها هى ذى .

ثم اختفى تاركاً الرجل العسكرى القديم غارقاً فى نوع من الذهول أمام مرأى اللوحة التى ظهرت أمام عينيه . وعند سماع « هيلين » باب الغرفة وهو يفتح فى تعجل هبت واقفة من رقادها فوق الأريكة الوثيرة، ولكنها رأت الماركيز ، وصرخت فى دهشة ، كانت قد تغيرت تغيراً كبيراً حتى إنه كان يلزمها عينا والد كى يتعرفا عليها . كانت شمس المناطق الاستوائية قد زادت وجهها الأبيض جمالا بصبغة سمراء علت بشرتها وبتلوين رائع أضفى عليها تعبيراً شعرياً . واشتم فى المكان جو العظمة، وثبات الجلالة ، واستروح شعوراً عميقاً تنبهر منه أشد الأرواح غلظة . وكان شعر رأسها الطويل الكثيف المهدل فى حلقات فوق عنقها الملىء بالنبل يضفى صورة من القوة أيضاً على زهو هذا الوجه وخيلائه . وأتاحت « هيلين » فى ثنايا وضعها وحركتها الفرصة لوعيها لكى يرمض بالمقدرة التى كانت تمتلكها . وكان الرضى بالانتصار يملأ برفق خياشيمها الوردية . وكانت سعادتها الهادئة بادية فى كل تطورات جمالها . فقد كانت تجمع فى شكلها بين عذوبة العذراء وذلك اللون من الغرور الخاص بالحليلات . وكأنما أرادت كجارية وحاكمة فى آن معاً أن تطيع ،لأنها كانت قادرة على أن تحكم . وكانت تلبس ملابس رائعة مليئة بالجاذبية والأناقة . وكانت زينتها لاتتكلف

سوى الحرير الهندى . أما أريكتها ووسائدها فكانت من الحرير الكاشمير وجهزت أرضية (القمرة) الواسعة ببساط عجمى ؛ ولكن أطفالها الأربعة كانوا يلعبون عند قدميها مستغرقين فى بناء قصور عجيبة بعقود من اللؤلؤ ومن الجواهر الثمينة . والأشياء النادرة الغالية . وكانت بعض الزهريات المصنوعة من الخزف (السيفر) المطلى بريشة السيدة « جاكوتو » تحتوى على زهور نادرة تعبق المكان بشذاها .. زهور الياسمين المكسيكى وزهور (الكاميليا) .. وترفرف بينها عصافير أمريكية صغيرة مستأنسة، ولعلها كانت من أنواع الياقوت والسفير والذهب الحى. وكان مثبتاً فى هذا (الصالون) « بيانو » كما كان على الحائط خشب مغطى بالمفارش الحريرية الصفراء ، وبعض اللوحات ذات المقاييس الصغيرة هنا وهناك من تصوير كبار الفنانين : غروب الشمس للمصور « جيدان » كانت تجاور لوحة من تصوير « تيربورز » وعذراء من تصوير « رافائيل» تنافس فى شاعريتها تخطيطاً للمصور « جيروديه » ولوحة « لجيراردو » تطغى على لوحة « لدرولينج » ؛ وكان فوق مائدة من خشب (اللاكيه) الصينى طبق من الذهب الملىء بالفاكهة الشهية . على أى حال كانت « هيلين» شبيهة بملكة فى إمبراطورية ضخمة وسط مخدع جمع لها فيه عشيقها المتوج أرفع وأنفس الأشياء الموجودة فوق الأرض .

وركز الأولاد نظراتهم بحيوية نفاذة على جدهم ، وكانوا قـد

تعودوا الحياة وسط الصراع والأعاصير والزوابع ، فصاروا يشبهون أولئك الرومانيين الصغار المتطلعين نحو الحرب والدم على نحو ما صورهما « دافيد » فى لوحته عن « بروطس »

صاحت « هيلين » وهى تمسك بوالدها كما لو كانت تحاول أن تتأكد من صحة الرؤية : كيف يمكن هذا ؟

— هيلين !

— والدى !

ووقع كل منهما بين ذراعى الآخر . ولم يكن عناق الأب العجوز أشد قوة أو عاطفة من عناق ابنته .

— هل كنت فوق ذلك المركب ؟

أجاب بتعبير حزين ، وهو يجلس فوق الأريكة ، ويتأمل الأولاد الذين تجمعوا حوله ، وصاروا يتفحصونه بانتباه ساذج : نعم ... أوشكت على الهلاك لولا .. قالت وهى تقاطعه : لولا زوجى ... أظن ..

صاح اللواء : آه لماذا كان مقدراً أن ألقاك هكذا « يا هيلينى » أنت يا من بكيتك مراراً . كان على إذن أن أئن من أجل مصيرك .

سألت وهى تبتسم : لماذا ؟ ألن تكون إذن سعيداً لو عرفت أننى أسعد زوجة بين كل الزوجات .

صاح وهو يقفز من الدهشة : سعيدة ؟

— نعم يا والدى .

واصلت كلامها وهى تمسك بيديه وتقبلهما ، وتضغط عليهما بصدرها الخافق ، بحيث أضافت إلى هذا التلاطف جو احتفال الحفاوة ، وأسبغت عليه بتألق عينيها من الانبساط والسرور دلالة أكبر .

سأل وهو ملىء بالفضول لمعرفة حياة ابنته ناسياً كل شىء أمام طلعتها الساطعة : وكيف هذا ؟

أجابت هى : اصغ يا أبى ... إن عشيقى وزوجى ، وعبدى وسيدى رجل ذو روح أكبر اتساعاً من هذا البحر الذى لا حدود له ، وأشبه بالسماء فى خصوبة رقته .. إنه إله فى النهاية ! منذ سبع سنوات لم تبدر منه قط عبارة أو شعور أو حركة يمكن أن تتنافر مع الانسجام القدسى فى أحاديثه وملامساته وحبه . لقد نظر إلى دائماً وعلى شفتيه ابتسامة الصديق ، وفى العينين شعاع من الفرح ، ويسيطر صوته الشبيه بالرعد هناك فوق السفينة على زئير العواصف أو زوابع المعارك أما هنا فصوته رقيق منغم مثل موسيقى « روسينى » الذى تصل أعماله الفنية إلى هنا . إننى أحصل على كل ما يمكن أن تبدعه نزوات امرأة ، بل إن رغباتى تستوفى أحياناً بأكثر من المطلوب . إننى ملكة البحر وطاعتى واجبة هنا كما لو كنت الحاكمة — أوه ! سعيدة .. ! واصلت كلامها وكأنما تقاطع نفسها : سعيدة ليست الكلمة التى تستطيع أن تعبر عن سعادتى . إن لى نصيب كل النساء ! الإحساس بالحب ! والتفانى الكبير من أجل المحبوب ، والالتقاء فى قلبه .. الخاص به .. بشعور

لا نهائي تضيع فيه روح المرأة وعلى ... الدوام، قل لي ... هل هذه هي السعادة ؟ لقد التهمت ألف وجود حشوت بها وجودي أنا وحلى . ها أنا ذا وحلى الآمرة . ولم تطأ مخلوقة من جنسى قدمها قط فوق هذه السفينة النبيلة حيث يوجد « فيكتور » دائماً على بعد خطوات منى إنه لا يستطيع أن يبعد عنى إلا بمقدار ما يذهب من مؤخرة السفينة إلى مقدمتها ... ثم واصلت بتعبير دقيق خبيث : سبع سنوات ! حب يقاوم طول هذه السنوات السبع . هذه المتعة المتصلة . وهذه التجربة المستمرة فى كل اللحظات .. هل هذا هو الحب ؟ لا ! أوه ! لا . إنه أفضل من كل ما أعرفه فى الحياة ... وينقص لغة الناس القدرة على التعبير عن سعادة علوية من السماء .

وأفلت سيل من الدموع من عينيها المحتدمتين . فألقى الأطفال الأربعة عندئذ صيحة شكوى ، وجروا نحوها مثل جرى الكتاكيت صوب أمهم ، وأدهش الأكبر اللواء بنظرته إليه فى تهديد .

قالت : « أبيل » ... ياملاكى إننى أبكى من الابتهاج .

وأخذته فوق ركبتيها فربت الطفل عليها بألفة . وهو يمر بذراعيه حول رقبة « هيلين » ذات الخلال كالشبل الذى يريد اللعب مع أمه .

صاح اللواء وقد أذهلته إجابة ابنته الحماسية : ألا تملين ؟

أجابت : بلى . على الأرض حين نذهب إليها ، وحتى هناك لا أفارق زوجى على الإطلاق .

— ولكنك كنت مشغوفة بالحفلات والأعياد والموسيقى ؟

— الموسيقى هى صوته . أعيادى هى الحلى التى أبدع وضعها أمامه . وعندما تعجبه زينتى ؛ أليس هذا كما لو كانت الأرض بأكملها تعجب بى ! ذاك فقط هو السر الذى بسببه لا أرغب فى وداع كل هذه الماسات والعقود والتيجان والأحجار الكريمة والثروات والزهور وروائع الفن التى يجزل لى عطاءها وهو يقول : « هيلين » مادمت لا تذهبين إلى المجتمعات فإنى أريد أن تأتى المجتمعات إليك .

— ولكن فوق هذه الصفقة يوجد رجال ... رجال شديدو الوقاحة مفزعون لهم شهوات ...

قالت وهى تبتسم : إننى أفهمك يا أبت ... اطمئن . فلم تكن إمبراطورة محاطة برعاية وإكرام مثلما يبذل لى . فهؤلاء الناس يتطيرون ويتشاءمون ويرهبون القدر . ويعتقدون أننى الروح الحامية لهذه السفينة ولمشروعاتهم ولنجاحهم . أما هو فإلههم . وفى إحدى المرات حدث يوماً أن واحداً من الملاحين لم يوف لى الاحترام ... قولا — أضافت ضاحكة — وقبل أن يبلغ « فيكتور » ذلك ألقى رجال الطاقم الرجل فى البحر برغم العفو الذى منحه إياه . إنهم يحبوننى مثل ملاكهم الطيب . إذ أننى أرعاهم عند المرض . وكان لى حظ إنقاذ بعضهم من الموت بالسهر عليهم فى ثبات المرأة ومواظبتها . فهؤلاء الرجال المساكين عمالقة وأطفال فى آن معاً .

— وعندما تقع المعارك ؟

— لقد تعودتها ولم أرتعد إلا خلال المعركة الأولى . . أما الآن فقد ألفت روحى هذا الخطر بل حتى . . إننى ابنتك . . . وإننى أحبه .

— وإذا هلك ؟

— سأهلك .

— وأولادك ؟

— إنهم أولاد المحيط والخطر ، ويقاسمون والديهم حياتهم . . . وجودنا وجود واحد ولا ينفصم . إننا نعيش جميعاً نفس المعيشة . والجميع مسجلون على نفس الصفحة ، ومحمولون على نفس الزورق . . نحن نعرف ذلك .

— أتحبينه إذن إلى هذا الحد حتى تفضلينه على كل شىء ؟

قالت فى تكرار : على كل شىء ولكن ليس علينا أن نستطلع مدى هذا السر . على فكرة ! هذا الطفل العزيز . . بشكل ما هو أيضاً « هو » !

ثم ضغطت على « أبيل » بقوة غريبة ، وانهالت تطبع قبلات تلتهم بها خديه وشعره . . .

صاح اللواء : ولكن . . . لن أعرف كيف أنسى أنه قذف منذ قليل بتسعة أشخاص إلى البحر .

— كان لابد من ذلك بغير شك . . . لأنه ذو دوافع إنسانية وكريم إنه يسيل أقل دم ممكن لكى يحافظ على مصالح عامة الناس الذين يحميهم وعلى القضية المقدسة التى يدافع عنها . حدثه عما تراه سيئاً وسوف ترى أنه سيعرف كيف يجعلك تغير من وجهة نظرك .

قال اللواء كما لو كان يتحدث إلى نفسه : وجريمته ؟

أجابت هى فى اعتزاز بارد : ولكن . . . إذا كانت هذه فضيلة ؟ إذا لم يستطع العدل الإنسانى أن ينتقم له ؟

صاح اللواء : ينتقم لنفسه ؟

سألته : وما هى جهنم إذا لم تكن انتقاماً أبدياً من أجل بعض الأخطاء فى يوم من الأيام !

— آه ! لقد ضعت . لقد رقاك رقية سحرية . لقد بلبل أفكارك إنك تهذين .

— ابق هنا يوماً يا والدى ، وإذا شئت أن تصغى إليه وأن تتأمله فسوف تحبه .

قال اللواء بتجهم : « هيلين » إننا على بعد فراسخ من فرنسا . .

وجفلت ، ونظرت من كوة الحجرة ، وأشارت إلى البحر وهو يبسط تجيلا هائلا من الماء الأخضر .

أجابت وهى تطرق السجاد بطرف قدمها : هاك بلادى .

— ولكن ألن تأتى لترى أمك وأختك وأخويك ؟

قالت والدموع فى حلقها : أوه ! نعم ! إذا أراد هو ، وإذا كان فى استطاعته أن يرافقنى .

واصل الرجل العسكرى : لم يعد لك شىء « يا هيلين » لا وطن ولا أسرة ؟ . .

أجابت فى حالة من الزهو وبلهجة مليئة بالنبل : إننى زوجته ... هناك منذ سبع سنوات أول سعادة لا تأتينى منه. وأضافت وهى تمسك يد والدها وتقبلها : وهناك أول مؤاخذة أسمعها .

— وضميرك ؟

— ضميرى ! إنه هو ضميرى .

ثم ارتعدت بشدة فى هذه اللحظة ،وقالت : ها هو ذا .. حتى فى وقت المعارك أتعرف على خطوته من بين كل الخطوات فوق السطح .

وفجأة جعلت الحمرة خديها أرجوانيين ، وجعلت ملامحها ساطعة وعينيها لامعتين ، وصارت بشرتها بيضاء بياضاً مطفأ .. كان ثمة سعادة وحب فى عضلاتها ، وفى عروقها الزرقاء ، وفى رعدتها غير الإرادية كأى إنسان . وقد انفعل اللواء إزاء هذه الحركة المشحونة بالحساسية .

وفعلا بعد لحظة دخل القرصان، وجاء يجلس فوق مقعد كبير، وأمسك بابنه الأكبر وأخذ يلعب معه . وساد الصمت لحظة ، إذ أخذ اللواء يتأمل بعض الوقت هذه القمرة الأنيقة الشبيهة بعش العصافير الأسطورية ، وهو مستغرق فى أحلام مثل الشعور المبهم فى خيالات النعاس . ففى هذه القمرة تموجت هذه الأسرة فوق سطح المحيط منذ سبع سنوات بين السماوات والأمواج ، معلقة بإيمان رجل واحد، ومسوقة خلال أخطار الحرب والعواصف كما يكون أحد البيوت العائلية

مسلماً قياده فى الحياة لرب فى قلب الشقاء الاجتماعى .. ونظر بإعجاب إلى ابنته .. الصورة الوهمية لإلهة البحرية .. عذبة الجمال .. غنية بالسعادة... ويبدو كل ما حولها من كنوز باهتاً إلى جانب كنوز روحها وومضات عينيها والشاعرية التى لا توصف والتى تعبر عنها فى شخصها وفيما حولها.

وأعطاه هذا الموقف غرابة أذهلته، وعلواً وسمواً فى العاطفة، وفى الاستدلال ، مختلطاً بالأفكار العادية البسيطة . وكانت الروابط الاجتماعية الباردة المحدودة الأفق تموت إزاء هذه اللوحة . وأحس الرجل العسكرى العجوز بكل هذه الأشياء . وفهم كذلك أن ابنته لن تهجر إطلاقاً مثل هذه الحياة الفسيحة الخصبة فى تقابلاتها ،المليئة بحب صادق إلى هذا الحد ، ثم إنها إذا كانت قد تذوقت مرة خطراً دون أن تهابه فلن تستطيع العودة إلى المشاهد البسيطة فى مجتمع مبتذل محدود .

سأل القرصان قاطعاً الصمت وناظراً إلى زوجته : هل أضايقكما ؟

أجابه اللواء : لا لقد روت لى «هيلين» كل شىء وأرى أنها ضاعت من أجلنا ...

قال القرصان بقوة : لا– بعد بضع سنوات بحكم حق الاكتساب بمضى الوقت سيؤذن لى بالعودة إلى فرنسا ، عندما يكون الضمير نقياً وبتحويل قوانينكم الاجتماعية التى أطاعها رجل ...

ثم سكت مستنكراً أن يأخذ فى تبرير مسلكه .

قال اللواء مقاطعاً إياه : وكيف تستطيع ... كيف تستطيع ألا تشعر

بوخزات الضمير إزاء عمليات القتل الجديدة التى ارتكبت أمام عينى؟ »

أجاب القرصان بهدوء : « ليس لدينا مؤن للغذاء » .

— ولكن إذا نزل هؤلاء الرجال على الشاطئ ...

— سوف يقطعون علينا خط الرجعة ببعض المراكب ، ولن تتمكن من الوصول إلى (شيلى) .

قال اللواء مقاطعاً : « قبل أن يخطروا فى فرنسا وأميراليه البحر الأسبانية » .

— بل إن فرنسا تستطيع أن تستاء من رجل لايزال خاضعاً لمحاكم الجنايات فيها ، ويسمح لنفسه بوضع اليد على مركب شراعى ذى صاريين مجهز بطاقم من أبناء « بوردوه » . وعلاوة على ذلك ألم تُطلق بعض الأحيان طلقات عديدة من المدافع أكثر مما يلزم فى ميدان المعركة ؟

وسكت اللواء ، وقد أخجلته نظرة القرصان . ونظرت إليه ابنته بشكل يعبر عن الانتصار أكثر مما يعبر عن الحزن ...

قال القرصان بصوت منخفض : « يالواء ؛ لقد شرعت لنفسى قانوناً بعدم تشتيت الأسلاب على الإطلاق . ولكن مما لا شك فيه أن نصيبى سوف يكون أكبر شأناً مما كانت ثروتك ، فاسمح لى بأن أعيدها فى عملات أخرى ..

وسحب من درج البيانو كتلة من الأوراق المالية ، دون أن يعد كل حزمة . وقدّم مليوناً منها إلى الماركيز ، ثم واصل كلامه :

« فأنت تعرف أنه لا يمكننى أن أتسلى بمشاهدة العابرين فى طريق (بوردوه) والواقع أنه إذا لم تكن قد استهوتك أخطار حياتنا البوهيمية ، ومشاهد أواسط أمريكا ، ولياليها الاستوائية ، ومعاركنا ، ومتعة تحقيق النصر لراية أمة صغيرة أو اسم « سيمون بوليفار » فعليك أن تفارقنا ... يوجد زورق طويل ورجال مخلصون فى انتظارك ، وأتعشم لقاء ثالثاً تكون السعادة فيه تامة ..

قالت « هيلين » فى نغمة مستاءة : « فيكتور ، أود رؤية أبى لحظة أخرى » .

— عشر دقائق أكثر أو عشر دقائق أقل قد توقعنا وجهاً لوجه أمام مركب حربى . لكن ! سوف تتسلى قليلا ؛ فرجالنا فى ملل .

صاحت زوجة البحار : « أوه ! ارحل يا أبى .. واحمل إلى أختى وأخوتى وإلى ... أمى . هذه التأكيدات والوعود مما أحفظه من ذكرياتى » .

وأخذت قبضة من الأحجار الكريمة والعقود والجواهر ولفتها فى بعض الحرير الكاشمير وقدمتها إلى والدها فى حياء .

سألها وهو يبدو مذهولا من تردد ابنته الملحوظ عندما نطقت بكلمة « الأم » : « وماذا أقول لهم من قبلك ؟ » .

— أوه ! هل تستطيع أن تشك فى روحى ومشاعرى ، إننى أدعو كل يوم من أجل سعادتهم .

واصل العجوز كلامه ناظراً بانتباه : "هيلين" ، ألن أراك بعد اليوم ؟

ألن أعرف أبداً لأى دافع إذن يرجع هربك ؟ » .

قالت بنغمة متجهمة : « إننى لا أملك هذا السر .. كان يحق لى أن أبلغك إياه. لكنى حتى آنذاك قد لا أبلغك إياه . لقد عانيت أثناء عشر سنوات من شرور لا تصدق ... »

ولم تكمل بل مدت يدها إلى أبيها بالهدايا التى شاءت أن تبعث بها إلى أمرتها . وكان اللواء قد اعتاد فى أثناء أحداث الحرب أفكاراً واسعة الأفق فيما يتعلق بالأسلاب ، فقبل الهدايا المقدمة من ابنته ، وأرضاه أن يفكر أن القبطان الباريسى ظل رجلا شريفاً فى حربه ضد الأسبان . تحت تأثير إلهام روح على هذا القدر من النقاء والتربية مثل روح «هيلين» . وغلبته مشاعر حماسه للشجعان، وظن أنه سيكون محل سخرية إذا تصرف كرجل شديد التعفف، فضغط بشدة على يد القرصان ، وقبل حبيبته «هيلين» ابنته الفريدة فى رقة خاصة بالجنود، وسقطت دمعة على وجهه ذى الغرور . وابتسم لها تعبيره الحازم أكثر من مرة . وانفعل البحار بقوة فأعطاه أولاده ليباركهم . وفى النهاية قال الجميع كل للآخر وداعاً للمرة الأخيرة، خلال نظرة طويلة لم تخل من حنان .

صاح الجد وهو يقذف بنفسه إلى السطح : « كونوا دائماً سعداء » .

وكان ثمة مشهد فريد فى انتظار اللواء . فقد أودعت «سان فيرديان» النار فاشتعلت كنار ضخمة هبت فى مقدار من قش . وشغلت الملاحين عملية

حرق السفينة الأسبانية ، ولاحظوا فى أثناء ذلك أنها كانت تحمل فوق ظهرها حمولة من «الروم» ، الليكير ، (الخمور القوية) التى كانت متوافرة فوق «عطيل» ، ووجدوا أنه قد يكون ممتعاً أن يشعلوا طاسة كبيرة من المزيج الكحولى وسط البحر ، وكانت هذه تسلية مقبولة إلى حد ما بالنسبة إلى قوم تجعلهم رتابة البحر الظاهرة، ينتهزون كل الفرص من أجل بعث الحياة فى معاشهم . وعند نزول اللواء من المركب إلى الزورق الذى ينتمى إلى (سان فيرديان) ، والذى يشغله ستة من الملاحين الأقوياء، وجد نفسه لاإراديا يقسم انتباهه بين حريق (سان فيرديان) وابنته المعتمدة على القرصان .. فكلاهما يقف فى مؤخرة مركبه .

وإزاء كل هذا القدر من الذكريات نسى اللواء وهو يرى فستان «هيلين» الأبيض يرفرف خفيفاً مثل شراع إضافى. ويميز هذا الشكل الجميل الطويل فوق المحيط برهبته التى تفرض نفسها، وتسيطر على كل شيء حتى البحر . نسى اللواء أمام هذا كله بفعل لامبالاة الرجل العسكرى أنه كان يتموّج فوق مقبرة الرجل الشجاع «جوميز» . وامتد فوقه عمود ضخم من السحاب الداكن الذى كانت تتخلله وتنفذ فيه أشعة الشمس هنا وهناك فتكسبه وهجاً شاعرياً . كان ذلك أشبه بسماء ثانية.. قبة قائمة تتلألأ تحتها أنواع من الثريات ، وتحلق فوقها زرقة السماء التى لا تتغير ، والتى بدت أجمل ألف مرة بفعل هذا التقابل العارض . وكانت الأصباغ العجيبة فى هذا الدخان الذى بدا أحياناً مائلا إلى

الاصفرار ، وأحياناً ذهبياً ، وثالثة أحمر اللون أو أسود ، قد ظهرت كأنها مصهورة فى شكل أبخرة تغطى المركب الذى ظل يلمع ويقرقع ويطن طنيناً أشبه بالصراخ . وعلا صفير الشعلة ، وهى تعض الحبال وجرت داخل المركب مثلما تطير ثورة شعبية فى طرقات المدينة . وكانت تصدر عن شراب (الروم) نار ذات لهب أزرق يرتعش كما لو كانت جنية البحار قد حركت هذا « الليكير » (الخمر القوى) الغاضب ، وكأنما حركت أيضاً يد طالب من طلاب العلوم ذلك اللهب بمزيج من الكحول والسكر فى أثناء احتفال من احتفالات إله الخمر . ولكن الشمس كانت أقوى ضوءاً وكانت تحس بغيرة من ذلك الوهج الوقح ، فلم تعد تظهر خلال أشعتها إلا قدراً ضئيلا لا يكاد يذكر من ألوان الحريق ، وأصبحت كقفص أو كوشاح يخفق وسط سيل من نيرانه .

وتعلقت (عطيل) بالرياح القليلة التى استطاعت أن تلتقطها فى ذلك الاتجاه الجديد كيما تلوذ بالهرب . وكانت تميل مرة على جانب ، ومرة على الجانب الآخر كطيارة تمايل فى الهواء . وكان هذا المركب الشراعى ذو الصوارى وذو الشكل الجميل يلوذ بالفرار نحو الجنوب . وكان أحياناً ، يختفى عن أنظار اللواء وراء العمود المستقيم الذى كان ظله يسقط بطريقة وهمية فوق المياه . وكان أحياناً أخرى يظهر وهو يرتفع فى خفة وانفلات .

وفى كل مرة كانت « هيلين » تستطيع أن ترمق أباها ، كانت تأخذ فى

تحريك منديلها لتحيته . وسرعان ما غرقت « سان فيرديناند » محدثة غلياناً لم يلبث أن أزال المحيط أثره . ولم يبق من كل هذا المشهد بعد ذلك سوى سحابة متأرجحة بفعل الرياح . وصارت (عطيل) بعيدة واقترب الزورق من الساحل ، واعترضت السحابة بين هذا الزورق الهش والمركب الشراعى . وكانت آخر مرة رأى فيها اللواء ابنته خلال شق بين هذا الدخان المموج ، رؤية أشبه برؤى الأنبياء ! وكف المنديل الأبيض والفستان وحدهما عن أن تقع عليهما العين فوق هذه الأرضية التى لها لون الصدأ ، ولم يعد المركب الشراعى مرئياً بين الماء الأخضر والسماء الزرقاء ، ولم تعد « هيلين » سوى نقطة لا ترى أو مجرد خطر منطلق رقيق ، أو ملاك من ملائكة السماء ... مجرد فكرة ... أو ذكرى .

بعد أن نمى الماركيز ثروته مات منهوكاً من الإجهاد . وبعد وفاته ببضعة أشهر فى سنة ١٨٣٣ اضطرت الماركيزة إلى أن تصحب « موينا » إلى مياه (البيرينيه) وأرادت الطفلة الهوائية المزاج أن ترى روائع الجبال . وعادت إلى المياه ، وعند عودتها حدث مشهد مروع ، وهذا مؤداه .

قالت « موينا » : « يا إلهى لقد أسأنا يا أمى بعدم المكوث أياماً أطول فى الجبال ! لقد كنا هناك فى حال أفضل من هنا بكثير ، هل استمعت إلى الأنين المتواصل الذى يصدره هذا الطفل الكريه ، وثرثرة هذه المرأة الشقية التى تتحدث بدون شك فى لغة إقليمية ، لأننى لم أفهم

كلمة واحدة من كل ما قالته ؟ أى نوع من الناس هذا الذى صار جاراً لنا ! لقد كانت هذه الليلة أبشع ليلة قضيتها فى حياتى .

أجابت الماركيزة : « إننى لم أسمع شيئاً .. ولكن يا طفلتى العزيزة سوف أبحث عن المضيفة ، وأطلب منها الغرفة المجاورة ، وسنكون بمفردنا فى الجناح ، ولن تحدث ضوضاء بعد الآن . كيف حال صحتك هذا الصباح ؟ هل أنت مجهدة ؟ »

وعندما قالت الماركيزة هذه العبارات الأخيرة نهضت لتقترب من سرير « موينا » ، وقالت لها وهى تبحث عن يدها : « أريني » .

أجابت « موينا » : « أوه ! دعينى يا أمى فأنت مبردة » .

عند قول الفتاة الشابة هذه الكلمات تدحرجت تحت وسادتها بحركة تقطيب ، ولكن فى تظرف ، بحيث كان من الصعب على أم أن تستاء منها . وفى هذه اللحظة صدرت شكوى بلهجة ناعمة طويلة تكاد تمزق قلب المرأة وتدوى فى الغرفة المجاورة .

— ولكن هل استمعت طيلة الليلة لهذا ؟ ولماذا لم توقظينى ؟ كنا استطعنا . .

وإذا أنين أشد عمقاً من كل ما سبق يقاطع كلام الماركيزة التى صاحت : « هنا شخص يحتضر ! » ، وخرجت بقوة .

صاحت « موينا » : « أرسلى « بولين » إلى هنا ! سوف ألبس ملابسى » .

وهبطت الماركيزة مسرعة ، وقابلت المضيفة فى الفناء وسط أشخاص

كانوا يصغون إليها كما يبدو وبانتباه .

— سيدتى . لقد وضعت فى الغرفة المجاورة شخصاً يبدو أنه مريض مرضاً شديداً ..

صاحت سيدة الفندق : « آه ! لا تحدثينى عن تلك المرأة ، لقد أرسلت من يحضر لى العمدة . تصورى أنها امرأة شقية تعيسة وصلت بالأمس مساء هنا على قدميها . إنها قادمة من (أسبانيا) بغير جواز سفر وبغير نقود . لقد حملت فوق ظهرها طفلا يحتضر . ولم أستطع أن أعتذر لها عن استقبالها هنا ؛ وفى هذا الصباح ذهبت بنفسى لأراها ، لأنها حين هبطت هنا بالأمس أثرت فى نفسى تأثيراً مؤلماً . مسكينة هذه المرأة الصغيرة ! لقد كانت نائمة مع طفلها وكلاهما فى نزاع مع الموت . . قالت لى وهى تخرج « دبلة » ذهبية من إصبعها : «سيدتى ، لم أعد أملك سوى هذه . خذيها ثمناً لمبيتنا عندك . وسيكون ذلك كافياً فلن تكون إقامتى طويلة» . يالمسكينة الصغيرة ! لقد قالت وهى تنظر إلى طفلها : «سوف نموت معاً» . فأخذت «دبلتها» وسألتها من هى ؟ ولكنها لم تشأ إطلاقاً أن تبوح باسمها .. فأرسلت أطلب الطبيب والسيد العمدة .

قالت الماركيزة : « ولكن أعطيها كل النجدة التى تلزمها . يا إلهى ألا يزال ثمة وقت لإنقاذها ! سوف أدفع لك كل المبالغ التى تنفقها ... »

— آه ! ياسيدتى . يظهر أنها شديدة الزهو والكبرياء . ولا أدرى

ما إذا كانت توافق على ذلك ...

— سأذهب لأراها ...

وفى الحال صعدت الماركيزة إلى غرفة المجهولة دون أن تفكر فى الألم الذى قد تحدثه رؤيتها لدى هذه المرأة فى اللحظة التى يقال عنها أثناءها إنها تحتضر. وامتقع لون الماركيزة لمرأى المحتضرة. فبالرغم من كل الآلام المفزعة التى غيرت من طلعة « هيلين » الجميلة تعرفت الماركيزة على ابنتها الكبرى. وعند مرأى المرأة التى تلبس الثياب السوداء اعتدلت « هيلين » فى جلوسها، وصرخت صرخة فزع ، وسقطت ببطء فوق سريرها . إذ تحققت أن تلك المرأة كانت أمها .

قالت السيدة « ديجليمون »: ابنتى ! ماذا يلزمك؟ « بولين ». « موينا »...

أجابت « هيلين » بصوت ضعيف : « لم أعد فى حاجة إلى شىء كنت أتعشم رؤية أمى ، ولكن حدادك يرينى ... »

ولم تكمل . وضمت طفلها إلى قلبها كيما تدفئه ، وقبلته فوق جبهته ، ونظرت إلى أمها نظرة يقرأ فيها العتاب مخففاً بالعفو . ولم تشأ الماركيزة أن تفهم هذا العتاب ، ونسيت أن « هيلين » كانت فيما مضى طفلة محوطة بالدموع واليأس ... طفلة الواجب ... طفلة كانت سبباً فى كل ما نزل بها من الشقاء الكبير . وتقدمت برقة نحو ابنتها الكبرى ، وهى تتذكر فقط أن « هيلين » كانت أول من عرّفها متع الأمومة . وكانت عينا الأم مليئتين بالدموع ،. وعندما قبلت ابنتها صاحت : « هيلين » ! ابنتى ..

واحتفظت « هيلين » بالصمت . واستنشقت آخر تنهد صدر عن آخر أطفالها .

فى تلك اللحظة دخلت « موينا » و « بولين » خادمتها والمضيفة والطبيب . وأمسكت الماركيزة بين يديها بيد ابنتها الباردة كالثلج ، وتأملتها فى يأس حقيقى . لقد أحنق الشقاء أرمل البحار التى استطاعت أن تنجو من الغرق دون أن تنقذ من كل أسرتها الجميلة سوى طفل واحد . وقالت لأمها بصوت مفزع : « كل هذا من إنتاجك ! لو استطعت أن تكونى لى ما ... »

صاحت السيدة « ديجليمون » وهى تخفى صوت « هيلين » بوقع صوتها : « موينا » لتخرجى . اخرجوا جميعاً ! .

واستطردت الأم : بالله . يا ابنتى دعينا دون أن نجدد فى هذه اللحظة ذلك الصراع الحزين ...

أجابت « هيلين » وهى تقوم بمجهود غير عادى : سوف أسكت لقد صرت أمّاً وأعرف أنه يجب بالنسبة إلى « موينا » ألا ... أين طفلى ؟

وعاودت « موينا » الدخول مدفوعة بالفضول ، وقالت تلك الطفلة المدللة : يا أختى هاك الطبيب ...

واصلت « هيلين »: كل شىء غير مجد .. آه لماذا لم أمت فى سن السادسة عشرة عندما كنت أريد أن أنتحر ! إن السعادة لا يمكن أن تحيد عن قوانينها ... « موينا » .. أنت ...



وماتت «هيلين»، وهى تميل برأسها نحو رأس طفلها الذى ضمته بتشنج.

قالت السيدة «ديجليمون» عندما عادت إلى غرفتها حيث صهرتها للدموع: لقد أرادت أختك بلاشك أن تقول لك يا «موينا» إن السعادة لا توجد أبداً بالنسبة إلى الفتاة فى الحياة الخيالية الروائية المفرطة وبعيداً عن الأفكار المقبولة وبخاصة بعيداً عن أمها.

٦

شيخوخة أمّ مذنبة

أثناء يوم من أوائل شهر يونيو سنة ١٨٤٤ كانت سيدة فى حوالى الخمسين من عمرها — وإن كانت تبدو أكبر سنًّا من عمرها الحقيقى — تتنزه فى الشمس ساعة الظهر على طول ممشى حديقة قصر كبير فى شارع « بلوميه » بباريس. وبعد أن دارت دورتين أو ثلاثاً فى الطريق الضيق المتعرج ، حيث بقيت حتى لا تغيب عنها رؤية شبابيك الجناح التى يبدو أنها كانت تجذب كل انتباهها ، جاءت تجلس على أحد المقاعد نصف الريفية التى كانت تصنع من أغصان أشجار صغيرة مزودة بقشورها . ومن المكان الذى كان فيه ذلك المقعد الأنيق كانت السيدة تستطيع أن تحدق إلى أسوار الفناء والمتنزهات الداخلية التى وضعت فى وسطها قبة « الأنفاليد » الذهبية الرائعة التى ترتفع بين أعالى آلاف أشجار (الدردار) وإلى المنظر الجميل ومظهر الحديقة الأقل عظمة التى تنتهى عند واجهة رمادية لأروع قصور ضاحية (سان جيرمان) . وهنالك صمت مطبق ، والحدائق المجاورة والمتنزهات و (الأنفاليد) « مقبرة نابليون » ، لأن هذا الحى العريق لا يبدأ فيه النهار إلا ظهراً . وبغض النظر

عن بعض النزوات ، وعن أن بعض النساء الشابات لا يردن امتطاء الخيل . أو أن أحد الدبلوماسيين المسنّين لا يجد مجالاً لأداء بعض التشريفات فى هذه اللحظة . . . خدم وسادة . . . الكل ينام أو الكل يستيقظ .

وكانت السيدة المبكرة جداً هى الماركيزة « ديجليمون » والدة السيدة « دى سانت هيرين » التى تملك هذا القصر الجميل . فقد حرمت الماركيزة نفسها من هذا القصر لصالح ابنتها التى وهبتها كل ثروتها دون أن تحتفظ لنفسها بغير معاش مدى الحياة . وكانت « الكونتيسة موينا دى سانت هيرين » آخر من رزقت به السيدة « ديجليمون » من الأطفال ، ولكى تصبح قرينة وريث بيت من ألمع البيوت الفرنسية ضحت الماركيزة بكل شيء .

ولا شيء أكثر طبيعية من ذلك : فقد خسرت ولدين على التوالى : أحدهما « جوستاف ماركيز ديجليمون » الذى مات بالكوليرا ، والثانى « أبيل » الذى زل عند (قسطنطينة) . وقد أخلف « جوستاف » أرملة وأطفالا . ولكن عاطفة السيدة « ديجليمون » الفاترة نحو ولديها كانت أكثر ضعفاً أيضاً حينما انتقلت إلى أحفادها الصغار ، وكان سلوكها مهذباً حيال السيدة « ديجليمون » الصغرى ، ولكنها تمسكت بعاطفة سطحية مما يفرض علينا الذوق السليم واللياقات أن تظهره حيال أقربائنا .

ولما كانت ثروة أولادها الذين ماتوا قدتمت تسويتها فقد احتفظت لعزيزتها « موينا » بكل مدخراتها وأملاكها الخاصة . وكانت « موينا » منذ طفولتها جميلة جذّابة ، فصارت باستمرار بالنسبة إلى السيدة

« ديجليمون » موضع إيثار أشبه ما يكون بتلك الإيثارات الفطرية أو اللاإرادية لدى أمهات الأسر . . تعاطفات محتومة تبدو بغير تفسير أو لعل الملاحظين يعرفون تفسيرها أكثر مما يخطر على البال . وكان كل شيء في « موينا » . . . وجهها الجذاب . . ورنة صوت هذه الإبنة المدللة ... طريقتها .. خطوتها .. هيئة سحنتها .. حركاتها .. كل شيء كان يوقظ لدى الماركيزة أشد الانفعالات عمقاً وأكثرها قدرة على الإحياء أو بعث الاضطراب أو أسر قلب الأم . لقد كان مبدأ حياتها الحاضرة وحياتها المستقبلة ، وحياتها الماضية ، مبثوثاً في قلب هذه المرأة الشابة حيث ألقت بكل كنوزها .

ومن حسن الحظ أن « موينا » عاشت بعد وفاة أربعة أطفال كلهم أكبر منها . وقد فقدت السيدة « ديجليمون » في الواقع على أتعس نحو ممكن ، كما يقول أهل المجتمع ، بنتاً ساحرة الفتنة كان مصيرها مجهولا تقريباً ، وصبياً صغيراً مات في سن الخامسة في نكبة مروعة . ولاشك أن الماركيزة عاشت بشارة من بشارات السماء في الاحترام الذي يبدو أن المصير قد احتفظ به لابنة قلبها ، وفي الذكريات الضعيفة التي أبقاها عن أولادها الذين سقطوا سلفاً وفقاً لأهواء الموت . فظلوا داخل أعماق روحها كمقابر مقامة في أرض معركة أوشكت أن تخفيها زهور البساتين .

وكان في مقدور المجتمع أن يطلب من الماركيزة بياناً قاسياً عن هذه اللامبالاة ، وعن ذلك الإيثار والتفضيل ، غير أن مجتمع باريس مجذوب

في غضون سيل من الأحداث والأزياء والأفكار الجديدة ، حتى إن كل حياة السيدة « ديجليمون » قد خضعت فيها بشكل ما لزاماً للنسيان ، فلم يفكر أحداً في أن ينسب إليها جريمة البرود أو النسيان التي لم تكن تهم أحدا في حين أن حنانها القوي نحو « موينا » كان يهم قوماً كثيرين ، وكانت له القداسة الكاملة التي تمنحها عادة للحكم المسبق .

وعلاوة على ذلك لم تكن الماركيزة تتردد على المجتمع إلا نادراً وكانت تبدو في نظر أغلب الأسر التي تعرفها طيبة رقيقة ورعة متسامحة . والواقع ... ألم يكن من الضروري أن يتوافر للمرء اهتمام قوي حتى ينفذ إلى ما وراء هذه المظاهر التي يكتفي بها المجتمع ؟ ثم ما الذي لا نغفره لكبار السن عندما يزولون كالظلال ولا يريدون أن يكونوا سوى ذكرى ؟

على أية حال كانت السيدة « ديجليمون » نموذجاً يذكره الأطفال لوالديهم ، كما يذكره الأصهار لحمواتهم ملاطفة . فقد أعطت « موينا » قبل الأوان كل ممتلكاتها سعيدة راضية بسعادة ابنتها الكونتيسة . ولا تعيش إلا بها ومن أجلها . وإذا كان الشيوخ الحذرون والأعمام المهمومون قد لاموا هذا السلوك قائلين : سوف تندم السيدة « ديجليمون » يوماً ما على أنها تخلت عن ثروتها لصالح ابنتها ، لأنها إذا كانت تعرف قلب السيدة « دى سانت هيرين » معرفة جيدة ، فهل هي واثقة أيضاً من أخلاق صهرها ؟ ولكن لم يقابل هؤلاء المتنبئون إلا باستقباح عام لأن الثناء العطر كان يهطل من كل الأنحاء على « موينا » كالمطر .

قالت سيدة شابة : لابد أن يقال هذا الحق فى صالح السيدة « دى سانت هيرين » إذ لم تر أمها أى تبديل حولها . والسيدة « ديجليمون » تعيش عيشة رائعة ، ولها عربتها تحت أمرها . وتستطيع أن تذهب إلى أى مكان فى المجتمع كما كانت من قبل ...

أجاب طفيلى عجوز بصوت خفيض ، واحد من هؤلاء الناس الذين يرون لأنفسهم الحق فى تحميل أصدقائهم عبارات لاذعة مدعين بذلك إثبات استقلالهم : باستثناء بيت الإيطاليين .. ذلك أن الأرملة لا تحب سوى الموسيقى وأشياء أخرى غريبة فى الواقع عن ابنتها المدللة . وكانت موسيقية جيدة فى أوانها ! ولكن لما كان مسكن الكونتيسة معرضاً على الدوام لغزوات الفراشات الشابة . ولاشك أنها متضايق فيه هذه المرأة الصغيرة التى يتكلم عنها الجميع سلفاً بوصفها فاتنة كبيرة .. فلذلك لا تذهب إطلاقاً إلى بيتها المسمى « بالإيطاليين » .

قالت فتاة فى سن الزواج : إن السيدة « دى سانت هيرين » ، تدبر لأمها أمسيات ممتعة فى (صالون) تتجه إليه باريس كلها .

أجاب الطفيلى : « صالون لا تسترعى فيه الماركيزة انتباه أحد » .

قال أبله معجب بنفسه مؤيدا جانب الشابات : الواقع أن السيدة « ديجليمون » لا تكون أبداً بمفردها .

أجاب الملاحظ العجوز فى صوت خفيض : فى الصباح ... فى الصباح تنام « موينا » العزيزة . وفى الساعة الرابعة تكون « موينا » فى الغابة . ومساء تذهب « موينا » العزيزة إلى الحفل الراقص أو إلى الولائم ... ولكن

صحيح أن السيدة « ديجليمون » تملك المورد الأصلى حين ترى ابنتها العزيزة وهى تقوم بارتداء ملابسها أو فى أثناء العشاء عندما تتناول « موينا » العزيزة عشاءها مصادفة مع والدتها العزيزة ... واستطرد الطفيلى ، وهو يأخذ بذراع رجل خجول مهذب حديث العهد بالبيت الذى كان يسكن فيه : « ومنذ ثمانية أيام على الأكثر ياسيدى رأيت تلك الأم المسكينة حزينة ووحيدة بالقرب من مدفأتها . سألتها « ماذا بك ؟ » فنظرت إلى الماركيزة وهى تبتسم ، ولكن من المؤكد أنها كانت تبكى وقالت لى : لقد فكرت . إنه شىء فريد أن أجد نفسى وحيدة وقد كان لى خمسة أطفال . ولكن هذا شىء يناسب مصيرنا ! ثم إننى سعيدة بأن أعرف أن « موينا » تسرى عن نفسها » وكانت المركيزة تستطيع أن تطمئن إلى لأننى كنت أعرف زوجها سلفاً . كان رجلا مسكيناً . وكان يدين لها بلا شك بضيعته ومهامه فى بلاط « شارل العاشر » .

ولكن أخطاء كثيرة تنزلق فى غضون الأحاديث التى تجرى بين الناس فى المجتمع . وتندس فيها بخفة غير محسوسة أضرار عميقة إلى درجة أن مؤرخ العرف الأخلاقى مضطر إلى أن يزن التأكيدات ، التى يضعها كثير من غير المهتمين بلا مبالاة فى غير قليل من الحكمة . ولعله لا ينبغى فى النهاية بالنسبة إلينا أبداً أن نقول من هو المخطئ ومن هو المصيب : الطفل أم الأم ؟ إذ لا يوجد بين هذين القلبين سوى حكم واحد ممكن . وهذا الحكم أو القاضى هو الله ! ... الله الذى

غالباً ما يبث انتقامه فى وسط الأسر ، ويستعين استعانة أبدية بالأولاد ضد الأمهات ، وبالآباء ضد الأبناء ، وبالشعوب ضد الملوك ، وبالأمراء ضد الأمم ، وبكل شيء ضد كل شيء ... وذلك بأن يعمد فى عالم الأخلاق إلى إحلال مشاعر معينة محل أخرى ، كما تدفع أوراق الشجر الصغيرة أوراق الشجر الشائخة فى الربيع .. وبأن يتصرف وفقاً لأمر ثابت ولغرض لا يعلمه سواه . ولاشك أنه قد وسع كل ما يقع أو بتعبير أفضل ، أن مرجع كل شيء إليه .

وكانت هذه الأفكار الدينية ، الطبيعية جداً فى قلب المسنين تطفو مبعثرة فى روح السيدة « ديجليمون » . فقد كانت المعالم هنالك واضحة نصف وضوح . فأحياناً تغيم ، وأحياناً تنبسط انبساطاً كاملا كالزهور التى تزعجها العاصفة فوق سطح المياه . كانت جالسة مجهدة ضعيفة بفعل تأمل طويل ، أو بتأثير أحد هذه الأحلام التى تنتصب فى وسطها الحياة بأكملها وتنبسط فى عينى أولئك الذين يستشعرون الموت .

وكان يمكن أن تصبح هذه المرأة التى شاخت قبل السن لوحة غريبة بالنسبة إلى بعض الشعراء العابرين فى « البولفار » (المتنزه الكبير) ، إذ كان يمكن أن يعرف كل الناس عند رؤيتها جالسة فى ظل شجر الطلح الرطيب ... فى ظل شجر الطلح عند الظهيرة .. كان يمكن أن يعرفوا جميعاً كيف يقرءون آلاف الأشياء المكتوبة فوق ذلك الوجه الشاحب البارد حتى حين يوجد وسط أشعة الشمس الدافئة .

فقد كان وجهها الملىء بالتعبير يمثل شيئاً أكبر خطراً من مجرد حياة تذبل ، أو أعمق من مجرد روح انحطت بالتجربة . لقد كانت أحد الأنماط التى تستلفت نظرك ، وتدفعك إلى التفكير من بين ألف وجه يستهان به لخلوه من أى طابع . فكما لو كنت إزاء ألف لوحة فى متحف ، ثم تجد نفسك متأثراً بقوة سواء أمام رأس « ميريبو » السامية الجليلة التى صورها ألم الأمومة ، أو أمام وجه « بياتريكس تشينكى » التى استطاع المصور الإيطالى « لوجيد » أن يصور فيها أكبر براعة تلمس القلب فى أعماق أبشع الجرائم أو أمام وجه « فيليب » الثانى الحزين حيث استطاع « فيلاسكيز » أن يطبع إلى الأبد جلال الرعب الذى توحى به الملكية . فبعض الوجوه الإنسانية ذات صور طاغية تتحدث إليك ، وتستجوبك ، وتجيبك عن أفكارك الخفية ، بل تنظم أشعاراً كاملة . وكان وجه السيدة « ديجليمون » الذى يشبه الثلج واحداً من هذه القصائد المفزعة ، أو واحداً من تلك الوجوه المنتشرة بالآلاف فى (الكوميديا الإلهية) التى ألفها « دانته أليجييرى » .

وتستطيع طباع الجمال المميزة أن تعين تماماً فى أثناء الموسم السريع الذى تظل المرأة فيه كالزهرة على مداراة ما يقضى به ضعفها الطبيعى وقوانيننا ؛ ويمكن أن تبقى كل الانفعالات خفية تحت التلوين الفنى فى وجهها الناضر ، وتحت وهج عينيها ، وتحت شبكة ملامحها الرقيقة الناعمة ، وكثير من الخطوط المتضاعفة المنحنية أو المستقيمة مع

احتفاظها بالصفاء وبالتوافق التام . ولا تكشف عندئذ حمرة الخجل شيئاً مع وجود تلوين بالألوان الشديدة القوة سلفاً . وتمتزج كل المواقد الباطنة امتزاجاً حسناً مع اشتعال عينيها بالحياة ، حتى الشعلة العابرة للعناء لا تظهر فى كل ذلك إلا كدلال زائد إضافى . وكذلك لا شىء أكثر أمانة فى الكتمان من « الوجه الشاب » لأنه لا شىء أكثر منه ثباتاً . فوجه المرأة الشابة يمتاز بهدوء وانصقال ونضارة سطح البحيرة .

ولا تبدأ سيماء وجه المرأة إلا فى سن الثلاثين !

فحتى تلك السن لا يعثر المصور فى وجوههن إلا على لون وردى ولون أبيض ، وعلى ابتسامات ، وعلى تعبيرات تكرر نفس الفكرة .. فكرة الشباب والحب . . فكرة ذات زى واحد ، وبلا عمق . ولكن فى الشيخوخة يكون كل شىء فى المرأة قد تكلم ، وتكون العواطف قد رسخت فوق وجهها ، فقد كانت عشيقة وزوجة وأماً ، وانتهت أعنف تعبيرات البهجة ، والألم بأن غضنت وأنهكت ملامحها فاندفعت فوقه فى صورة ألف من التجاعيد التى تحتفظ كل منها بلغة معينة . ويصبح وجه المرأة حينئذ جليلا من الاشمئزاز جميلا من الكآبة أو رائعاً من الهدوء . وإذا كان مسموحاً بمواصلة هذه الاستعارة الغريبة قلنا إن البحيرة المجففة من مائها تبيح رؤية أخاديد كل السيول التى أوجدتها . فرأس المرأة العجوز لا يصبح بعد ذلك منتمياً إلى المجتمع الذى يرعبه، بسبب استهتاره ، أن يستشعر فيه انهيار كل أفكار الأناقة التى اعتادها

أو إلى عالم الفنانين العاديين الذين لا يكتشفون فيه شيئاً . ولكنه يظل منتمياً إلى الشعراء الحقيقيين ، وإلى أولئك الذين يملكون عاطفة الإحساس بالجمال مستقلاً عن كل ما يجرى به العرف والاتفاق مما تستند إليه كل الأحكام المسبقة فى مسائل الفن والجمال .

وبالرغم من أن السيدة «ديجليمون» قد وضعت فوق رأسها قبعة كالبرنس من أحدث الطرز لم يكن من الصعب رؤية شعر رأسها الذى كان أسود اللون فى السنوات الماضية وقد صار أبيض من شدة الانفعالات القاسية ؛ ولكن الطريقة التى فرقته بها فى عصبتين كانت تبوح بجودة ذوقها ، وتكشف عن عادات الرقة والدلال لدى المرأة الأنيقة ، وترسم جبينها الذابلة المغضنة بطريقة مكتملة فى الصورة التى تتوافر فيها بعض آثار بريقها القديم . وكان شكل وجهها وانتظام ملامحها يبوحان بفكرة ضعيفة فى الحقيقة عن الجمال الذى كان يملؤها بالغرور ، غير أن هذه العلامات كانت تكشف على الأكثر عن الآلام التى بلغت فى الماضى درجة الحدة اللازمة لكى تحفر وجهها وتبعث الجفاف فى فوديها ، مع تغوير الخدود وانحدار الجفون وانتزاع الرموش التى تخلق دلال النظرة .

كان كل شىء ساكناً فى هذه المرأة : خطواتها وحركاتها كانت تتميز بالبطء الرزين والتهويم الذى يفرض الاحترام . وبدا تواضعها الذى استحال إلى حياء نتيجة من نتائج العادة التى اعتادتها منذ بضع سنوات

فى أن تصبح لاشىء أمام ابنتها ، ثم صار كلامها نادراً عذباً مثل كلام كل الأشخاص المرغمين على أن يفكروا وأن يجمعوا شتات فكرهم وأن يعيشوا داخل ذواتهم . وأوحى ذلك الموقف وذلك الحزم بعاطفة لا تقبل التحديد . لم تكن خوفاً أو رأفة .. وإنما ذابت فيه خفية كل الأفكار التى توقظ هذه العواطف المتنوعة .

على أية حال كانت طبيعة تجاعيدها ، والطريقة التى تغضن بها وجهها ، وشحوب نظرتها المتألمة . كل هذا كان يشهد بأسلوب فصيح على الدموع التى يلتهمها قلبها أولا بأول . فلا تسقط إطلاقاً فوق الأرض وكان الأشقياء الذين اعتادوا تأمل السماء كى يرفع الله عنهم شرور الحياة . يستطيعون بسهولة أن يتعرفوا فى عينى هذه الأم على قسوة عادات الصلاة فى كل لحظة من لحظات اليوم ، وعلى الدوار الخفيف لهذه الأسرار المثخنة التى تنتهى بالقضاء على زهور الروح حتى تبلغ عاطفة الأمومة .

ويملك المصورون الألوان اللازمة لأمثال هذه الصور ؛ أما الأفكار والأقوال فلا تقوى على ترجمتها بأمانة ، إذ تلتقى فيها داخل أنغام لون البشرة ، وفى إطار تعبير الوجه، ظواهر لا تقبل التفسير مما تدركه الروح عن طريق الأبصار . ولكن حكاية الأحداث التى ترجع إليها مثل هذه الانقلابات المريعة فى سحنة الوجه هى الحيلة الوحيدة المتبقية للشاعر كى يجعلها مفهومة . وكان ذلك الوجه ينم عن زوبعة

هادئة باردة . وعن كفاح خفى بين بطولة ألم الأمومة وسقم مشاعرنا الفانية مثلنا نحن أبناء الفناء ، ولا يوجد منها شىء أبدى . ونشأ عن هذه الآلام المكبوتة باستمرار على طول الزمن شىء مرضى فى هذه المرة . ولاشك أن بعض الانفعالات الشديدة العنف قد أحدثت تغييراً جسمانياً عضوياً فى هذا القلب الملىء بالأمومة . وأن مرضاً لعله مرض « أم الدم » قد صار يهدد هذه المرأة ببطء على غير علم منها . فالآلام الحقيقية تبدو هادئة جداً فى مظهرها داخل مهادها العميق الذى تكونت فيه ، حيث تظل نائمة ، ولكنها توالى قرض الروح كالحامض المخيف الذى يثقب البلور !

فى تلك اللحظة خططت دمعتان خدى الماركيزة . ونهضت كأن فكرة أشد إيلاما من كل الأفكار قد جرحتها جرحاً بالغاً . لاشك أنها تأملت مستقبل « موينا » ، والواقع أن كل ضروب الشقاء الخاصة بحياتها كأنما هبطت على قلبها حين تنبأت بالآلام التى كانت تنتظر ابنتها .

وسيفهم موقف تلك الأم إذا شرحنا موقف ابنتها .

كان الكونت « دى سانت هيرين » قد رحل لإنجاز مهمة سياسية منذ قرابة ستة أشهر . وفى أثناء هذا الغياب تسلت « موينا » التى كانت تملك دواعى الزهو كعشيقة أليفة . وجمعت بين كل رغبات الأهواء فى الطفلة المدللة إما عن خفة وطيش أو عن رغبة فى الانسياق مع آلاف ميول التدلل فى المرأة .. ولعلها أرادت أن ترى مدى قدرتها فى أن تتعابث

بعاطفة رجل ماهر، ولكن بغير قلب يدعى السكر من نشوة الحب .. ذلك الحب الذى تمتزج به كل ألوان الطموح الاجتماعى المغرور لمحتال أحمق .

وكانت السيدة « ديجليمون » ذات تجربة طويلة علمتها معرفة الحياة ووزن الرجال والخوف من المجتمع . فلاحظت التقدم الذى تحقق خلال هذه الخديعة . وأحست مقدماً بضيعة ابنتها وهى تراها تقع بين يدى رجل لا يدرك قداسة شىء . ألم يكن ثمة شىء مخيف فى نظرها أن تتعرف على ملامح رجل داهية فى الإنسان الذى كانت تصغى له « موينا » بلذة كبيرة ؟ إن طفلتها الحبيبة كانت تقف إذن على حافة الهاوية . وكانت واثقة بذلك ثقة مفزعة ، ولم تجرؤ على أن تقفها ، لأنها كانت ترتجف أمام الكونتيسة . كانت تعرف مقدماً أن « موينا » لن تصغى لأى إنذار من إنذاراتها الحكيمة . فلم تملك أى نفوذ على هذه الروح التى كانت شبيهة بمادة الحديد بالنسبة إليها وغاية فى الطراوة والليونة بالنسبة إلى الآخرين . وفى الماضى كان حنانها يدفعها إلى الاهتمام بشقاوات عاطفة تسوغها الصفات الرفيعة فى صاحب الإغراء ؛ أما ابنتها فتتبع حركة تدلل وفتنة . وكانت الماركيزة تحتقر الكونت « ألفريد ديفانديتيس » لعلمها أنه رجل ينظر إلى صراعه مع « موينا » كدور من أدوار الشطرنج .

وبالرغم من أن « ألفريد ديفانديتيس » كان موضع اشمئزاز من هذه

الأم التعيسة، كانت مضطرة إلى أن تدفن أسباب كراهيتها الشديدة فى ثنايا أعمق أعماق قلبها . لقد كانت ذات علاقة موثقة حانية بالماركيز « ديفانديليس » والد « ألفريد » بحيث خولت هذه الصداقة المحترمة فى عيون الناس للرجل الشاب حماقة التردد تردداً أليفاً على بيت السيدة « دى سانت هيرين » التى أظهر لها عاطفة ظل يضمرها فى قلبه منذ طفولته .

وعلاوة على ذلك كان من العبث أن تعزم السيدة « ديجليمون » على إلقاء بعض العبارات المخيفة بين ابنتها و « ألفريد ديفانديتيس » كى تفصل بينهما ؛ إذ كانت واثقة بأنها لن تنجح فى ذلك بالرغم من قوة هذه العبارة التى كان يحتمل أن تصمها فى عينى ابنتها . فقد كان « ألفريد » فاسداً إلى حد بعيد . وكانت « موينا » تتمتع بفكر أكبر من أن يصدق كل ما يبوح لها به . بل كانت الكونتيسة الشابة ستروغ وتتملص منها بأن تعاملها على أساس أنها تتبع حيل الأمومة . وكانت السيدة « ديجليمون » قد بنت زنزانتها بيديها ، وأحاطت نفسها فيها بجدران حتى تموت فيها وهى ترى حياة « موينا » الجميلة تضيع .. تلك الحياة التى صارت كل مجدها وسعادتها وعزائها . . . بل صارت وجوداً أعز ألف مرة عليها من وجودها ... آلام بشعة لا تصدق وخالية من التعبير ! ... هوات بلا قاع !

وجعلت تنتظر بفروغ الصبر نهوض ابنتها ، وبالرغم من ذلك كانت تخشاه . مثل الشقى المحكوم عليه بالإعدام الذى يود لو ينهى حياته ،

والذى يملؤه البرد بالرغم من ذلك حين يفكر فى الخلاد . وقد عزمت الماركيزة على أن تحاول محاولة أخيرة . ولكنها كانت تخشى الإخفاق فى محاولتها أقل من خشيتها أن تخدش كبرياءها خدشاً أليماً على قلبها حتى استنفدت كل شجاعتها . ووصل حبها كأم إلى هذا الحد: أن تحب ابنتها وتخشاها فتمسك بخنجر وتذهب لاستقبالها .

وعاطفة الأمومة عادة كبيرة فى القلوب المحبة حتى إنه على الأم، قبل أن تبلغ حدّ عدم المبالاة، أن تموت أو أن تستند إلى قوة ضخمة .. الدين أو الحب . ومنذ استيقظت الماركيزة من النوم أخذت ذاكرتها المحتومة تتبع آثار كثير من هذه الوقائع الصغيرة من حيث المظهر . ولكنها أحداث كبيرة الشأن فى الحياة الأخلاقية . فالواقع أن حركة بسيطة تسبب أحياناً مأساة مروعة ، كما تؤدى لهجة الكلام إلى تمزيق حياة بأكملها . وتقتل نظرة لا مبالاة أرق المشاعر . وكانت الماركيزة « ديجليمون » قد شهدت لسوء الحظ الكثير جداً من هذه الحركات ، واستمعت إلى الكثير جداً من هذه الأقوال ، وتلقت الكثير جداً من النظرات المفزعة للروح ، حتى أمكن أن تهبها ذكرياتها بعض العشم . فقد كان كل شىء يثبت لها أن (الفريد) قد قضى عليها فى قلب ابنتها بحيث صارت ، وهى الأم ، أقرب إلى الواجب المفروض منها إلى المتعة والسرور .

وكانت آلاف الأشياء، وأشياء لا قيمة لها، تثبت لها سلوك الكونتيسة

المكروه حيالها وموقفها المشين فى إنكارها للجميل الذى يحتمل أن تكون الماركيزة قد اعتبرت هذا الجميل نفسه عقوبة سالفة . وكانت تبحث لابنتها عن أعذار فى مقاصد العناية الإلهية حتى تستطيع أن تتمادى قليلا فى عبادة اليد التى ضربتها . وتذكرت فى ذلك الصباح كل شىء ؛ وكان كل شىء يضربها من جديد بقوة فى صميم قدح شرابها المليء بالهموم والأحزان ، حتى أوشك أن يطفح إذا ألقيت فيه أصغر الآلام وأخفها ؛ وكانت تكفى نظرة برود واحدة لقتل الماركيزة .

ومن الصعب تناول هذه الوقائع البيتية بالوصف ولكن بعضها قد يكفى لبيانها كلها . وحتى وقد نال الصمم قليلا من أذنى الماركيزة لم تستطع قط أن تقنع ابنتها بأن ترفع صوتها قليلا من أجلها . واليوم الذى توسلت إلى ابنتها فيه بسذاجة الإنسان المريض أن تكرر عبارة لم تتبينها بوضوح أطاعتها الكونتيسة إلى ذلك . ولكن فى حالة من الإرغام والغضب لم تسمح للسيدة « ديجليمون » أن تعيد من جديد طلبها المتواضع .

ومنذ ذلك اليوم اعتادت الماركيزة أن تهتم بالاقتراب من « موينا » كلما روت حادثة أو تكلمت . ولكن غالباً ما بدت الماركيزة ملولا من العاهة التى كانت تؤاخذ أمها عليها . ولم يكن هذا المثل من بين ألف أخرى يصيب سوى قلب الأم . وكان يمكن أن يسهو الملاحظ عن كل هذه الأشياء ، لأنها كانت كلها من الدقائق الصغيرة التى

لا تحبها عيون أخرى غير عيون امرأة . كذلك كانت السيدة « ديجليمون » قد قالت لابنتها يوماً إن الأميرة « دى كاديتيان » قد جاءت لتزورها ، فما كان من هذه إلا أن صاحت ببساطة : « كيف هذا ؟ إنها جاءت لزيارتك ! » وقيلت هذه العبارات بلهجة وضعت فيها الكونتيسة احتقاراً رشيقاً طلته ببعض صبغات الدهشة . وتجد فيه القلوب الشابة الرقيقة عادة بعض حب الناس الذى يتمثل فى تعوّد بعض الشعوب البدائية قتل شيوخهم عندما لا يعودون قادرين على الإمساك بفرع شجرة يهتز هزّاً قوياً . ونهضت السيدة « ديجليمون » وابتسمت وراحت تبكى خفية .

ولا يظهر الناس من أصحاب التربية الصالحة — والنساء من بينهم بخاصة — مشاعرهم إلا فى لمسات دقيقة لا ترى ، ولكنها تكون صالحة للكشف عن ذبذبات قلوبهم بالنسبة إلى أولئك الذين تتوافر لهم فى حياتهم مواقف مماثلة لموقف هذه الأم المثخنة بالجراح . وعثرت السيدة « ديجليمون » وقد أثقلتها الذكريات على واحدة من هذه الوقائع الجهرية اللاذعة القاسية التى لم تفهم منها إلا آنئذ فقط ما كانت تخفيه وراء الابتسامات من الاحتقار الشرس . ولكن دموعها جفت عندما سمعت خصاص (شيش) النافذة يفتح فى غرفة رقاد ابنتها ، وعدت متجهة إلى النوافذ من الطريق الضيق الممتد بحذاء السور الذى كانت جالسة أمامه منذ قليل ، وكانت تلاحظ — وهى ماضية فى طريقها — مدى رعاية البستانى الخاصة التى بذلها فى جرف التراب من هذا الممشى ، وقد كان مهملاً قبل ذلك بوقت قليل .

وعندما بلغت السيدة « ديجليمون » تحت نوافذ ابنتها أقفل الخصاص (الشيش) فجأة . هتفت : « موينا » .

ولم تتلق إجابة .

قالت خادمة « موينا » رداً على سؤال الماركيزة بعد عودتها إلى مدخل البيت عما إذا كانت ابنتها قد استيقظت : « السيدة الكونتيسة فى الصالون الصغير » .

وكان قلب السيدة « ديجليمون » مليئاً إلى حد الفيض ، كما كان رأسها مشغولاً بشدة زائدة كى يصل بها التفكير فى تلك اللحظة إلى ظروف على قدر كبير من الخفة . وعبرت مسرعة إلى الصالون الصغير حيث وجدت الكونتيسة فى قميص الحمام وقد ألقيت فوق شعر رأسها الأشعث طاقية بإهمال ، وكانت قدماها فى (شبشب) ووضعت مفتاح غرفتها فى حزامها ، وعلى وجهها طابع الأفكار التى بلغت حد الزوبعة ، كما كانت ألوان وجهها شديدة . وجلست فوق أريكة وبدت كمن غرق فى التفكير .

قالت بصوت قاس : لماذا المجيء ! وواصلت كلامها فى حال مشتت بعد أن قاطعت نفسها : آه ! إنك أنت يا أماه !

— نعم يا طفلتى إنها أمك ...

ونطقت السيدة « ديجليمون » بأقوالها فى لهجة هذبت انسكاب القلب وعاطفة الحنوّ التى يصعب إعطاء فكرة عنها دون استخدام لفظة القداسة .

لقد لبست فى الواقع الطابع المميز المقدس للأم التى انشدهت ابنتها منه واستدارت نحوها فى حركة عبرت عن الاحترام والقلق وتأنيب الضمير معاً .

وأقفلت الماركيزة باب (الصالون) بحيث لا يستطيع أحد الدخول دون أن يحدث جلبة فى الغرف السابقة عليه ، وكان هذا الابتعاد ضماناً للسرية .

قالت الماركيزة : يا ابنتى من واجبى أن أنيرك فيما يتعلق بإحدى الأزمات التى كانت أكثر أهمية فى حياتنا النسائية ، والتى قد توجدين فيها الآن على غير علم منك ، ولكننى تحدثت عنها منذ قليل إليك كأم لا كصديقة . لست مسئولة عن هذه الأفعال إلا أمام زوجك ، ولكننى جعلتك تشعرين نادراً بسلطة الأمومة — ولعل ذلك كان خطأ — حتى صرت أعتقد أنه يحق لى أن أصغى لك ولو مرة واحدة على الأقل فى الموقف الخطير الذى تحتاجين فيه إلى نصائح . فكرى يا « موينا » أننى زوجتك من رجل ذى قدرات عالية تستطيعين أن تكونى فخوراً به وأن ...

صاحت « موينا » فى تعبير العصيان وهى تقاطعها : أمى ... إننى أعرف ما تريدين أن تقوليه .. سوف تحاولين أن تعظينى بشأن « ألفريد ... »

واصلت الماركيزة فى تجهم . وهى تحاول حبس دموعها : « إنك لا تجيدين التخمين .. إذا لم تكونى قد أحسست ... »

قالت بتعبير يكاد يكون مترفعاً : وماذا ؟ ولكن يا أمى فى الحقيقة ... »

صاحت السيدة « ديجليمون » وهى تقوم بمجهود عجيب : « موينا » لابد أن تسمعى ما ينبغى على أن أقوله لك ..

قالت الكونتيسة وهى تشبك ذراعيها ، وتتصنع الإذعان الوقح : « إننى مصغية » .

وقالت بدم بارد لا يمكن تصوره : اسمحى لى يا أماه أن أدق الجرس « لبولين » كى أصرفها ...

ودقت الجرس .

— يا طفلتى العزيزة لا تستطيع « بولين » أن تسمع ...

واصلت الكونتيسة فى تعبير جاد بدا شاذاً فى نظر الأم : « ياماما ، لابد لى ... » وتوقفت . وكانت الخادمة قد وصلت فقالت لها : « بولين » اذهبى بنفسك عند « بودران » لتعرفى سبب عدم وصول قبعتى إلى حتى الآن .

وعادت تجلس ناظرة إلى أمها بانتباه . وكان قلب الماركيزة قد تورم كما نال عينيها الجفاف . وأحست حينذاك بأحد الانفعالات التى لا تفهم سوى الأمهات آلامها . وأخذت الكلمة كى تثقف ابنتها بشأن الخطر الذى عاشت فيه . ولكن إما أن الكونتيسة وجدت نفسها قد جرحت بداعى الشكوك التى نشأت عند والدتها عن نجل الماركيز « ديفاندينيس » أو أنها صارت فريسة لإحدى نوبات الجنون غير المفهومة التى يكمن سرها فى عدم الخبرة ونقص التجربة لدى كل

الشباب . فانتهزت فرصة فترة السكون التى أتاحتها أمها كى تقول لها وهى تضحك ضحكاً مفتعلا : « ماما . لم أكن أعتقد أنك تغيرين إلا فيما يتعلق بالأب ... »

وأقفلت السيدة « ديجايمون » عينيها عند سماع هذه الكلمات . وخفضت رأسها . وأصدرت تنهداً رقيقاً للغاية . وألقت ببصرها فى الهواء كأنها تود أن تطيع عاطفة لا تقهر تدفعنا إلى الاستغاثة بالله فى أزمات الحياة الكبرى . ثم وجهت نحو ابنتها عينيها مليئتين بجلالة مرعية ، ومطبوعتين بطابع الألم العميق ، وقالت بصوت مضطرب فى تجهم : يا ابنتى لقد كنت قاسية على أمك أكثر مما كانت قسوة الرجل الذى أذنبت فى حقه ، ومن المحتمل أكثر من الله ...

ونهضت السيدة « ديجايمون » ولكن لم تكد تصل إلى الباب حتى استدارت ، ولم تشهد سوى الاستغراب فى عينى ابنتها . وخرجت ، وأمكنها أن تبلغ الحديقة حيث خارت قواها . وهناك استشعرت فى قلبها آلاماً قوية وسقطت فوق مقعد .

واستطاعت أن تلمح هنالك بعينيها الجائلتين فى التراب آثار خطوات قدم حديثة جداً ترك حذاؤه علامات يمكن معرفتها معرفة أكيدة . لقد كانت ابنتها ضائعة بلا أدنى شك . واعتقدت أنها فهمت الدافع إلى توكيل « بولين » بمهمة على هذا النحو .

وصحب هذه الفكرة القاسية إفشاء سر أشد كراهية وبغضاً من كل ما عداه

لقد اعتقدت أن ابن الماركيز « ديفاندينيس » قد حطم فى قلب « موينا » الاحترام الواجب من الابنة نحو أمها . وازداد عليها الألم . وغابت عن وعيها بلا حس . وبقيت كما لو كانت نائمة .

ووجدت الكونتيسة أن والدتها قد سمحت لنفسها بأن توجه إليها كلاماً لا ذعاً جافاً إلى حد ما وظنت أنها ستستطيع فى الليل — بإحدى الملامسات أو بتربيته وبعض الاهتمامات — أن تعيد وصالا أنصرفها بينهما . ولم تكد تسمع صيحة فى الحديقة حتى مالت بغير اهتمام كبير ، فى نفس اللحظة التى نادت فيها « بولين » ولم تكن قد خرجت بعد ، نداء الاستنجاد ، وأمسكت بالماركيزة بين ذراعيها .

كانت آخر كلمة نطقت بها هذه الأم : لا تثيرى فزع ابنتى .

وشهدت « موينا » تقل أمها شاحبة بغير حياة . وهى تتنفس بصعوبة مع تحريك ذراعيها كما لو كانت تريد أن تقاوم أو أن تتكلم . وتبعت « موينا » والدتها وقد صرعها هذا المشهد . وأعانت فى صمت على رقادها فى سريرها . وعلى خلع ملابسها ، وثقلت عليها غلطتها .

وفى هذه اللحظة المتناهية عرفت أمها ، ولم تعد قادرة على أن تصلح أى شىء . وأرادت أن تكون معها على انفراد . وعندما لم يعد أحد معهما فى الغرفة . وأحست ببرودة هذه اليد التى كانت دائماً تربت عليها وتلاطفها انهمرت دموعها .

وأفاقت الماركيزة على هذا النحيب فكان لا يزال فى مقدورها أن

تنظر إلى محبوبتها « موينا » . ثم تحت تأثير صوت ابنتها الذى كان على وشك أن يمزق صدرها الرقيق غير المنتظم ، جعلت تتأمل ابنتها وهى تبتسم . وأثبت هذا الابتسام لقاتلة أمها الصغيرة أن قلب الأم هوة يوجد العفو فى قاعها دائماً .

وبمجرد التعرف على حالة الماركيزة أرسل خدم فوق الجياد ليأتوا بطبيب وبجراح وبأحفاد السيدة « ديجليمون » . وقد وصلت الماركيزة الصغيرة وأولادها فى نفس الوقت الذى وصل فيه رجال الحرف وكونوا جمعية رهيبة صامتة قلقة اختلط بها الخدم .

وجاءت الماركيزة الصغيرة التى لم تسمع أية ضوضاء تدق برقة على باب الغرفة ، وعند سماع هذا الصوت استيقظت « موينا » بلا شك من ألمها ، ودفعت فجأة مصراعى الباب ، وألقت بنظرات شاردة نحو هذه الجمعية الأسرية ، وبدت فى حالة من سوء النظام ، مما كان ذا تعبير أرفع من تعبيرات اللغة . وظل الكل صامتاً إزاء مشهد تأنيب الضمير الحى على هذا النحو ، وكان من السهل أن ترى أقدام الماركيزة الصلبة الممددة فى تقلص فوق سرير الموت . واعتمدت « موينا » فوق الباب ، ونظرت إلى أقاربها وقالت فى صوت أجوف :

« لقد فقدت أمى ! »

باريس ١٨٢٨ — ١٨٤٤

المحتويات

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٥٠٩ / ١٩٧٠

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠

امرأة فى الثلاثين

ولد بلزاك فى ٢٠ مايو سنة ١٧٩٩ بمدينة (تور) بفرنسا، وتوفى فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٥٠. وعاشت معه بين هذين التاريخين أحداث التحول الفكرى، والسياسى، والاجتماعى، والأدبى، والفنى، فى فرنسا وفى العالم أجمع.

وكان بلزاك كاتباً خصباً أغنى الأدب الروائى الفرنسى بعدد من الأعمال الخالدة؛ مثل: «جلد الأحزان»، و«الأب جوريو»، و«أوجينى جرانديه»، و«المهزلة الإنسانية»، و«طبيب الأرياف»، و«الأوهام المنقشعة». ولم يكن بلزاك هو واضع نظرية الأدب الواقعى، ولكنه كان المرهص بها الذى حدد معالمها أكثر وأكثر، كلما تقدم فى كتاباته، ونأى بذلك شيئاً فشيئاً عن الرومانتيكية.

وكان بلزاك أميل إلى الواقعية فى هذه الرواية التى صور فيها «امرأة فى الثلاثين»، وإن ظل الإطار مصبوغاً بروح الرومانتيكية. وهى رواية استلهمها من شخصية امرأة حقيقية فى الثلاثين من عمرها اعتادت أن تراسله تقديراً واحتراماً لفنه وأدبه. ومن بين الأحداث الواردة فى خطاباتها ما يكشف عن أن الكثير من وقائعها حقيقى. وقد أوحت إليه هذه السيدة بمعظم مواقف الجد والصرامة فى حياة السيدة «ديجليمون» التى تصورها روايته؛ فقد تزوجت هذه السيدة من ضابط كبير، برغم تحذير والدها لها، وعاشت بعد ذلك عدداً من المآسى، وماتت فى حياتها وحيدة بناتها من بعدها ما يرويه بلزاك هنا بقلبه المرهف الحساس، ووجدانه الرقيق، وقلمه الفنان المبدع.

ص ٤٥